المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المسافرون الإنجليز

الجزء الأول

رواية

تــألــيــف: ماثيو نيل

تــرجــمــة: د. علي محمد سليمان

مــراجــعــة: د. علي العنزي

المسافرون الإنجليز - الجزء الأول

رواية

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

كامل سليمان العبدالجليل

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

أ. د. عيسى محمد الأنصاري

د. زبيدة علي أشكناني

د. ليلى عثمان فضل

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

د. سعاد عبدالله العنزي

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-655-3

المسافرون الإنجليز

رواية

ن الأصلي

English Passengers

By: Matthew Kneale

©Matthew Kneale, 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2019م

إبداعات عالمية - العدد 434

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

الفهرس

مقدمة المترجم 9

الجزء الأول 19

الفصل الأول

القبطان إيليام كويليان كيولي، يونيو 1857 21

الكاهن جيفري ويلسون، يونيو 1857 41

القبطان إيليام كويليان كيولي، يونيو 1857 63

الكاهن جيفري ويلسون، يوليو 1857 77

الفصل الثاني

قبل سبعة وثلاثين عاما جاك هارب 1820 85

بيفاي، 1824 - 1828 91

جورج باينز، الموظف في شركة أرض العالم الجديد، 1828 ... 107

بيفاي، 1828 129

الفصل الثالث

القبطان إيليام كويليان كيولي، يوليو 1857 135

الفصل الرابع

جاك هارب، 1821 - 1824 149

بيفاي، 1828 151

بيفاي، 1829 155

الفصل الخامس

القبطان إيليام كويليان كيولي، يوليو 1857 173

الكاهن جيفري ويلسون، يوليو - أغسطس 1857 177

الدكتور توماس بوتر، أغسطس 1857 187

تيموثي رينشو، أغسطس 1857 189

الفصل السادس

جون هاريس - مستوطن وملّاك أراضٍ في تاسمانيا 1829 203
جاك هارب، 1824 - 1830 211
بن هايز - مزارع في أرض فان ديمن، 1830 215
بيفاي، 1830 221
بن هايز – مزارع في أرض فان ديمن، 1830 227
جورج أولدر، حاكم أرض فان ديمن، 1830 231
بيفاي، 1830 - 1831 235

الفصل السابع

تيموثي رينشو، أغسطس – سبتمبر 1857 241
الكاهن جيفري ويلسون، أكتوبر 1857 253
الدكتور توماس بوتر، أكتوبر 1857 257
القبطان إيليام كويليان كيولي، أكتوبر 1857 259
الكاهن جيفري ويلسون، أكتوبر 1857 269

الفصل الثامن

روز هاوس - بريستول 12 أكتوبر 1832 275
جاك هارب، 1830 - 1837 279
يوليوس كرين – مفتش لجنة سجون لندن، 1837 291
جاك هارب، 1837 305

مقدمة المترجم

يتعرف القارئ العربي في هذه الترجمة على واحدة من أهم الروايات التاريخية في الأدب الإنجليزي المعاصر وعلى تجربة فريدة في السرد التاريخي الحديث عموما. ومثل كل الروايات التاريخية العظيمة تتجلى فرادة هذه الرواية في قدرتها على طرح رؤى معاصرة من خلال قراءة إبداعية للتاريخ تتجاوز الصيغ الرسمية لهذا التاريخ وتتحدى السرديات والمنظومات الفكرية المؤسسة له وتتيح فضاءات رحبة للسرديات المهمشة والمقموعة؛ فضاءات للإنسان وللضحايا والأبطال المنسيين. إلا أن «المسافرون الإنجليز» تضيف إلى كل ذلك ما هو أكثر من حيث كونها إنجازا جماليا باهرا لا يستكين إلى تقاليد القص التاريخي وعراقة التراث الروائي في الأدب الإنجليزي بقدر ما يطمح إلى التجديد والتجاوز ليس في التقنيات والأسلوبيات فحسب، بل وفي جوهر علاقة الأدب بالتاريخ أيضا.

وما يثير الدهشة في هذه الرواية أنها تقرأ التاريخ ليس كمعلومات أو كنصوص ثابتة، بل ككائن ينبض بالحياة والتناقضات ويضج بالألوان والمفارقات، حتى ليخال المرء أنه تاريخ يتنفس ويتحرك في الزمان والمكان ويتغير في كل لحظة من وجودنا فيه

ومـن وجـوده فينـا. لا يعنـي هـذا أن الـروائي يطلـق العنـان لعمليـة التخييـل في رسـم عوالمـه الروائيـة الشاسـعة متجاهـلا المرجعيـات والوثائـق أو المنهجيـات العلميـة ومـا تفرضـه مـن ضوابـط. عـلى العكـس تمامـا، فنحـن أمـام عمـل إبداعـي طليـق الخيـال، لكنـه في ذات الوقـت مشـبع بمجهـود معـرفي وتوثيقـي هائـل يقـارب الإحاطـة الموسـوعية بموضوعـه. وإذ لا تخفـى براعـة الـروائي هنـا في توظيـف معارفـه التاريخيـة التخصصيـة في صياغـة العـوالم والشـخصيات الممتدة في الزمـان والمـكان عـلى مسـاحات تـكاد تغطـي الكـرة الأرضيـة برمتهـا، إلا أن ذلـك لا يطغـى في أي لحظـة عـلى ألـق الإبـداع وجـرأة الفنـان في التجريـب والغـوص عميقـا في أغـوار القلـق الإنسـاني وأسـئلة التاريـخ الكـبرى. نحـن إذن أمـام شـخصية الـروائي العـالم بـكل مـا تعنيـه الكلمـة. فالـروائي ماثيـو نيـل هـو قبـل كل شيء متخصـص في علـوم التاريـخ وحاصـل عـلى درجـة أكاديميـة مـن جامعـة أكسـفورد البريطانيـة في التاريـخ الحديـث.

ولـد ماثيـو نيـل في لنـدن عـام 1960 في بيئـة احتضنـت موهبتـه الأدبيـة منـذ طفولتـه المبكـرة ووفـرت لـه وسـطا ملائمـا لتكويـن شـخصيته المسـتقلة ومهـدت لـه الطريـق نحـو تأهيـل أكاديمـي مرمـوق وتجربـة ثقافيـة غنيـة. فعائلتـه كانـت عـلى تمـاس مبـاشر مـع الحيـاة الأدبيـة والثقافيـة في بريطانيـا، حيـث كان أبـوه نايجـل نيـل كاتـب سـناريو معروفـا بينـما كانـت أمـه جوديـث كـير كاتبـة أدب أطفـال. نشـأ في مدينـة لنـدن حيـث أتـم دراسـة المرحلـة الثانويـة ثـم التحـق بجامعـة أكسـفورد ليـدرس التاريـخ الحديـث. عـرف عنـه خـلال مرحلـة الدراسـة الجامعيـة ولعـه بالثقافـات واللغـات الأخـرى وشـغفه بالسـفر إلى أماكـن وبـلاد جديـدة، وقـد سـافر خـلال شـبابه

إلى مختلف أنحاء العالم في القارات الخمس. تخرج من أوكسفورد عام 1982 ليقضي بعدها عاما في اليابان للعمل في تدريس اللغة الإنجليزية؛ تجربة فتحت له آفاقا رحبة للتعرف على الثقافات والآداب العالمية وكانت محطة أولى في رحلة طويلة من الأسفار والتجارب في جغرافيات وعوالم متنوعة أضافت إلى تكوينه المعرفي في مجال التاريخ الحديث خبرات سيكون لها أثرا واضحا في كتاباته.

خلال إقامته في طوكيو بدأ يكتب قصصا قصيرة في بيئة أكسبته حساسية ثقافية خاصة تجاه التعدد ومعرفة الآخر بالتجربة والدراسة، ولم يكن من المفاجئ أن تكون أحداث روايته الأولى «ولائم مومس» في اليابان والتي صدرت عام 1987 وأعيد نشرها بعنوان جديد «السيد الأجنبي» عام 2002. ورغم أنها باكورة أعماله الروائية إلا أنها حصلت على جائزة Somerset Maugham عام 1988.

صدرت روايته الثانية «داخل مملكة روز» عام 1989 وتدور أحداثها في لندن بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. تعبر الرواية عن تناقضات حياة المدينة من خلال سيرة بطلها ويليام كيد الذي يهجر عائلته هربا من الضجر الذي تفرضه الحياة في الريف الإنجليزي. صدر للمؤلف بعد ذلك العديد من الروايات منها: «التايمز العذب» 1992، «عندما كنا رومان» 2007، كما صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «جرائم صغيرة في عالم من الرخاء» 2005. استحوذت أعمال نيل الأدبية على اهتمام نقدي واسع وحققت له شهرة عالمية وحصلت على العديد من الجوائز الأدبية المرموقة منها: Prix Relay du Roman d'Evasion إيطاليا عام 2002؛ Miles Franklin Award أستراليا عام 2001؛ Whitbread Book

of the Year بريطانيا 2000؛ Mail on Sunday/John Llewellyn Rhys Prize بريطانيا 1992.

انتبه النقاد منذ بداية مسيرته الأدبية إلى قدرة نيل على مقاربة الموضوعات المعاصرة والتاريخية من خلال حس كوميدي ينفذ إلى عمق المواقف الإنسانية وينبع من موقف نقدي أصيل تجاه التاريخ خصوصا فيما يتعلق بتراث العلاقة الإشكالية مع الآخر. وتشكل روايته «المسافرون الإنجليز» التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر العالمية عام 2000 كما يجمع النقاد ذروة نضج مشروعه الروائي في هذا السياق، إذ تتصدى الرواية إلى نقد الخطاب التاريخي والفكر الذي أسس للحداثة الأوروبية في مرحلة حاسمة تجلت فيها الأزمة الأخلاقية لكل تلك المنظومة الفكرية في أقصى حالاتها خلال القرن التاسع عشر. يحلل الكاتب بنية الخطاب والمنظومات الفكرية والسياسية المؤسسة للتجربة الاستعمارية ويكشف عن لحظة حاسمة في صيرورتها.

تظهر الرواية سمة بارزة في كتابات نيل في لحظة تألقها وبراعة توظيفها جماليا. إنها السخرية والنبرة التهكمية التي لا تخلو من سوداوية تنبع من موقف نقدي أصيل لدى الكاتب ومن حساسية فائقة في إضاءة التناقضات والمفارقات في حياة البشر وفي علاقتهم مع العالم. تتجلى المفارقات تلك في عدسة الروائي من خلال مصائر تضحكنا بقدر ما تفجعنا بتراجيديتها، وكأن الكوميديا ليست سوى موقف نقدي من التاريخ ذاته. التاريخ الذي كتبه الأقوياء ليكون نصوصا تبرر الاستبداد والاستعمار واضطهاد الشعوب يغدو منظومة هيمنة لا يمكن تفكيكها وتحديها إلا من خلال قدرة الفن السحرية على نزع القدسية والشرعية عنها وذلك عبر

الضحك والسخرية. والمفارقات التي تخلق الكوميديا هنا أصيلة وعميقة وليست في هذه الرواية اختلاقا أو عنصرا خارجيا تفرضه التقنيات السردية بقدر ما هي ملامح جوهرية غيبها الخطاب الرسمي ونفاها إلى هوامش المحرم والمسكوت عنه. كل شيء في جغرافيات العالم المتحولة والمتناحرة، بين القارات الخمس وما بينها من مجاهل المحيطات التي تجتازها سفينة القبطان إيليام كويليان كيولي في رحلتها الرهيبة من عالم الإمبراطورية القديم إلى عوالم المستعمرات الجديدة، من حضارة المستعمِر المأزومة إلى حضارة المستعمَر المبادة، ومن مركز الفكر الاستشراقي الأوروبي إلى مواطن الأقوام الأصلية النائية؛ كل شيء يتفكك وينهار ليكشف عن زيفه وبطلانه. من الفكر اللاهوتي الذي وظفته المؤسسة السياسية الحاكمة لتسويق أيديولوجيا التفوق العرقي إلى التجربة الاستعمارية في استيطان قارة أستراليا وغيرها من المستعمرات، إلى كامل المنظومة الفكرية والتعليمية والسياسية التي تقوم عليها الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس، كل شيء ينهار ويتحول إلى خرافات أو حطام ترسمه الرواية بحس تهكمي ساخر لا ليخفف من فظاعته أو من آثاره المدمرة على الحياة الإنسانية، بل لينزع الشرعية عنه وليضعه في سياق حق الإنسان في التفكير والنقد والرفض الاستسلام. حتى السفينة التي حملت بعثة الاستكشاف بكل خرافاتها وحمولتها الأيديولوجية والعنصرية تحت شعار حملة مقدسة لاكتشاف جنة عدن في جزيرة تاسمانيا موطن أكثر سكان أستراليا الأصليين فقرا لم تكن في حقيقة الأمر سوى وسيلة سرية لتهريب بضائع ممنوعة. حتى هذه السفينة تتحطم في رحلة العودة إلى إنجلترا وتغرق. أليست هذه السفينة

التي لم تكن بعثة الاستكشاف المقدسة على متنها سوى ذريعة أو غطاء لتهريب التبغ والمشروبات الكحولية رمزا لحضارة كاملة باعت كل شيء مقابل المال وانتهت في النهاية إلى حطام تتقاذفه أمواج المحيط!

هكذا تنسج الرواية خيوط حبكتها ببراعة فيتحول رجل اللاهوت الكاهن جيفري ويلسون قائد رحلة الاستكشاف المقدسة التي تبحث عن الفردوس المفقود في المستعمرة الجديدة بين أنقاض حضارة شعبها وبين قبور سكانها الذين أبادتهم حضارة الأوروبي القادم من وراء المحيطات إلى مجرد مهرج أحمق يقود فريقه إلى الهاوية والهلاك وتنتهي به مغامرته الخرقاء ليكون أبله يتسول قوته ويلهج بما تبقى في عقله المريض من خرافات مضحكة.

إنها الخرافة بكل ما فيها من زيف وركاكة تتجلى لنا في مصائر الشخصيات كأساس حضارة قامت على فكرة التفوق؛ أساس يتداعى لينهار البنيان فوقه في مشهد يحملنا بكل ما فيه من تراجيديا إلى لحظة كشف قاسية بالتأكيد لكنها مفتوحة على تهكم مرير وسخرية لاذعة من التاريخ. هل هناك أكثر رعبا وتهكمية من مصير الدكتور توماس بوتر، العالم الذي لم تكن رحلة الاستكشاف المقدسة بالنسبة إليه سوى ذريعة لجمع عينات من جثث وعظام ضحايا الاستعمار من سكان أستراليا الأصليين بهدف إجراء بحث يثبت نظريته عن خصائص ومصائر الأقوام والأعراق البشرية؟! جمع هذا العالم عيناته في صناديق خشبية واستقى منها معلومات وملحوظات ليكتب أثناء الرحلة كتابا بعنوان «مصائر الأمم» يورد فيه نظريته عن التاريخ. يزعم بوتر هذا أن التاريخ ليس سوى نتيجة لصراع الأعراق التي يصنفها وفق تراتبية دقيقة تقوم على

فكرة التفوق الحضاري بناء على خصائصها البيولوجية، ويقول إن الأمم تتصارع تبعا لتصنيفها العرقي في مسيرة تنقرض في نهايتها الأعراق الأدنى التي يصفها بالهمجية لصالح أعدائها الأرقى، وإن الصراع في النهاية سيؤول إلى صدام حتمي وتاريخي ينتصر فيه الساكسونيون العرق الأرقى الذي سيسود الأرض. صدام الحضارات الحتمي هذا ليس مجرد خرافة تنتهي بجمجمة العالِم نفسها معلقة في أحد متاحف لندن بعد العثور عليها بين صناديق عيناته التي جلبها من أستراليا في قاع البحر مع حطام السفينة، بل إنها أيديولوجية لا تزال راهنة في عصرنا هذا رغم زيفها وعنصريتها. ألم تتردد أصداء خرافات شبيهة بحتمية صدام الأعراق في كتب مفكرين معاصرين مثل صموئيل هتنغتون؟ أولم تحمل سفن أخرى حملات مقدسة كذريعة للتهريب والإتجار بأرواح البشر تحت شعارات براقة ونظريات وخرافات معاصرة تسوق الحروب وتبرر القتل؟

تأخذنا الرواية إلى استكشاف عوالم شاسعة يتردد في أنحائها صدى سؤال جوهري: كيف لعالم تحكمه الخرفات أن ينجو من مصير سفينة الكابتن كيولي؟! وهنا تكتسب مقولة المفكر العربي إدوارد سعيد في تصديه لنظرية صدام الحضارات دلالة بالغة الأهمية في قراءة رواية «المسافرون الإنجليز». ولعله ليس من قبيل المصادفة أن تحاور رواية تتصدى لتفكيك الخطاب الاستشراقي والثقافة العنصرية التي حكمت الظاهرة الاستعمارية فكر صاحب «الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية». لقد سخر المفكر الراحل من تلك الأطروحة بقوله إنها صدام الجهالات. هنا يمكننا فهم دعوة إدوارد سعيد إلى التصدي لخرافات العصر، فهو عندما يعتبر أن

واجب المثقف الأول أن يتصدى للخرافة ويفككها إنما يشير إلى ما يفعله ماثيو نيل في روايته هذه بلغة الروائي وبجرأة قل نظيرها بالفعل. جرأة وصلت بالكاتب إلى تحويل تاريخ كامل إلى أضحوكة ومجرد خرافات تبددها أمواج المحيط مع حطام سفينة تتداعى أمام هول التجارب.

والرواية إذ تدعو القارئ إلى مغامرة معرفية على هذا القدر من العمق والجرأة والجدل مع التاريخ والفكر الحديث فإنها لا تسعى إلى ذلك من خلال إسقاطات مباشرة تعيد إنتاج خطاب شمولي يحتكر الحقيقة أو المعرفة، بل من خلال فتح آفاق جديدة لسرد متعدد الأصوات يغاير شمولية ذلك الخطاب المؤسس لأساطير التفوق والهيمنة. ففي الرواية واحد وعشرون راويا، كلهم أصوات متنوعة الانتماءات والثقافات والمرجعيات والجغرافيات. أصوات تنسج عبر تعددها واختلافها وتناقضاتها وصراعاتها جدلا دائما بين تواريخ وأزمنة وشعوب وعقائد وجغرافيات هذا العالم المضطرب وتؤسس بذلك لكتابة تاريخ جديد متحرر من سلطة الأيديولوجية الحاكمة. تاريخ يتيح فضاءات لأصوات الضحايا والمهمشين ويمنحهم الحق في المشاركة في كتابة تواريخهم وتحدي خطاب الآخر المستعمِر وينزع حق احتكار الحقيقة عن مراكز الإمبراطوريات البائدة والجديدة على السواء.

يوظف السرد متعدد الأصوات هذا عدة وثائق في نسيجه المتشابك فيخرجها من عزلة الأرشيف إلى الهواء الطلق مانحا إياها حياة ودلالات جديدة، وكأنه بهذا يستعيد التاريخ من سجونه ومتاحفه ويورطه في مغامرات البحث والأسئلة. من هذه الوثائق رسائل كتبتها بعض الشخصيات التي تحيل إلى أشخاص حقيقيين

عاشوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وشهادات تتعلق بحياة السكان الأصليين في أستراليا عموما وفي جزيرة تاسمانيا على وجه الخصوص. كل هذا ليجد القارئ نفسه أمام كم هائل من الحكايات والشخصيات والأحداث تتفاعل كلها في عدة أزمنة وأمكنة وتكتب التاريخ الإنساني في مسارات متعددة لا تقبل نهايات نمطية أو حتمية، وكأننا أمام خطاب يتحدى الثقافة والفكر الذي سوّق لفلسفة النهايات في أواخر القرن العشرين وبشّر بنهاية الصراع التاريخي لصالح الإمبراطوريات الجديدة. لا يمكن ونحن نقرأ هذه الرواية إلا أن نتذكر -وربما بشيء ما من السخرية- أطروحات مثل «نهاية التاريخ» للمفكر الأمريكي ميشيل فوكاياما وغيرها من النبوءات التي تردد صداها في العقدين الأخيرين من القرن الماضي مبشرة بالانتصار الحتمي لنمط جديد من الإمبراطوريات والمنظومات الشمولية.

رواية «المسافرون الإنجليز» تطمح في هذا السياق إلى إنجاز جمالي قبل أن يكون فكريا، أي أنها تتصدى إلى مهمة أصيلة من مهام الأدب الرفيع في فتح آفاق يكتشف القارئ من خلالها العالم والحياة، الحاضر والماضي، التاريخ والجغرافيا في تجربة من المتعة والدهشة وتجرد التاريخ بذلك من حجب المحرمات ومن سلطة الطغاة والمستبدين.

سيجد القارئ العربي في هذه الرواية مغامرة لاكتشاف واحدة من المقاربات الأكثر جرأة في إعادة قراءة التاريخ في الأدب الإنجليزي الحديث.

د. علي محمد سليمان

الجزء الأول

الفصل الأول
القبطان إيليام كويليان كيولي، يونيو 1857

لنقل إن رجلا أصيب برصاصة في جمجمته في حرب ما، فمن أين تبدأ حكايته؟ قد تقولون إن السؤال سهل، وإن تلك اللحظة تعود إلى اليوم الذي انطلق فيه بطلنا مع الجنود رفاقه الجدد، يتقدمون في مسيرتهم، كلهم أذكياء يضحكون ويلوحون للفتيات على الطريق. ولكن هل الأمر كذلك حقا؟ لماذا لا تكون تلك اللحظة عندما قبض أول شلن[1] فاغر الفم كضفدع نهم وهو يصغي لإطراء الرقيب؟ وماذا عن ذاك الصباح المشرق، حين بلغ السادسة من عمره وهو يشاهد الجنود يذرعون بعنفوان وصخب شارع القرية بخطاهم الواسعة؟ ولماذا لا نعود إلى الوراء، إلى البداية في تلك الليلة الطويلة الساكنة، حيث وُلد طفل صغير وبدأ لتوه يحدق فيما حوله بدهشة، وبيدين متناهيتي الصغر. يدان صغيرتان ما كان ليخطر في بالكم أنهما ستكبران في يوم ما، بما يكفي لتقويا على حمل بندقية ثقيلة وزرع رصاصة في دماغ صديقنا الميت المسكين.

إن كان علي اختيار بداية لكل تلك الغرائب التي كانت تتبدى أمامي، فلعلي أختار ذاك الصباح الذي كنا نبحر فيه شمالا من

---

(1) الشلن Shilling وحدة نقدية، جزء من عشرين من الجنيه الإسترليني.

أحد المرافئ الفرنسية الخفية عن الأنظار حيث كان الشراب والتبغ من أرخص ما يكون. ليس لأن في ذلك ما كان يشبه بداية لأي شيء حينها، بل لأنه كان النهاية تقريبا، أو ربما هكذا كنت أرغب. كانت سرعة الرياح منتظمة والسفينة على وئام مع الطقس، ولعلي أجرؤ على القول إن كل واحد من البحارة على سطح المركب كان خلال انهماكنا في أعمالنا يحلم بالمال الذي لم يحصل عليه بعد، وبألوان المتع التي يمكن أن يجلبها له. كان البعض يصرف المال بسرعة من يتنحى جانبا ليقضي حاجة على عجل وهو يمنّي نفسه بجرعات من الشراب والتبغ، أو ربما بنصيب من نعومة جسد أنثوي. قلائل قد يصرفون كل بنس في حلمهم على حذاء أو معطف جديد ليبهروا مدينة بيل بأناقتهم ليوم أو يومين، بينما يتحلى الآخرون في أحلامهم بالحيطة، فينفقوا ما لديهم لتسديد أجرة سكنهم وشراء صمت زوجاتهم.

وماذا عن إيليام كويليان كيولي؟

فيما كانت سفينة الإخلاص تتقافز وتتلاطم مع الأمواج بعنف كنت أنا أحلم بشارع القلعة يوم السبت، حيث الهرج والمرج والجميع يراقب بعضهم بعضا، وأنا أمشي مع إيليساد في ثياب أنيقة جديدة نتبختر برأسين شامخين كأننا لوردان دون أن يقول أحد: «انظر إلى آل كيولي. ألا تعلم أنهم كانوا من علية القوم؟». أو ربما حلمت بجدي الأكبر العظيم، الذي لم أقابله في حياتي، والذي عُرف بكيولي الكبير، لأنه كان الوحيد في عائلته الذي يكسب مالا بدلا من أن يخسر. هناك كان يطل من السماء بمنظاره ويقول بصوت مدوٍّ كالرعد: «احفظه يا رب، إيليام كويليان كيولي حفيدي العظيم، هذا الرجل الذي يقدر على الفعل».

ثـم قوطعـت أحلامنـا فجـأة بصـوت تـوم تـير ينـادي مـن أعـلى الصـاري حيـث كان يراقـب: «أبحـر، أبحـر إلى الشـمال الغـربي». لم يكـن نـداؤه ليقلـق أي أحـد منـا وقتهـا، فالقنـال الإنجليـزي مـن أكـثر الممـرات المائيـة هـدوءا، ومـا كان لأحـد أن يتوقـع اكتشـاف سـفينة أخـرى تتسـلل صوبنـا. تابـع الشـباب عملهـم في تنظيـف سـطح السـفينة بينـما بقينـا أنـا ورئيـس البحـارة بـرو واقفـين في المؤخـرة نراقبهـم.

لكـن عليكـم أن تعرفـوا بعـض الـشيء عـن الإخـلاص، إذ إنكـم هنـا أمـام أعجوبـة صنعـت بكاملهـا مـن الخشـب، إن كان لأعجوبـة كهـذه أن توجـد عـلى الإطـلاق. لا أعتقـد حقيقـة أنـه بوسـعكم أن تتخيلـوا سـفينة تبـدو عاديـة أكـثر مـن الخـارج، بـل إني أجـرؤ عـلى القـول إنهـا قديمـة بعـض الـشيء، قيدومهـا مفلطـح وثلـم، ومؤخرتهـا أعـلى مـما يناسـب الطـراز الحديـث، لكنهـا فيـما عـدا ذلـك عاديـة كميـاه البحـر. وأراهـن أنكـم قـد تقضـون يومـا كامـلا عـلى سـطحها دون أن تلاحظـوا أي شيء مـن ذلـك، إلا إن كان لديكـم عـين خبـيرة بتفحـص أبعـاد الأشـياء، أو حـدث أن نظرتـم بتمعّـن مـن فـوق إطـار البـاب الداخـلي نحـو مخـزن المـؤن، وهـذا مـا أسـتبعده. حـرص كهـذا لم يكـن مطلوبـا في أيـام جـدي الأكـبر كيـولي. كانـت جزيـرة أيـل أوف مـان لا تـزال حـرة ومسـتقلة وقتهـا ولم يكـن السياسـيون الإنجليـز قـد اشـتروها بعـد. وكأي أرض حـرة ومسـتقلة، كانـت تفـرض بنفسـها مـا تريـد مـن ضرائـب متسـاهلة عـلى البرانـدي والتبـغ ومـا شـابه، وبعـرف تلـك الأيـام كانـت بالـكاد تفـرض شـيئا. كان ذلـك بحـق، العـصر الذهبـي لآيـل أوف مـان. كل المراكـب والسـفن تتوجـه إلى مرافئهـا مـن كل أنحـاء العـالم. مـن أوروبـا وأفريقيـا، ومـن جـزر الهنـد شرقهـا وغربهـا. لمـاذا؟ لأن أرصفـة موانئهـا كانـت تغـص بالبراميـل وحاويـات البضائـع، بحيـث كان الرجـال

بالـكاد يجـدون بينهـا طريقـا إلى سُـفنهم. وأكـثر مـن ذلـك، كانـت كل قطـرة برانـدي أو وريقـة تبـغ رخيصـة غـير مدفوعـة الضرائـب قانونيـة ومشروعـة كمشروعيـة الملـك جـورج نفسـه.

مـن الطبيعـي أنـه لم يكـن مـن اللائـق التعاطـف مـع رجـل مـن آيل أوف مـان، كجـدي الأكـبر، وهـو يسـتأثر بـكل ذلـك لنفسـه في حـين كان الكثـير مـن الرجـال الفقـراء مـن إنجلـترا واسـكوتلندا وإيرلنـدا وويلـز يصرخـون شـاكين مـن جبـاة الضرائـب الشرهـين لديهـم. كان يبـدو فعـلا كريمـا أن تُحمِّـل قاربـا في ليلـة غـير مقمـرة وتدعـه ينسـل عـبر البحـر إلى شـاطئ هـادئ في اسـكوتلندا أو أيرلنـدا، وحتـى إلى إنجلـترا وويلـز، فأيـل أوف مـان تقـع في وسـط هـذه الجهـات. سـاعدهم هكـذا، ولا تبـالي بالأحاديـث الرائجـة عـن التجـارة الحـرة، فـما هـي إلا مماحـكات إنجليزيـة. جـدي الأول نفسـه كان يمـارس التجـارة الحـرة حتـى قبـل أن تُبتـدع. لكنـي هـا أنـا أسـهو عـن بدايـة حكايتـي. أتـت صرخـة تـوم الثانيـة بعـد لحظـة أو اثنتـين فقـط مـن صرختـه الأولى. تلـك السـفينة في جهـة الشـمال الغـربي كانـت قـارب اعـتراض. لحظتهـا فقـط انتبهنـا جميعنـا. ليـس لأن في الأمـر أي وضـوح أو يقـين، بـل لأن مـا رأينـاه كان بالتأكيـد أسـوأ مـن مجـرد مركـب يُبحـر. أتعلمـون، هنـاك الكثـير مـن المراكـب التـي يمكـن أن تكـون معترضـة، لكـن هـذا النـوع بالـذات هـو مـا كنـا نخـشى مصادفتـه.

لم يقـل أحـد أي شيء. تابـع الشـباب التنظيـف والشـطف كـما مـن قبـل، ووقفنـا أنـا وبـرو نراقـب، لكننـا جميعـا توقعنـا المتاعـب.

لعـلي أجـسر عـلى القـول هنـا إن تلـك الرحلـة القصـيرة كانـت مخاطـرة بسـفينة الإخـلاص، لكـن الأمـر بـدا لنـا حينهـا يسـتحق المجازفـة. الحقيقـة المؤسـفة أنـه مـا مـن عائلـة كانـت تخـسر

وتدع كل شيء يفلت من بين أصابعها مثلما كان الحال مع آل كيولي. بعد وفاته ترك لنا كيولي الأكبر مزارع ونصف دزينة من البيوت في المدينة وحانة بالإضافة إلى سفينة تتسع لنصف سكان بيل في رحلة على متنها حول المرفأ. لكن لم يصلني من كل ذلك سوى البيت الذي نعيش فيه بسقفه كاملا، وحقل مليء بالصخور، ومتجر في شارع غير ملائم، وحانة صغيرة قذرة لم تدرّ مالا قط. لم يكن يبدو أن كل شيء قد بُدد في القمار وعلى النساء المعروفات، وإلا لترك وراءه أثرا لبطولات غابرة. كلا، آل كيولي كانوا أناسا حريصين يتحلون بالرزانة، لكن مع ميل فظيع نحو منازعات الميراث وعين ثاقبة أمام المشتريات الفاسدة. وأنا في الحقيقة لا أستطيع الادعاء بأني أفضل منهم حالا. حتى مع راتب قبطان يبحر في سفينة صغيرة قذرة جيئة وذهابا في البحر الأيرلندي، ناقلا عظام الماشية وما شابه، لم يكن بوسعي أكثر من المضي مع التيار. كنت أعلم وقتها أنه إن لم أفعل شيئا قبل فوات الأوان فلن يبقى أمام آل كيولي سوى التسول وسيتحولون إلى مجموعة من المشردين على قارعة الطريق.

سمعت بعدها في أحد الأيام أن سفينة تاجر مفلس تبحر نحو مرفأ رمزي وأنها ستباع في مزاد علني بعد أن تراكمت الديون المستحقة على صاحبها. ترددت أقاويل بأنها ستباع بثمن بخس، مما جعلني أتساءل: أليس من طريقة ما يمكن لأحد أفراد عائلة كيولي أن يصبح فيها غنيا؟ لماذا لا أجرب حظي؟ صحيح أن هذه المهنة القديمة لم تعد رائجة هذه الأيام، لكن ذلك لا يعني أنها لم تعد قادرة على الكسب، ولن يضيرني إن ذهبت وألقيت نظرة على الأقل. وهكذا مضيت إلى مرفأ رمزي لأشاهد تلك السفينة

الراسية. كانت مركبا قديما وباليا بمؤخرة مرتفعة يندر أن تروا مثلها مع مدفع صغير يشبه لعبة لإخافة نوارس البحر. لم أبال بكل ذلك، فقد تسلل الأمل إلى صدري وأنا أنظر إليها وأتخيل نفسي على متنها أصدر أوامري، إنها سفينتي التي ستجعلني غنيا بما يكفي لشراء نصف بلدة دوغلاس.

خلال أسبوع تمكنت من شرائها، وبدأت أتخلص مما تبقى لي من ثروة كيولي. لم يرق هذا لزوجتي بالطبع، ويا لبهجة حياتي، كيف يروق لإيليساد. كانت فيما يتعلق بالمخاطرة تنتمي إلى ذلك النوع من النساء اللواتي لا يجازفن ببضع قطع من النقود، حتى في صفقة تضمن لهن كسب خمسين جنيها. حاولت بالطبع استمالتها فحدثتها عن الأعمال المفيدة التي يمكن لرجل أن يقوم بها مع سفينة كهذه، خصوصا إن كان من أيل أوف مان ومن مدينة بيل تحديدا. حدثتها عن ابن عمي روب الذي كان يعمل في البحرية الإنجليزية والذي تزوج من امرأة إنجليزية أيضا وكيف يستمتع الآن بصيد سمك الأنقليس في بلدة مالدون، التي لا تبعد عن لندن أكثر مما تبتعد بصقة عن صاحبها. هناك يعيش في بيت قديم على شاطئ يمتد أمامه ولا يدع له سوى أن يتساءل: ماذا عساه يفعل بوقته؟! ألم يتندر على ذلك في زيارته الأخيرة لنا؟ أخبرتها كم يمكن لرجل أن يجني من رحلة واحدة كتلك، وكيف يمكن له بالإضافة إلى ذلك أن يسدي معروفا لأولئك الإنجليز. عمل على طريقته الخاصة يبدو في غاية الأخلاقية. ليس الأمر أني جنيت أي خير من ذلك، فأنا لم أنل سوى الطالع الأسود وكلام الأسفار الغامض.

«ستجعلنا نتجول بين البيوت متسولين نصف البنس، تذكر كلامي». هكذا ستقول، «أو في السجن».

«لا تقلقي». قلت لها. «سيكون الأمر أسهل من اللعب بالحصى على الشاطئ. انتظري ثلاثة أشهر من الآن فقط، وسيكون لديك عربة جديدة رائعة تقلك يوم الأحد، إلى الكنيسة».

بالطبع لا تجري الرياح كما تشتهي السفن دائما، فتجهيز سفينتي تلك فقط، تطلب أكثر من ثلاثة أشهر. أولا، كان يجب إحضارها إلى بيل، المكان الذي كان دائما بمنأى عن الأنظار.

ثم كان علي أن أعثر على كل تلك الكميات من ألواح الخشب الخاص. ألواح توجب عليّ الحصول عليها من هياكل مراكب مفككة حديثا، أحدها أصغر قليلا من سفينتنا «الإخلاص». بعد ذلك كان علينا تركيبها ثم القيام بالإصلاحات اللازمة. ومن ثم توجب العثور على طاقم مناسب لها، أي رجال من جزيرتنا، ومن بيل تحديدا، فلا يمكننا الثقة بغيرهم. وأخيرا، بعد أن تم تجهيز السفينة والرجال، كان لا بد من تأمين الحمولة العلنية التي كانت سمك الرَّنكة المملح، أكثر ما تشتهر به آيل أوف مان، مما كلفني مزيدا من المال بعد كل ما دفعته في السفينة نفسها. وفي النهاية، وجدتني بحاجة إلى مزيد من المال، فلجأت إلى الاستدانة من دان غاون صانع الجعة في كاسلتاون. ومع نهاية مايو كان كل شيء جاهزا.

أي وداع كان لنا حين أبحرنا. بدا وكأن كل سكان بيل وقفوا على الرصيف وفي مراكب الرَّنكة ينظرون إلينا، ومن كان لديه قبعة لوّح بها لنا. كان حقا مشهدا يستحق المتابعة. سفينتنا «الإخلاص» متألقة، وكأنها في حلة العيد بأشرعتها وحبالها الجديدة وطلائها الزاهي. حتى تمثال مقدمتها، بدا لامعا كأنه مصقول، يحدق في الأفق بعينين تكادان تغمزان. كنت قد اشتريت لنفسي طقما جديدا من الثياب مع قبعة مناسبة، وشعرت وأنا واقف فيها

على متن السفينة بأنني في غاية الثقة والأناقة. لم يفسد علي متعة ذلك سوى ظهور أسقف أيل أوف مان الذي رأيته وهو يشق طريقه بين الحشد نحونا.

«القبطان كيولي، أليس كذلك؟» سألني. «سمعت أنك مبحر إلى الجنوب؟».

كان ذاك الأسقف، رجلا إنجليزيا متعجرفا يدعى شالمرس، شخص ينظر إلى العالم بفوقية. يقول البعض إن عبوسه الدائم يعود إلى أنه لم يُمنح السيادة على كاتدرائية شاسعة في وينشستر أو كانتبوري، بل نفي إلى مكان بعيد، ليكون راعيا في بلد صغير مليء بالبروتستانت، حيث يرطن الناس بلغة لا يعرفها. هل كان ذلك صحيحا؟ لا أستطيع الجزم، لكن هذا ما كان يقوله الناس. على كل حال بدا لنا الرجل في ذلك اليوم في منتهى اللطافة مما جعلنا نتوقع أنه جاء في طلب منفعة.

«أود الذهاب إلى ميناء السيدة ماري، وكما ترى حالة الطرق صعبة. هل لي أن أجد مكانا صغيرا على سطح مركبك؟».

لا أستطيع القول إني كنت أرغب بوجوده معنا، حتى لمدة الساعتين اللازمتين لرحلتنا إلى ميناء السيدة ماري. لكن من الصعب أن تقول لا لرجال الدين. وإلى جانب ذلك، فإنه إن كان من أحد، يجهل في مدينة بيل، حقيقة ما تخفيه سفينتنا فلن يكون سوى هذا الأسقف. لذلك لم يكن هناك ضير من وجوده على أية حال. وهكذا صعد إلى متن السفينة بقبعته القشية الأرجوانية السخيفة، والتي يحمي بها رأسه الإنجليزي من الشمس.

بعد ذلك بقليل حان موعد الإبحار، فكما يقول الحكماء: لا تجعل الريح تنتظر، وإلا فلن تجد ما تأكله. أعطيت أمرا بفك

حبل المرسى ولمركبي القطر أن ينطلقا فشدا وراءهما الحبال حتى طقطقت توترا ثم اهتزت «الإخلاص» مصدرة صوتا يشبه الارتعاش وهي تتحرك مفسحة للماء أن يتسرب بين هيكلها والرصيف. أذكر كيف استغرقت في التأملات ولم نكن قد ابتعدنا أكثر من خطوة. ها نحن ننطلق بعد أسابيع من الجهود والتحضيرات. ترى ما الذي سنصادفه في طريقنا من المجاهل والمفاجآت؟ وما الذي سأفكر به وأي مشاعر ستنتابني عندما أعود؟ لم أكن أدري بالطبع ما الذي كان ينتظرني، وإلا لكنت قفزت لحظتها عائدا إلى الشاطئ. لوحت لإيليساد التي بالكاد ردت وهي لا تزال غاضبة. بدأ البحارة في مركبي القطر بعد ذلك بالتجذيف بقوة حتى أخذ الميناء يتضاءل وراءنا، ولم تعد الأجساد الملوحة لنا واضحة، بل لاحت لنا كحشد بعيد. لم يعد بعد ذلك من وقت لدينا لننظر وراءنا، فكان أمامنا الكثير من العمل وقد صرنا نمخر في عباب البحر وسفينتنا تتمايل بخفة بين الأمواج. فُكت حبال القطر ورُفع المركبان، بينما كان الشباب يسرعون إلى رفع الأشرعة عاليا لتمضي بنا مع الريح النشطة. اختفت مدينة بيل بعد برهة عن أنظارنا، وحان الوقت ليحك المرء رأسه ويتفكر قليلا بالخطوة التالية.

كان الأسقف قد بدأ وقتها يشعر بالضجر. أعتقد أنه عندما اختلى إلى نفسه بعيدا عنا تخلى عن مظهره المجامل وبدأ يتنقل على متن السفينة بتثاقل متثائبا كأنه يعاني من أعباء الحياة على متن السفن منذ شهور. كان عليه أن يسلي نفسه بالمخلوقات التي وجدها على متن السفينة. لم يكن هناك الكثير، فقد رأيت أننا لن نحتاج سوى إلى لحم طازج يكفينا أسبوعا أو أسبوعين، وبما أن النقود لم تكن وفيرة فقد أخذت معي دزينة من الدجاجات

وخروفا وخنزيرا. لكن ذلك كان كافيا للأسقف الذي وقف بقبعته الأرجوانية السخيفة يقوقئ ويمد أصابعه في قن الدجاج، أو يحاول مداعبة الخروف الذي لم يرق له ذلك. لا بد أنه ظن نفسه قديسا حقيقيا. كل هذا لم يكن سيئا. لا، الأسوأ ما حصل بعد ذلك.

«ما هذا الخنزير الرائع! ».

قد لا يبدو في الأمر ما يقلق بالنسبة لمن لا يعلم، لكن بالنسبة لأولئك الذين يعلمون فالأمر دون شك ليس عابرا. لا أقول هذا لأني كنت أعبأ بالخرافات في أي لحظة من حياتي، لكني أستطيع القول إن جميع من كان على متن المركب يؤمنون بها. ليس هذا فقط، بل إنهم قالوا وحذروا بكلمات واضحة كالموت: هناك ألفاظ يجب ألا يتفوه بها أحد على متن سفينة بحار من أيل أوف مان حين تمخر عباب البحر، وإلا رافقها سوء الطالع طوال رحلتها. لست خبيرا في هذه الأمور كما قلت سابقا، لكن هناك أشخاص يصرون على عدم التلفظ بكلمة أرنب مثلا ويقولون بوميت بدلا من ذلك. وبدلا من الرنكة يقولون طفل، وبدلا من القطة ممسحة، وبدلا من الفأر لوناك. وهكذا، الريح حقائب قديمة، والجرذان أعمام أو أتباع كبار. ويُقال ملك اليوم بالإنجليزية بدلا من الشمس، وملكة الليل بدلا من القمر، وجون الأزرق بدلا من البحر. ولا يجوز أبدا التفوه بكلمة خنزير، بل يستعاض عنها دائما بكلمة سوايني.

الأخطاء تحدث بالطبع، ويمكن دائما الحيلولة دون وقوع سوء الطالع إذا ما قمنا بفعل المطلوب. على من أخطأ بتلفظ الكلمات كما سمعت أن يصرخ «حديد بارد» ويسارع إلى لمس حديد السفينة. هذا أمر صعب في الحقيقة، لكن لا بد من فعله، على الأقل لتهدئة روع من يؤمنون بهذه الحماقات. المشكلة في حالتنا هذه أن الكلمة

الخطأ قالها أجنبي، وكاهن أيضا. لم يتفوه أحد منا بكلمة بعد ما حدث، رغم أن البعض قد رمقه بنظرات لا بد أنه انتبه إليها. من المؤكد أن هذا ما دفعه لترك الخنزير وشأنه على الفور، وأذكر أنه نزل إلى الأسفل متذرعا بحرارة الشمس إلى أن وصلنا إلى مرفأ القديسة ماري حيث تخلصنا أخيرا من ذلك الكائن العتيق.

لم يكن لدي وقت لأبالي بكل ذلك الهراء بالطبع، لكن علي أن أعترف أن الأمر كان مقلقا لشخص من البحارة أو أكثر. لقد بدا مقلقا أن يحدث هذا على متن «الإخلاص» التي بدأت للتو رحلتها الأولى من آيل أوف مان، وكان لا بد أن يثير هذا كلاما حول الأسقف شالمرس، حين صاح توم تيرد بعد خمسة عشر يوما من ذلك للمرة الثالثة من أعلى الصاري:

«زورق الاعتراض، إنه يتجه نحونا الآن».

لم يدع هذا مجالا للشك بالنسبة إلي. فحسب تجربتي، ما إن يصِب سوء الطالع رجلا حتى يلازمه؛ ولم يكن الكابتن كلارك قائد الدلفين زورق حرس السواحل سوى من علامات سوء طالعنا، حقيقة بدت لنا بسيطة كالهواء. مع ذلك راودني أمل وزورقه يعترض طريقنا بأن من سنصادفه لن يكون سوى رجل مسنٍّ حائر يفكر في التقاعد، ذي كرش يتثاءب ضجرا من عمله في الأوراق الرسمية. لكن لا، الكابتن كلارك الذي صعد يومها إلى متن «الإخلاص» كان من أولئك الرجال الإنجليز ذوي الأزرار اللامعة، الذين يختالون بزيهم الرسمي وينظرون إلى العالم بحثا عن أي خلل في تطبيق القوانين. حتى «صباح الخير»، لم يقلها، وهو يتقدم يتبعه ستة من جنود البحرية، كأنهم يخشون أن يشعر بالوحدة بعيدا عنهم. كل ما قاله:

«كابتن؟»

«كيولي» أجبته وأنا أعطيه أوراق السفينة.

«مسجلة في ميناء مدينة بيل، آيل أوف مان». قال وهو يرمقني بنظرة خاطفة عندما وصل إلى اسم الجزيرة، كأنه يريد أن يقول إنه يعرف كل شيء عن تلك المنطقة. «تبحر إلى مالدون في أيسيكس بحمولة من الرنكة المملحة». وهنا اتخذ هيئة الممثل قليلا وهو يهز برأسه الصغير اللامع متصنعا الاستغراب: «علي أن أعترف أن وجهتكم فاجأتني. إن لم أكن مخطئا فمالدون مرفأ صيد. هل أنت متأكد أنهم بحاجة هناك إلى سفينة محملة بالرنكة؟».

هززت كتفي مستهجنا: «ذاك سمك وهذا سمك».

لم تكن الحمولة ما يشغله بالطبع، فلم يكن هذا سوى بداية. «ما يقلقني حقا يا كابتن موقعك. وجهة رحلتك من بيل إلى مالدون، أليس كذلك؟ أتساءل لماذا نصادف سفينتك هنا تبحر من جهة فرنسا باتجاه الشمال؟».

كان لدي جواب جاهز إلى حد ما.

«لقد فاجأتنا عاصفة البارحة، ولا بد أنها حرفتنا عن طريقنا ثلاثين ميلا نحو الجنوب». كان الطقس رديئا بالفعل في اليوم السابق والريح تعصف من الشمال. كما يقول الرجل الحكيم، اختر كذبك بعناية كما تختار زوجتك. لم يكن ذلك مفيدا، فالكابتن كلارك بدا لحظتها يظهر مخالبه بعد أن كان طوال الوقت يتحين الفرصة لذلك.

«قبطان كيولي، يتوجب علي سؤالك الآن فيما إذا كنت على النقيض مما تقوله وثائقك، قد قطعت رحلتك وتوقفت في ميناء أجنبي؟ أنصحك بأن تجيب على سؤالي بحذر شديد، ذلك أن أي

خداع أو كذب سيتم الكشف عنه من طرفنا بالتأكيد، وهذا ما سيعرضك إلى غرامة باهظة ستجعلك تندم على اليوم الذي أبحرت فيه».

لم يكن أمامي سوى جواب وحيد، وقد أجبت بكل ما أوتيت من كبرياء جريحة. «لم نفعل ذلك بالتأكيد».

«هل لديكم حمولة على سطح المركب غير الرنكة المملحة المسجلة هنا؟».

«لا، أبدا».

بدا عليه السرور ككلب صيد شم رائحة أرنب والتفت على الفور إلى جنوده الستة في زيهم القرمزي. «أريد تفتيش هذه السفينة تفتيشا دقيقا».

وهكذا وجدنا أنفسنا. لم تكن أمورنا تسير بيسر، وكانت في نهاية المطاف أكثر صعوبة من اللعب بالحصى على الشاطئ. ليس ذلك لأنه تمكن من النيل منا بعد بالتأكيد، لكن قلقي كان مشروعا، فأنا أكره أن تُقتحم سفينتي بهذا الشكل ويستبيحها الغرباء كمومس على قارعة الطريق. كنت قد اتخذت كل ما بوسعي من احتياطات لإخفاء كنوز سفينتي، لكن هذا ضاعف من فضولهم، فما من شيء يصيب الجسد بالتوتر أكثر من الصمت والفراغ، في الوقت الذي كان أكثر ما نخشاه نظرة متعثرة أو خاطفة بالاتجاه الخاطئ. كان جوان برو رئيس البحارة ومساعده باريك كينفيغ يصرخان بالأوامر كأنهما سبعة شياطين فيتقافز البحارة ويهرولون على سطح السفينة، بعضهم يقوم بالأعمال المعتادة والآخرون يسرعون إلى الأعلى لتسوية الأشرعة. كان شاينا كلوكاس، عملاق سفينتنا وراء الدفة في تلك الأثناء، وفي الأسفل كان النجار شولز كريستيان في ورشته يعمل

على نشر قطعة من الخشب، بينما كان ريتشي مور صانع الأشرعة يصلح شراعا ممزقا، فيما مدبر السفينة مايلكريست يرتب خزائنه. أما الطباخ روب كويل فكان يستعد لتنظيف زريبة الخنزير، المهمة الأكثر أمانا بالنسبة إليه. لا بد من القول هنا إن كويل كان معروفا بغرابة أطواره. مات أبوه وهو طفل بعد إصابته بعوارض جنون هيستيري كما يقول بعض الناس. تحملت أمه مسؤولية تربيته. كانت تملك كوخا قرب ورشات تمليح الرنكة وتكسب قوتها من العمل في تنظيف ثياب الآخرين من أقذارها. لا أستطيع التخمين فيما إن كان هذا ما أكسب روب غرابة أطواره، أم أنه ورث ذلك عن بقية أفراد عائلة كويل. كان غريبا حقا بوجهه الطويل وعينيه القلقتين، كتوما، يحتفظ بكل شيء لنفسه، ويعتقد دائما أن الآخرين يتحدثون عنه، لقد كان أمرا صحيحا في غالب الأحيان. لكن لا، ليس مع الحيوانات، فرقته ولطفه لم يكن يفاجئنا مع هذه الكائنات. تحول الخنزير الذي كان على أسقف الجزيرة أن يدعوه سويني إلى صديقه المفضل، وخلال الأسبوعين القصيرين منذ إبحارنا من بيل، أصبح وإياه كعائلة، وبالكاد تمضي ساعة دون أن يذهب ويتحدث إليه أو يطعمه ما يعثر عليه من فضلات. أما الخنزير نفسه، فمن الصعب تخيل حيوان أكثر غرورا منه، فكلما ازداد ما يحصل عليه من الطعام جودة، ازداد زهوا بنفسه، حتى كاد كويل يجن وهو يفكر إن كان لخطمه أن يتعفف عن أي شيء.

«هناك شيء واحد فقط لم يتذوقه سويني». كانت هذه طرفتنا المفضلة، وأكثر ما يكرهه كويل. «إنه فخذ خنزير شهي».

لم يكن مزاج أي منا في الحقيقة مناسبا لنكات كهذه لحظتها، بينما كان الكابتن كلارك وجنوده يفتشون السفينة.. بدؤوا من

المخزن، أمر يمكن أن يكون خطيرا، لكنه قد يكون مؤاتيا أيضا إذ إن حمولتنا اخترتها ورتبتها بطريقة يمكن أن توجه الأنظار لصالحنا. كان هناك عموما زفر وقذارة ولزوجة أكثر مما ينتج عن خمسين برميلا من الرنكة المملحة. كان على الكابتن كلارك أن يقف بعيدا عندما بدأ جنوده يفتحون البراميل، لكنه مع ذلك لم يتمكن من إخفاء قرفه عندما أفرغوا ما فيها فوق قطعة شراع فانتشرت في الهواء رائحة نتنة وتدفق الماء الزنخ مع جلد السمك وقطع من حسكه وسال على الأرضية، ملطخا الجنود برشقات تطايرت هنا وهناك، ولم توفر الرشقات الكابتن ذاته فلوثت بزته النظيفة وحذاءه اللامع. بالتأكيد لم يرق له ذلك على الإطلاق، لكنه لم يتوقف حتى بعد أن فتح جنوده اثني عشر برميلا وبعد أن اختنق المكان بضباب نتن دون أن يعثروا على أي شيء.

«يكفي هذا أيها الرقيب». صاح كأن الأخير يستمتع بوقته. «دعنا نفتش بقية أرجاء السفينة».

«كان هذا خطرا. أرجاء السفينة الأخرى إذن؟».

مضوا يتسكعون في أرجاء السفينة يتلمسون وينكزون وأنا وراءهم أراقبهم، يبدؤون من السطح حيث فتشوا قمصان البحارة وتفحصوا ثيابهم وأراجيحهم الشبكية المعلقة في الهواء لتجف. وإلى جانب القمرة وقف النجار شولز كريستيان وصانع الأشرعة ريتشي مور متجهمين، أحدهما مع قطعة خشب والآخر مع قطعة شراع. كان مخزن المؤن المكان الذي تلبسني الخوف فيه بحق. هناك تفحص كلارك قطعة سمك ثم فتش المكان. وبدلا من الاكتفاء بذلك بعد أن رأى كل ما في المخزن من لحم البقر والبسكويت وغير ذلك، توقف ووضع يديه فوق إطار الباب الخشبي كأنه يستند

عليه ليطل برأسه نحو الداخل. للوهلة الأولى خلت أنه فعل ذلك بعد أن شك بأمر الكبل الذي رآه يتدلى هناك. لم أتنفس الصعداء إلا حين التفت وعاد دون أن يبارح الحنق محياه. ثم انتقلنا بعدها إلى غرفة الطعام، المكان الذي سيحدد مصيرنا، إما أن ننتهي أو ننجو كلنا معا. كنت قد أعطيت هذا المكان قدرا كبيرا من العناية، لاعتقادي بأنه ما من شيء يحفظ كرامة سيدة من عبث مفتشين وقحين أكثر من أن تزينها بكمية وافرة من الحلي. لقد نجحت في ذلك، بل كان مؤثرا أكثر من براميل الرنكة المملحة. وما إن دخل الكابتن كلارك حتى لاحظت أن قسمات وجهه استرخت على الفور.

«أي مجموعة لديك هنا! ».

مضيت مع الريح وقلت: «إنها هواية لدي، وأنا كما أظن من الذواقين».

تحرك ليتفحص مجموعة الرسوم واحدة واحدة. «رسم ألبرت رائع جدا. أين وجدته؟».

«في مدينة بيل. يهتمون بذلك كثيرا هناك». لم يكن ما قلته صحيحا تماما، بل لم يكن أحد في الواقع ليهتم بأي شيء من ذلك في الجزيرة، سوى العابرين من الرجال الإنجليز، لهذا توجب علي أن أرسل في طلب الرسومات من مكان بعيد، كليفربول. لكنني رأيت لحظتها إن كان علي أن أبدو وطنيا فلم لا يكون كل أهل أيل أوف مان معي؟ «المفضلة لدي هي فيكتوريا. هنا تتجلى الملكية. أليس كذلك؟».

«كم تبدو طبيعية في الطريقة التي تنحني بها نحو الأسد! » لأول مرة منذ صعوده إلى السفينة ترن في صوت الرجل نبرة الحضارة وكأني قد بدأت لتوي أستحق أن أكون إنسانا حقيقيا، لا مجرد خارج عن القانون. لم يكن من المعتاد ظهور أولاد العائلة كلها معا، وقد

بذلت جهدا كبيرا في حفظ أسمائهم. فيكتوريا، ألبرت إدوارد، ألفريد، أليس، هيلينا، لويز، آرثر وليوبولد الصغير. كنت أسترجع الأسماء. «كنت أبحث عن رسم لبياتريس، لكني أجرؤ على القول إنها ستحتاج إلى عدة شهور قبل أن تظهر صورتها إلى العلن».

«تمثالا فيكتوريا النصفيان رائعان أيضا». كان ينظر إلى أحد التمثالين وهو مثبت على قاعدة صلبة أمام تجويف على الحائط، ولحسن الحظ أنه لم يُطِل النظر هناك. أتعلمون أنه بدا حائرا بعض الشيء، بل شاب ملامحه بعض من تأنيب الضمير. لم يكن بإمكان الرجل أن يتصور فيما أعتقد أن إنسانا يحفظ ويردد أسماء أولاد العائلة المالكة التسعة يمكن أن يفكر بغش جمارك الملكة فيكتوريا.

هنا وصلت عملية التفتيش التي بدأها إلى نهايتها. صحيح أنه ترك جنوده يفتشون الحجرة قليلا، لكن عندما حاول الرقيب النظر وراء لوحة ألبرت تملكه الغضب وقال: «أعتقد أن هذا يكفي». تكلم بحدة كأن فكرة تفتيش السفينة كانت فكرة الجنود المساكين.

«يمكنكم العودة إلى الزورق الآن».

حسن، كانت تلك لحظة حلوة يمكن استعادة مذاقها. عندما تكون من بلد صغير مثل أيل أوف مان لا يمكنك أن تتوقع أن تستمر في إحراز الانتصارات على الأجانب. لكن الأمر بدا في تلك اللحظة مغايرا لذلك بطريقة ما. فها نحن، من عانى من الاحتلال والاجتياح ومن واجه الكوارث، نقف لنشهد كيف يهرب أعداؤنا أمامنا عائدين من حيث أتوا. وهكذا، ما إن عدنا إلى سطح السفينة حتى وقفنا هناك بجانب حظيرة الخنزير نراقب الجنود ينزلون من السفينة إلى زورقهم، وقد ظهرت أمارات الاعتذار على وجهه الكابتن كلارك.

«أرجو أننا لم نفسد أسماكك يا قبطان».

كان علي أن لا أبالغ في إظهار ارتياحي. «آه، لا بأس كل شيء سيكون بخير».

«علي أن أشكرك لتعاونك معنا وآمل أننا لم نسبب لك الكثير من الإزعاج».

قال ذلك واتجه نحو السلم لينزل وينضم إلى جنوده في الزورق. نعم، إلى ذلك الحد اقتربنا من نهاية القصة. فعلا إلى ذلك الحد اقتربنا. هيا يا كابتن كلارك، ارحل. امضِ بعيدا ببزتك الملطخة بالسمك وابتعد عن سفينتي لنرتاح من عناء التجوال والتخفي في الأقبية. لا تزال اللحظة حاضرة، ويكفي أن أفكر بها لتجتاحني رعشة من التوق والإرادة. لكن لا، ها هو الكابتن كلارك الذي كان قد بدأ بالنزول من السلم، ولم يعد يظهر سوى رأسه وكتفيه، يلقي نحوي بنظرة أخيرة، من دواعي التهذيب كما تعلمون. كأنه لم يكن ينقصني سوى ابتسامة نفاق كبيرة. ثم حدث كل شيء في لحظة. انتبهت أن نظرته تلك طالت ثم تحولت بعد أن قطب جبينه إلى تساؤل. لم يكن ذلك خيرا. ثم فجأة صعد عائدا إلى سطح السفينة، وعلمت على الفور أننا وقعنا في مشكلة.

«ما الذي لديك هناك؟».

لم يكن سؤاله موجها إلي، بل إلى الطباخ كويل الذي بدا وكأنه تلقى صاعقة على رأسه.

«جبن جبن فقط. من أجل سويني هنا».

خطف كلارك من يده قطعة الجبن وتشممها بعمق. كانت قطعة كبيرة ويبدو أنها أجنبية. «ومن أين يمكن أن تكون هذه القطعة؟».

ولتوي فهمت الذي حصل. كان هناك صف من المحال على رصيف ذلك المرفأ السري، ولا بد أن كويل قد تسلل خلسة دون أن يلحظه الآخرون. وأنا أرى ذلك المعتوه كيف يورطنا في المتاعب. رمقته بنظرة كي أهدئ من روعه: «من بيل، أليس كذلك؟».

«هذه جبنة من أيل أوف مان إذن؟» قلب قطعة الجبن في يده وقد شحب وجهه ثم قربها مني. «وهذه لغة الجزيرة كما يبدو؟».

أتصدقون؟ كانت قطعة كبيرة لا تزال عالقة أسفل قطعة الجبن من الجريدة الفرنسية التي كانت تلفها سابقا. أعرف أي نوع من المغفلين كان كويل، لكني لم أكن لأصدق أنه يمكن أن يكون على هذا القدر من الغباء. ولماذا؟ كله بسبب ذلك الخنزير/السويني. ألقى كلارك نظرة سريعة على قطعة الجريدة. كان تاريخها يعود إلى ما قبل أربعة أيام فقط. تغيرت ملامحه، وبالكاد يعرفه من رآه منذ دقائق فقط. زال عنه مظهر البهجة والأزرار اللامعة واختلط صوته بأنفاسه الحانقة واحتقن وجهه بالغضب. يحزنني القول إنه ما كان ليصيبه نصف هذا لو أني لم أتحايل عليه بنجاح برسوم فيكتوريا وأولادها. لقد خُدع واكتشف هذا، وما من شيء يمقته رجل إنجليزي في زيه الرسمي أكثر من أن يظهر مغفلا ويخدعه أجنبي.

كان يتوجب علي قول شيء ما. «ألم نصادف مركب الصيد ذاك؟ لا بد أنك اشتريت قطعة الجبن منه يا كويل. أليس كذلك؟».

هز كويل رأسه موافقا بهدوء، وكان في الحقيقة سيوافق على أي شيء أقوله، حتى إن قلت إنه اشترى قطعة الجبن من سمكة قرش عبرت بنا. لم يكن ذلك سيغير من الأمر شيئا، فكلارك لن يصدق حرفا مما أقول حتى لو كان حقيقة مثبتة، هذا بالإضافة

إلى أن شراء مواد من سفن أجنبية مخالف للقانون تماما مثل شراء بضائع من مرافئ أجنبية.

«أعتقد.. » قال بصوت بارد كالصقيع. «عليكم الآن التوجه إلى لندن حيث يمكنكم التحدث هناك إلى بعض السادة من إدارة الجمارك الملكية». ثم أطل من أعلى السفينة لينادي جنوده: «سيرافقكم زورق الدلفين». وأضاف بسخرية: «لنضمن أنكم لن تضلوا الطريق إلى هناك».

وهكذا مضينا يسوقنا حرس السواحل كأننا حملان، زورق الاعتراض وراءنا، وستة جنود يتمطون على سطح سفينتنا، يدخنون الغليون ويتضاحكون فيما بينهم على أجبان ورجال آيل أوف مان. لم يكن بوسعنا أن نفعل أي شيء إزاء ما نحن فيه سوى أن نطلب من كويل أن يحضر لنا وجبة عشاء فاخرة من لحم الخنزير المشوي. بالطبع علق بعض من على السفينة أن الكائن الذي سبب لنا كل تلك المتاعب هو ذاته الذي ناداه أسقف أيل أوف مان باسم الخنزير. وعلى الرغم من أني لم أشأ وقتها أن أشغل بالي بحماقات كهذه، بدا أن الأمر بالفعل مثير للفضول.

مع غروب الشمس، لاح لنا الشاطئ في الأفق بعد يوم من الصحو. وما إن رأينا الخط الأسود الذي رسم الشاطئ الإنجليزي في البعيد حتى تبخرت كل أحلامنا عن ملذات شراب الروم مع فتيات الليل. كانت أفكاري تدور حول مخاوف التفتيش والتحقيق والغرامة والمصادرة، وكل ما يحيط بذلك من فساد، بل وحول استراحة، ربما نقضيها في السجن جميعا. لكن ما حصل لنا بعدها في الواقع كان بعيدا كل البعد عن ذلك.

الكاهن جيفري ويلسون، يونيو 1857

في تلك الليلة سرت في أرض فان ديمن وتوغلت إلى أقاصي البرية حيث لم تطأ أقدام مسيحي من قبل. انتصبت أمامي جروف شديدة الانحدار كأنها جدران قلعة. لم تكن عادية كغيرها من الجروف، بل بيضاء وملساء كالمرمر المصقول. بشعور بالضآلة، ولكن دون خوف، بدأت أتسلق الجلاميد والصدوع الوعرة وأنا أرتقي نحو الأعلى حتى وقفت أخيرا على قمة شاهقة حيث امتدت أمامي بإعجاز يخطف الأبصار، الأرض الأكثر خضرة وخصوبة تتفجر لكن بنظام من الغزارة والوفرة. جنة في البرية ضاعت منذ ستة آلاف عام. وأنا أقف هناك أنظر إليها وقد ملأت الرهبة والدهشة جوارحي، سمعت كل النباتات، وسواقي الماء تناديني من البعيد: «أقبل إلى هنا أيها الكاهن اللطيف. هلم، تعال هنا وأسرع». ثم صحوت لأجد نفسي في بيت ابنة أخت زوجتي في هايغيت. ضوء الشمس، في الصباح الصيفي الباكر، تسلل برقة عبر الستائر، وحوّل ذلك المشهد المألوف إلى دفء ملأ قلبي بنور الحقيقة، وحوّل هواجسي تلك التي كانت بالفعل مجرد هواجس، إلى يقين.

«لويزا» ناديت زوجتي بهدوء. «لقد رأيت حلما غاية في العجب. أعتقد أنه نبوءة».

ورغم أن زوجتي العزيزة تتحلى بأكثر الخصال نبلا إلا أنها لم تكن ممن يؤمنون بالرؤى بسهولة.

«أوه... جيد... » تمتمت ثم عادت إلى النوم.

نهضت من الفراش رغم الوقت المبكر دون إبطاء، فست وعشرون سنة ككاهن في ريف يوركشر كانت أكثر من كافية لأتشرب عادات أهل الريف، ولم تكن لبضعة أيام في لندن أن تجعل الكسل يتسلل إلى طباعي. وثبت أن استجابتي السريعة في هذه الحالة كانت مواتية للغاية. فلم أكد أبدأ العمل بقراءة بريدي حتى قُرع الباب. كان على الخادمة وقد صحت للتو من إغفاءتها أن تدخل سائق جوناه تشايلدز، الذي أحضر رسالة من سيده عبر المدينة من كلابام.

«عزيزي السيد ويلسون..

هل بوسعك الحضور إلى هنا في الساعة الحادية عشرة؟ لدي شخص، من الضروري أن تلتقي به لأمر يتعلق بالبعثة.

أعلمني بالرد على رسالتي من فضلك إن كان ذلك غير ممكن.

أحضر رينشو أيضا.

المخلص لك دائما

جوناه تشايلدز».

هذه البساطة، والكلمات المباشرة في الرسالة، ووقت وصولها، كان مما يميز ذلك السيد النبيل. لا بد أنه اتخذ قراره بشأن اللقاء في منتصف الليل، وما إن استيقظ سائقه الذي كان العبوس يكسو وجهه بوضوح حتى أرسله على الفور. لم يكن جوناه تشايلدز من المترددين أو المتمهلين في خطواتهم هنا أو هناك، بل لم يكن أقل من نبع يتفجر حماسة. كانت معرفته تثير الغبطة حقا، لما في

طبيعته المحببة من دفء ولما يتمتع به من حيوية، وللضحك الذي يتدفق منه بتلقائية، على نحو مفاجئ. هناك في الحقيقة، من كان لا يحب طبعه المتقلب، لكنني لم أكن أرى في ذلك ما يعيبه، بل شيئا يبعث على السرور ويشبه الطقس في يوم ربيعي مبهج، حين يمكن للريح أن تغير جهتها فجأة في أي لحظة لتنقلنا من الأمطار إلى أشعة الشمس.

في الحقيقة لولا طيبة جوناه الكبيرة لما كانت البعثة ممكنة أبدا، ولما كان من الممكن العثور على جنة عدن، على الأقل في حياتي. كان الرجل، والحق يقال، قوة مفعمة بالكرم، أنعم بها الله علينا، ولم تكن لأي منغصات اعترضتنا هنا أو هناك، أن تغير من ذلك شيئا. ورغم أن استدعاءه لي على هذا النحو المفاجئ إلى بيته في كلابام، لم يكن في أي حال من الأحوال أمرا مريحا لي، إلا أني لم أفكر لحظة واحدة في رفض دعوته. وإلى جانب ذلك فإن معرفة هوية ذلك الشخص الغامض الذي يريدني أن ألتقي به، قد تتكشف عن أمر لا يمكن اعتباره ثانويا، فالسيد تشايلدز ذو طبيعة لا يمكن التكهن بها، ويصعب دائما توقع ما يعتمل في ذهنه من أفكار.

«أخبر سيدك أني أتطلع إلى زيارته في الحادية عشرة». أخبرت سائقه.

كان الصباح يعد بيوم حار وقد شاع الدفء قبل أن تتجاوز الساعة الثامنة والنصف. وبينما كانت العربة تنحدر بي من تلة هايغيت، تراءت لي لندن تتألق في الأفق عبر غلالة من الغبار. فكرت لحظتها كم يمكن للحياة أن تفاجئنا. لم أتخيل، ولا في أكثر أحلامي جموحا، حتى قبل بضعة شهور من الآن، أني سأجد نفسي

في حالة كهذه. حياتي كلها انقلبت وتحولت واجباتي الكهنوتية إلى سباق مع الزمن، لإتمام التحضيرات لرحلة الاستكشاف الملحمية. لم يتبق سوى عشرة أيام على الموعد، ولا يمكنني القول في حقيقة الأمر، إن كل تلك التغييرات كانت غير مستحبة من قبلي، فرغم أني فخور بتحمل واجبات الكاهن الروحية طيلة ست وعشرين سنة من العمل كأسقف، في ريف يوركشر، ورغم أن أبناء الأبرشية كانوا بأسلوبهم المباشر أناسا طيبين، فلا بد من الاعتراف أنه وفي لحظات كثيرة كنت أغرق في تساؤلاتي فيما إن كنت قد خُلقت من أجل هدف أسمى وأعظم مما كنت أقوم به على هذه الأرض. كانت جهود تلاميذي واعدة رغم أنها شهادتي الشخصية، وكنت أنا نفسي سليل أحد العائلات العريقة في كنت، التي يتحدر منها أسقفان. بدأت مهامي الكهنوتية بمسعى دؤوب لتطوير حياة رعيتي، وقمت بحملة من أجل تقليص أوقات عمل حانة الجعة من سبعة أيام إلى ثلاثة فقط ليتمكن الجميع من استثمار أوقاتهم في غايات أسمى تصب في خدمة الكنيسة. ومن المؤسف، أن ذلك المسعى، لقي في بعض الأوساط موقفا عدائيا، حيث انخفض عدد المصلين في قداسات الأحد، وكثيرا ما كنت أشعر بنظرات قاسية يصوبها الناس في القرية نحوي.

لم تتوقف متاعبي هنا، بل وجدت نفسي أتحمل عبئا إضافيا في هموم زوجتي العزيزة التي نشأت في مدينة مانشستر الصاخبة والتي كثيرا ما كان الحنين يستبد بها إلى أسواقها الرائعة، مما جعل حياتها في هذه الناحية الهادئة من يوركشر لا تخلو من صعوبة. كانت في البداية تنشغل في مسؤوليات ومطالب أولادنا السبعة، لكن مع بلوغهم واعتمادهم على أنفسهم، بدأت رزانتها

وصبرها يتلاشيان. ومن الطريف أن إخلاصها النبيل لي كان أحد أسباب معاناتها، فقد اعتادت في كثير من الأحيان أن تستدعي أحد أساتذتي الذين كنت أخوض معهم جدالات لاهوتية عميقة، لا أتردد في القول، إني لم أكن أخرج منها بشكل غير لائق على الإطلاق. خصمي القديم ذاك، أصبح فيما بعد يتمتع بمكانة وتأثير كبيرين في الكنيسة، وهي من جهتها اعتقدت، ربما ببعض السذاجة، أنه يمكن أن يساعدني في الحصول على عمل يتطلب مهارات أكثر. عانيت كثيرا لأثنيها عن ذلك، وإقناعها بأن أمورا كتلك بعيدة المنال تماما، لكن من دون جدوى؛ إن تفكيرها المحدود جعلها تصر على طرح الموضوع بشكل متكرر وصل إلى حد المبالغة والغرابة. دفعتني تعاستها إلى الابتعاد لأقضي أوقاتا طويلة في المشي بمحاذاة الجروف، أو على حواف المستنقعات، لعل رياح يوركشر النشطة ترد إلي صفاء النفس. لم يخطر في بالي وقتها أني كنت في الحقيقة أمشي صوب الجواب على أسئلتي الكثيرة.

بدأ شغفي بدافع من السذاجة المحضة. سعادة بسيطة في جمع الحصى كانت تزداد مع مرور الوقت، حيث كنت أجمعها وأراكمها فوق رف الموقد في البيت. تحول اهتمامي مع الوقت إلى فضول لاكتشاف ألوانها المتعددة بشكل مدهش، ودفعني ذلك إلى استكشاف تدرجات الألوان في جروف وتربة المنطقة كلها. قمت بعد ذلك بشراء كيس خاص ومجرفة صغيرة لجمع العينات، واكتشفت في غمرة متعتي هذه أني شخص لديه ماضٍ، بل ووجدت نفسي بعدها مستغرقا في رحلة استكشاف للمنطقة. لم أكن بطبيعة الحال أتوقع أي نتيجة لشغفي المحض ذاك، تتجاوز ما كان يمنحني إياه من المعرفة والمتعة البسيطة.

في أحد الصباحات ذهبت إلى سوق أقرب بلدة في الجوار لشراء مصباح، بدلا من الذي انكسر في البيت. وجدت المحل الذي قصدته مغلقا وتملكتني الخيبة لضياع جهدي ووقتي من دون جدوى، مشيت إلى متجر الكتب القريب حيث عثرت مصادفة على كتاب جديد في الجيولوجيا. كم كنت قريبا من إعادة الكتاب إلى الرف وأنا أفكر في أن ثمنه مرتفع جدا. ما الذي دفعني إلى شرائه المتعجل؟ محض مصادفة؟ أم أنه صوت أتاني من البعيد يهمس بكلمات التشجيع؟ ألا تشكل هذه الألغاز الحياة ذاتها؟ بعد ظهر ذلك اليوم ذاته شرعت بالقراءة لأتلقى صدمة كبيرة، فمنذ الفصل الأول يؤكد الكاتب - الذي يفترض أنه جيولوجي ذائع الصيت - بصفاقة، أن حجر العصر السيلوري لا يقل عمره عن مئة ألف عام، وذلك على الرغم من أن العهد القديم يذكر بشكل جلي أن الأرض خُلقت منذ ستة آلاف عام فقط.

لم يكن ذلك مجرد خطأ. إنه تجديف وتطاول غاية في الخبث على الكتب المقدسة. وبينما كنت أجلس وقتها قرب النار وقد برد فنجان الشاي بجانبي، وزوجتي على مقربة، مستغرقة في نسج الصوف وصنارتاها تطقطقان، بدأ قلبي يخفق بشدة، وعلمت على نحو مفاجئ أني في خضم واحدة من أكثر اللحظات ندرة في الحياة. لحظة، كأفق يتراءى من أعالي قمة شاهقة في رحلة حياتنا البطيئة. حقيقة عظيمة أخذت تتدفق في روحي كتيار كهربائي. كل تلك السنوات في يوركشر لم تضع هباء. لا على الإطلاق، ولم يكن ذلك ببساطة سوى إعداد لي لأتصدى لمهمتي العظيمة التي تكشفت لي الآن؛ مهمة أن أصحح هذا الخطأ وأمنع ذوي القلوب الضعيفة من الانقياد وراء هذا التزييف الدنيء.

منذ تلك اللحظة تحولت أوقات العطالة إلى جدية بالغة، إذ عزمت على أن أجعل من نفسي آلة تعمل للدفاع عن هذه القضية العظيمة. قرأت كل ما استطعت العثور عليه من كتب حول الموضوع، لأكتشف أن عدة كتّاب آخرين قد وصمهم عار الافتراء نفسه الذي ارتكبه خصمي. كان عدوي أقوى مما اعتقدت، وبقيت أجاهد كي لا أفقد عزيمتي وأنا أستعيد في ذهني قصة الصغير داوود مع جالوت الجبار. بدأت أجري أبحاثي الخاصة وتجاوزت حدود يوركشر، حتى وصلت إلى ويلز وكورنويل. درست وتأملت وأعدت الدراسة من جديد. بدأت أفكار غير مكتملة تتبلور في مسارات منطقية، بينما راحت فرضياتي الغامضة تكافح لتتجلى في شكل واضح. وفي نهاية المطاف شعرت أني جاهز لأمسك بقلمي وأقترب من أوراقي لأشرع بتأليف كتيبي الأول الذي نشرته على نفقتي الخاصة، أجبت فيه على التساؤلات المزيفة بصراحة وقدمت شرحا وافيا لنظرية التبريد الكوني الجديدة. لم يُتح لي وقتها أن أتخيل وأنا أنظر إلى ثمار جهدي إلى أين يمكن لتلك الأوراق المكدسة - بانتظار إرسالها إلى شخصيات مرموقة أو دوريات - أن تقودني؟ النشر عمل مؤثر قد يضع رجلا غير معروف في واجهة الأحداث ويكسبه أصدقاء وأعداء من الغرباء إلى جانب أمور أخرى كثيرة.

حجة خصمي الأولى كانت أن صخور الأرض التي اتُّفق عموما على أنها كانت في حالة منصهرة وسائلة تحتاج إلى زمن أطول لتفقد حرارتها مما تشير إليه الكتب المقدسة. وكانت إجابتي أن صخور الأرض قد بردت بالفعل بسرعة شديدة بفضل عملية أسميتها التبريد الكوني. رأيت أنه من المنطقي أن الرب الذي يمتلك القدرة على خلق الكون لا بد أن يقدر على التحكم

بحرارته. لم يبق غير ذلك، سوى فرضية الجيولوجيين الملحدين الثانية، بخصوص الكائنات المنقرضة. أثار غرمائي الكثير من الضجة حول ذلك، خصوصا بشأن حيوان منقرض يدعى ثلاثي الفصوص، وهو كائن لا يشبه سوى قملة خشب عملاقة ويمكن العثور على آثاره في الطبقة الكلسية من العصر السيلوري. يزعمون أنه عاش في حقب من الماضي البعيد. لكن تفسير ذلك كان واضحا. فلقد خُلقت الأرض في البدء مع تنوع كبير من الحيوانات لتعيش عليها، تبدأ مع المخلوقات المفيدة كالحصان والكلب الوفي، ولا تنتهي عند كائنات غريبة كما في ذلك المثال المزعج. ومع مرور الوقت، كان من الطبيعي أن تنقرض الحيوانات الأقل ملاءمة، كثيرا. وأي كائن يمكن أن يكون أقل ملاءمة أكثر من قملة الخشب العملاقة تلك؟! لا بد أن نسبة كبيرة من تلك الحيوانات كما اقترحت اختفت مع الطوفان العظيم.

يخيل للمرء أن القضية كانت ستنتهي عند هذا الحد. لكن لا، فأطروحاتي لم تكن تفعل سوى أن تزيد النار اشتعالا، وفي غضون أسبوعين ظهر رد جديد في مقالة لم يكتبها خصمي الأول، بل رأس جديد من ذلك الأفعوان المتعدد الرؤوس. وماذا عن النباتات والحيوانات الأولى؟ تساءل ناقدي الجديد. يقول سفر التكوين إنها وُجدت على الأرض في غضون يومين من تشكلها. ويضيف أنه لا يمكن حتى للتبريد الكوني، أن يبرد عالما من الصخور المنصهرة بهذه السرعة.

وهكذا دخلت جنة عدن في موضوع الجدل. كان الكتاب المقدس ذاته حجتي الأقوى في تلك المعركة الضارية. صحيح أن الكتب المقدسة تحتوي على إجابات على كل ما يمكن أن يطرح

من الأسئلة، لكنها لا تقدمها لنا بسهولة دائما. في بعض الأحيان يُمتحن إيمان القارئ من خلال أحجيات معقدة، ويُترك له أن يستدل على الدلائل المتاحة له بذكاء، تماما كما هو الحال في قضيتنا هذه. يخبرنا العهد القديم أن الإنسان والحيوان لم يستوطنا في البداية سوى منطقة واحدة من الأرض، ولم تكن وفق كل الاحتمالات منطقة كبيرة. إنها جنة عدن. هنا تكمن إجابتنا. أخمن أن عدن كانت تقع فوق نوع فريد من الصخر المقاوم للحرارة الذي يطفو فوق كل شيء كطوف عظيم، ومن المرجح أن تلك الصخرة كانت محاطة بسديم من الأبخرة. لا يخبرنا سفر التكوين كم استمر آدم وحواء في العيش برضى في الجنة قبل أن يقوم الشيطان بفعلته المنكرة، لكن فيما يبدو أن الرجال كانوا يعيشون في تلك الحقبة لوقت طويل، أي أن الحياة استمرت هناك لسنوات عديدة، ولم يدركهم الأجل في النهاية، قبل أن يمر وقت كافٍ لتبرد الأرض ثم تنتشر الحيوانات والنباتات في كل جهة من أقاصي الأرض. كانت هذه أطروحتي في كتيبي الثاني الذي درس جيولوجيا جنة عدن.

لكن النقاد كما بدا واضحا لن يصمتوا. ظهرت مقالات عديدة ورسائل نشرتها الدوريات تعترض بالسؤال التالي: إن كان ذلك صحيحا، فأين هو ذاك النوع الخاص من الصخور؟ لماذا لم يتم العثور عليه؟ ووجدت صعوبة، لفترة من الزمن، في مواجهة هذه المعضلة، وأعترف أن معاناتي كانت دون جدوى. لم يجدِ البحث أو القراءة في التخفيف عني ولا الرسائل التي كتبتها لبضعة زملاء أعرف أنهم بجسارة تجولوا في أنحاء الجزيرة العربية التي اعتقدت أن جنة عدن لا بد واقعة فيها. كانت تلك حقا أسابيع صعبة،

وأعترف أني كنت على وشك أن أترك القضية كلها وأستسلم بعد تردد طويل لفكرة أن ما من شيء يمكن فعله سوى انتظار اكتشافات المستقبل لتثبت نظريتي.

لكني تلقيت في أحد الأيام رسالة كانت أكثر المراسلات مفاجأة بالنسبة إلي. مرسلها الذي كان أحد من يتابع ما أكتب باهتمام أخبرني أنه كان فيما مضى قد أمضى بضع سنوات كراعٍ للأغنام على جزيرة أرض فان ديمن، والتي تقع جنوب أستراليا وسُميت مؤخرا تاسمانيا(2). كان حقله يمتد فوق هضبة مرتفعة على تخوم منطقة المستعمرات، وأخبرني كيف كان يستطيع في أيام الصحو أن يلمح الجبال في عمق البرية المترامية الأطراف. لم يسبق له كما ذكر أنه رأى في حياته مشهدا كهذا عن بعد رغم أنه تجول كثيرا في أنحاء مختلفة من العالم. وقال إن قمم تلك الجبال تبدو كأنها أطلال قلاع في مدينة بنيت منذ آلاف السنين باتساع لا يمكن للإنسان العادي أن يستوعبه. ومما زاد من روايته إثارة تأكيده أن استكشاف المستعمرة اقتصر إلى حد بعيد، على منطقة الساحل، ولم يسبق لأحد عدا السكان الأصليين السود، أن استكشف في تلك الأرض اليباب.

بدأت الأفكار تتسابق في عقلي فور قراءتي تلك الرسالة، وتذكرت ذلك المقطع من سفر التكوين الذي غالبا ما أثار حيرتي والذي يخبرنا أن أربعة أنهار كانت تجري في جنة عدن. النهر الأول غير معروف، ويدعى بيسون. الثاني غير معروف أيضا، وهو غايون، ويقال إنه يصب في أثيوبيا. أما الثالث فيعرف باسم هيدكل

(2) جزيرة تاسمانيا (Island of Tasmania) هي ولاية وجزيرة أسترالية، تقع على بعد 240 كم من الساحل الجنوب الشرقي لها. عاصمة الولاية هي مدينة هوبارت وتقع في الجزء الجنوبي الشرقي من الولاية، وكانت قد أقيمت على مدينة هوبارت ثاني مستعمرة على مستوى أستراليا من قبل المستعمرين البريطانيين في عام 1803، وقد سميت الجزيرة على اسم مكتشفها الهولندي أبل تاسمان. (المترجم).

ويصب في شرق مملكة آشور. فيما الرابع اسمه الفرات. لقد ذكرت سابقا كيف أن العهد القديم، يقدم لنا المعرفة في بعض الأحيان في شكل أحجيات تختبر القارئ. نظرة واحدة إلى الخريطة كفيلة بأن نكتشف أن من المستحيل للأنهار أن تجري من منبع واحد إلى أثيوبيا وآشور معا، فالأرضان يفصلهما البحر ولا يربط بينهما سوى منطقة ضيقة من شبه جزيرة سيناء التي ليست سوى صحراء قاحلة. وكلما كنت أتفكر في الأمر أصل إلى إجابة واحدة، هي أن المقطع لا يمكن أن يدل إلا على معنى واحد، وكم أدهشني كيف لم أنتبه إليه من قبل. الكتب المقدسة تحثني على البحث في مكان آخر. أبحث في مكان آخر تماما. لكن أين؟ في شرق آشور. وفجأة تجلى لي كل شيء بوضوح باهر. إلى الشرق من آشور؟ لماذا ليس إلى أقصى الشرق؟ لماذا ليس إلى تاسمانيا ذاتها؟

لم يكن ذلك بالنسبة لي دليلا بالطبع. كان علي في الخطوة التالية أن أكتشف أسماء الأنهار في تلك الجزيرة البعيدة. سعيت في البداية إلى معرفة الأسماء الأصلية لكون استيطان البيض لم يكن قد مر عليه وقت طويل، لكنني اكتشفت صعوبة الأمر، إذ إن السكان الأصليين كانوا للأسف الشديد قد اختفوا بالفعل. لم يكن لعزيمتي أن تفتر مع ما تملكني من شغف قوي، فأخذت أكتب إلى كل من يخطر في بالي من رجال سبق لهم أن زاروا تلك المستعمرة النائية طالبا العون ممن يستطيع أو إرشادي إلى من يمكنه مساعدتي. ورويدا رويدا بدأت الأسماء ترد إلي لأجد نفسي أواجه أمرا مذهلا. لم تكن الأسماء متطابقة مع ما ورد في العهد القديم، ورغم ما خطر لي من أن مرور الزمن قد غير من طريقة لفظها، إلا أن الدهشة لم تبارحني.

الأسماء في العهد القديم: الفرات، غايون، بيسون، هيدكل.

الأسماء لدى السكان الأصليين: غي بيرن، غونوفار، بيونجر، ليديويف.

يتساءل المرء هنا من أين أتت تلك الأنهار الأربعة؟ ولماذا هناك، في تلك الجبال التي رآها صديقي الراعي في القفر البعيد؟

لم أجد أمامي من خيار سوى أن أبين ما اكتشفته للجمهور. وهكذا ظهر كتيبي الثالث. كان ردا على إلحاد الجيولوجيا وحجة مستخلصة من تواريخ العهد القديم. لم يغب عن ذهني وقتها أن ذلك سيثير ردود أفعال، لكنني تفاجأت حقا بالمدى الذي وصلت إليه. لم يعد بيتي تلك الجزيرة المعزولة وفقد سكينته فجأة، بينما راح ساعي البريد ينوء بحمله من البريد جيئة وذهابا. كثر زوارنا وكان بعضهم يصل دون موعد من أمكنة بعيدة كإدنبرة، وحتى الناس في الجوار أخذوا ينظرون إلينا باهتمام وفضول مما أثار زوجتي التي لم تهتم يوما بأبحاثي الجيولوجية، وجعلها تستمتع بما أحاط بنا من شهرة مفاجئة.

لم تكن كل الرسائل للأسف مؤيدة، وأكثر ما آلمني أن بعض زملائي من رجال الكنيسة وقفوا ضدي متشبثين بالعقيدة السائدة بأن جنة عدن تقع في الأرض المقدسة. لكن في مقابل كل رسالة ناقدة كانت رسالة مؤيدة تصلني. والأكثر من ذلك أن نسبة كبيرة من الرسائل كانت تطرح علي السؤال الذي - ويا للغرابة - لم يخطر في بالي حتى تلك اللحظة. متى رحلة الاستكشاف القادمة إلى الجنة في تلك الأرض؟ لم يراودني الشك في ضرورة ذلك، إذ إنه لا يمكن الوصول إلى برهان على قضية عظيمة كهذه إلا بتلك الطريقة. وبما أني اعتبرتها قضيتي الشخصية، وعلى الرغم من أني كنت أرى في نفسي

مجرد رجل أفكار متواضع لا مستكشفا، إلا أني رأيت من واجبي أن أكتب لجمعية الجغرافيا لألفت الأنظار إلى هذه القضية الحيوية. لكنهم في الواقع لم يبدوا سوى ردة فعل مخيبة ولم يكن يهمهم سوى البحث عن ذلك النهر الكئيب، النيل. وهكذا لم يكن للقضية سوى أن تُهمل دون أي نتيجة لولا تلك الرسالة التي وصلتني في يوم ثلاثاء جميل، متضمنة بطاقة سفر بالقطار إلى لندن:

«عزيزي السيد ويلسون

قرأت كتيباتك، وأنا معجب بأفكارك. أعتقد أنني الرجل الذي يمكنه أن يحقق لك ما تريد.

بانتظار زيارتك.

المخلص

جوناه تشايلدز».

رسالة رائعة ما لبثت أن اكتشفت بعدها أنها من رجل مميز. ما زلت أذكر جيدا لقائي الأول العجيب معه، السيد تشايلدز عيناه تتوقدان حماسة وهو يمطرني بأسئلته باهتمام، ولا أكاد أجيبه على سؤال حتى أتلقى منه سؤالا جديدا. كنت أخشى لحرارة عواطفه أن تدمع عيناه وهو يرى كيف تُدنس الكتب المقدسة، ولم تمض بضع لحظات من النقاش حتى بدأ يحسب التكاليف المتوقعة بتباهٍ مفاجئ.

«سأقدم كل هذا بسرور بالإضافة إلى كل ما قد يلزم».

الذهول، أقل ما يمكن وصف حالتي به لحظتها. لم أرَ في حياتي كرما أعظم أو أكثر تقوى من هذا، وبذلت جهدا لأعبر عن شكري.

«عليك أن تذهب أنت بالطبع». قال ثم أضاف: «أنت أتيت بالفكرة، وأنت من يعرف الصخور. لذا يجب أن تذهب».

لم يخطر في بالي اقتراحه هذا من قبل. إنه لشرف عظيم لي بالطبع، لكن والحق يقال كنت متشككا للغاية. فأنا لم يسبق لي أني سافرت إلى خارج البلاد من قبل أو حتى ركبت سفينة عدا في رحلات نهرية. وكان علي أن أفكر بشأن زوجتي العزيزة أيضا، فهي، مدللتي الشجاعة، من اتخذ القرار في نهاية المطاف. عندما حاولت طمأنتها في اليوم التالي أني مستعد وبكل سرور أن أبقى معها هنا في يوركشر الهادئة إن كان هذا ما تريده، رفعت يداها معترضة وقالت:

«يجب أن تذهب يا جيفري. هذا قدرك. لا تقلق بشأني، لن أكون وحيدة. معي الأولاد وأختي أيضا».

بعد ذلك سارت الأمور بسرعة. رأى السيد تشايلدز أن الرحلة بحاجة إلى رجل خبير يقودها، وبعد تفكير وقع الخيار على الرائد هنري ستانفورد، عسكري طويل القامة ملفت للنظر سبق له أن قاتل القراصنة الصينيين وغيرهم من لصوص البحر، كما عرف عنه تجواله في بلاد ما بين النهرين وحده مما دفعه لشدة ما واجه من شدائد أن يأكل بغله. صحيح أنه لم يكن يفقه في الجيولوجيا ولم يكن على دراية بأمور الكتب المقدسة، لكن بصرف النظر عن ذلك بدا لي أنه سيكون قائدا ممتازا. وبالفعل، منذ البداية لم يُضع الوقت وسرعان ما بدأ بتحويل طموحاتنا إلى واقع، منكبا على التحضير وشراء ما يلزم للرحلة. كان هو من استأجر سفينتنا كارولين. كانت إحدى أفضل السفن، فقد بُنيت لنقل متاع قوات البحرية وشاركت في الحرب الأخيرة مع روسيا قبل أن تُباع إلى مُلّاك مدنيين، واكتسب طاقمها خبرة عسكرية كبيرة في خدمتهم الطويلة فضلا عن منبتهم العريق كبحارة متمرسين وأشداء من بورتسموث.

عشرة أيام ونكون على متنها مع بداية رحلة بعثتنا. مجرد

التفكير في ذلك ملأ كياني إثارة بينما كانت العربة تجتاز بي شوارع لندن. كنت قد طلبت من السائق أن يذهب إلى هامبستيد أولا حيث يقطن عالم النبات المرافق للبعثة تيموثي رينشو، الذي طلب جوناه تشايلدز مني اصطحابه. كان والد تيموثي رجلا قاسي الطباع من أصل متواضع، لكنه جمع ثروة من صناعة الجبس. بيت العائلة كبير رغم أنه ليس فاخرا. أما والدته فكانت ذات ثقافة عالية ومن عائلة مرموقة في هرفردشير، وهي من استقبلني عندما وصلت. لاحظت عليها علائم عدم الارتياح.

«سيحضر تيموثي حالا. يؤسفني أن أقول إنه متوعك بعض الشيء».

دخل الشاب بعد قليل مجرجرا قدميه بتثاقل وقد علا وجهه الشحوب وتلون ما تحت عينيه بظل داكن. أكد مظهره هواجسي في أن ما يعاني منه كان بسبب تصرفاته، فقد عرف عنه نمط حياته الفوضوي، وكان يسبب لوالديه الكثير من القلق بسبب بقائه إلى ساعات متأخرة من الليل في المدينة، وأعتقد أن هذا القلق لم يكن في واقع الأمر منفصلا عن رغبة الوالدين وحماسهما لمرافقة ابنيهما لبعثتنا.

«ما الأمر؟» سألني دون أن يكلف نفسه عناء إلقاء تحية الصباح. عندما أخبرته أن لدينا موعدا قريبا في كلابام قال بصوت غاية في الكآبة: «هذا مزعج. لدي ما أفعله». لكن عندما رأى نظرة أمه الحادة هز كتفيه وقال: «حسنا، إن كان الأمر ضروريا فلا بأس».

أعترف أني لم أكن راضيا تماما عن اختياره لهذه المغامرة العظيمة. لقد أصر السيد تشايلدز على أن يرافقنا، فلابد لأي

بعثة من عالِم، لكن ما اكتشفناه أن العثور على عالم مناسب لم يكن بالأمر السهل. يبدو أن العلماء جماعة تتأثر بالموضة الرائجة. كانت أدغال أمريكا الجنوبية الموحشة جهتهم المفضلة، لا تاسمانيا البعيدة. كنا في الحقيقة على وشك أن نفقد الأمل في العثور على خيار مناسب، عندما وصلتنا رسالة من السيد رينشو الذي كانت زوجته قد سمعت عن أمر البعثة من أحد بنات عم السيد تشايلدز في الكنيسة. أُرفقت الرسالة بكتاب توصية من عالم النبات المعروف الدكتور دايسون الذي قام بتعليم تيموثي، والذي أطرى على خبرة تلميذه فيما يتعلق بنباتات المناخ البارد وخصوصا النباتات الشوكية، قائلا إنه موهبة صاعدة في هذا الاختصاص النادر. لم يساورني الشك في مدى مصداقية إطراء الدكتور دايسون، إلا عندما قابلت تيموثي، وتساءلت فيما إن كان اختصاصه النادر هذا يستحق كل هذا المديح. لكن السيد تشايلدز كعادته في ردود أفعاله غير المتوقعة رأى في هذا الشاب المتجهم خيارا مثاليا.

«أعتقد أن الرب قد أرسله إلينا». قال بعد المقابلة وعيناه تشعان «غاية في الجدية والنضج بما يسبق عمره. سيكون إضافة مهمة للبعثة».

احتفظت بشكوكي لنفسي لأني تعلمت من خبرتي أن محاولة ثني السيد تشايلدز عن أي قضية يتحمس لها ليس بالفعل الصائب. فعلى الرغم من طيبته ولطفه، كان مزاجه يتغير بسرعة مفاجئة ما إن يتعرض لما يستفزه، وقد يتحول في لحظة من البهجة إلى أقصى الخيبة أو ما هو أسوأ. وفي المرتين اللتين افتقدت فيهما الحصافة وعاندته، كما عندما أصر على فكرة أن تقوم البعثة بالاستفادة من حيوانات الكنغر في تاسمانيا وتدجينها، فعلى الرغم من أنه اقتنع

بوجهة نظري فيما بعد، فقد احتقن بالغيظ وجعلني لوهلة أتخيل أن حماسته لمشروع البعثة قد تلاشت كليا.

«هذا بطيء». قال رينشو عندما توقفت العربة بنا مرة أخرى. كانت رحلتنا سريعة إلى أن وصلنا إلى ساحة ترافالغار حيث علقنا في زحمة السير. لم يكن هذا أمرا غريبا على شوارع لندن التي أصبح فيها الزحام أمرا بديهيا كوجود السمك في الأنهار، لكن مع مرور الوقت وازدياد صخب السائقين وتوترهم، بدأت أشعر بالقلق.

«ما الأمر؟» سألت سائق العربة.

«هناك استعراض لفرسان الحرس».

مددت عنقي لأرى ما وراء رينشو، وبالفعل كان هناك جلبة كبيرة أمام مقر الجيش وعربات كثيرة توزعت على طول الطريق، بينما تجمع حشد غفير كثير منهم في الزي العسكري. بدا تجمهرا غريبا طغى عليه الاهتياج والانضباط في الوقت ذاته.

«لا يبدو أنه استعراض». قلت متسائلا.

هز رينشو كتفيه: «لا بد أنها حرب جديدة».

بدا تعليقه لي أحمق وقليل الذوق، وكنت على وشك أن أؤنبه عندما تحركت العربة وتابعت طريقها. لحسن الحظ كانت الطريق المتجهة من وينسمنستر نحو الجنوب فارغة، ولم يمض وقت طويل حتى انعطفت العربة في الزقاق المؤدي إلى بيت جوناه تشايلدز. كان في صف من البيوت تقع على تخوم الحقول، كأنها مستوطنة متقدمة من مدينة لندن التي لا تكف عن التوسع في كل الجهات. لم يكن من السهل تمييز علامات إمبراطورية تشايلدز التجارية، صورة أبيه المعلقة فوق المدخل وهو يقف في بلاد بعيدة في مشهد

مليء بالأشجار والسفن التي تنتظر حمولتها، ولوحة رائعة أخرى تحتها لسفينة فيكتوري العظيمة التي سمعت أن ما لا يقل عن اثنين وعشرين نوعا من الخشب قد استخدم في بنائها.

«السيد ويلسون. آه، والسيد رينشو أيضا؟ كم هذا بديع!» بدا السيد تشايلدز متخففا من تحفظه وهو يقودنا إلى غرفة المكتب: «ضيفنا الآخر قد وصل أيضا».

هناك زائر مجهول إذن. كان رجلا ضخما بتعابير مركزة تضفي عليه الكآبة. لم ألمح في وجهه أي حياة حتى صافحته فابتسم بفتور دون أن تبارح محياه ملامح التبرير، كأنه يدفع عن نفسه عدم رضى يتخيله. نبرة خشنة ما في لكنته اللندنية توحي بأنه كوالد تيموثي رينشو ينحدر من أصل متواضع.

«اسمحوا لي أن أقدم لكم الجراح المرموق الدكتور بوتر». قال السيد تشايلدز ثم أضاف: «إنه من أصدقاء الدكتور كايت الذي قام بعمل عظيم لا يقل عن أعجوبة في علاج قدمي أختي المسكينة». ابتسم بشي من التوتر: «لقد تفضل الدكتور بوتر بكل لطف في أن ينضم إلى البعثة. أليس هذا رائعا؟».

ليس لدي في الحقيقة ما أقوله ضد السيد تشايلدز الذي كانت شخصيته فوق أي انتقاد، ومع ذلك لا أستطيع أن أخفي أني تمنيت لو أنه لم يترك لنفسه حرية القيام بأمر مهم كذلك قبل أن يستشير الآخرين. ليس لأن لدي أي اعتراض على الدكتور بوتر هذا أو على أصله، فما كنت في أمر جلل كالذي كنا نتصدى له لألقي بالا إلى أمور ثانوية كتلك عدا أن الرب ذاته لا يفرق بين البشر حسب أسمائهم وأصولهم. كل ما في الأمر أن الإعلان عن هوية هذا الرجل جاءت متأخرة، قبل ساعات فقط من بداية رحلاتنا.

كان في ذلك في أفضل الأحوال تسرعا لا يخلو من خطورة. وجهت نظرة خاطفة نحو رينشو فوجدته يتثاءب وهو يحدق في حذائه غير عابئ بالأمر كله.

تفحصني بوتر ببرود: «يعود اهتمامي العلمي بتاسمانيا إلى زمن طويل مضى. لذلك كنت في غاية الاهتمام والحماس عندما سمعت ببعثتكم».

«هل تم إبلاغ الرائد ستانفورد؟» سألت. كان قائدنا حينها على أحد تلال دارتمور العاصفة يختبر الخيام الجديدة.

هز تشايلدز رأسه: «كان في غاية البهجة عندما علم أن طبيبا سيكون في رفقتكم». ثم ما لبث أن تجهم وجهه وعبس: «يبدو أن الأمر لا يروقك يا فيكر؟».

لم أر أي فائدة أو حكمة في الاعتراض فرسمت على وجهي ابتسامة وقلت: «أنا على ثقة أن الدكتور بوتر سيكون ذخرا ثمينا لنا».

اجتاحت وجه جونز ابتسامة مبتهجة وهو يقول: «عظيم. والآن دعني أقدم لك مفاجأتي الصغيرة الثانية».

تخيلت للحظة أنه على وشك أن يقدم لي مرافقين آخرين جددا لبعثتنا؛ فريقا من رعاة الجمال ربما. لكن لحسن الحظ لم يكن الأمر كذلك. قادنا تشايلدز بلباقة إلى غرفة جانبية حيث وجدنا حقيبة كبيرة اصطفت فوقها ست بنادق لامعة ومسدس ذو بكرة.

«لدي ابن عم يمتلك مصنعا صغيرا في برمنغهام يصنع أحد أجزائها». قال وهو يحمل بندقية ويوجهها بحذر إلى أحد الجدران: «إنها أحدث المنجزات العسكرية وتمتاز بجودة عالية. وهكذا فقد أخبرني بما أنها من النوع الذي يتميز بطلقات قابلة للتمدد فإنها الأفضل».

غواية البنادق. أعترف أني أنا نفسي شعرت بها رغم كل ما يمنع من ذلك في تربيتي وتعليمي. لكنها استبدت بالآخرين تماما. اقترب بوتر من البنادق بسرعة وأخذ يتفحصها كأنه في حالة انجذاب، ثم ما لبث أن أمسك بإحداها وقذف بها في الهواء ليتلقفها بعد ذلك بيده كصبي مبتهج. وحتى رينشو نفسه وقع في الغواية وأمسك ببندقية تقارب طول قامته: «هل حقا تتمدد طلقاتها؟».

أجاب بوتر: «إنها تغير شكلها. مصنوعة من الرصاص مما يجعلها مرنة، لكنها مزودة بمحور بلاستيكي في قاعدتها. في البداية يكون حجمها صغيرا في سبطانة البندقية، لكن عندما تنطلق تتمدد وتملأ بحجمها السبطانة فتدور على محورها بسلاسة مما يعطيها مسارا دقيقا في انطلاقها. لقد سمعت أن الطلقة يمكنها أن تقتلع ذراع رجل بأكملها».

بدا أن رينشو لم يكن يعرف ما هي السبطانة، مما دفع بوتر لرفعها على الفور موجها إياها إلينا لنحدق بها واحدا تلو الآخر. وجدتني مدفوعا لتغيير مزاج اللحظة فقلت: «أرجوك بلغ شكرنا لابن عمك. سيمنحنا وجود هذه الأسلحة الثقة والطمأنينة رغم ثقتي أننا لن نجد سببا لاستخدامها».

«أتمنى ذلك» قال تشايلدز وقد اعتكر مزاجه فجأة: «بعد ما سمعنا من أخبار اليوم شعرت بالراحة أن هؤلاء الأصدقاء سيرافقونك».

أثار كلامه استغرابنا أنا ورينشو والدكتور: «أية أخبار؟».

بدا على تشايلدز أنه فوجئ بسؤالي: «ظننت أنك سمعت. هناك تمرد مزعج في الجيش البنغالي. سقطت دلهي وأعمال القتل والتنكيل تجري بحق مئات المساكين من النساء والأطفال هناك».

هناك أخبار وأخبار. ليست كلها مثل بعضها، ومعظمها بالكاد يثير لدينا القليل من التعاطف، رغم أنها تولد فينا لحظات وجيزة من الحزن أو الفرح ليتلاشى أبطالها سريعا من الذاكرة. لكن في هذه الحالة كان الأمر مختلفا، فنحن هنا بالتأكيد أمام كارثة من العيار الثقيل. ما زلت أذكر الوجوه المتجهمة والقلقة أمام مقر حرس الخيالة وقد فهمت حقيقة ما ألمّ بهم للتو، وأكاد أسمع صرخات البراءة المستغيثة تتناهى إلي من تلك الأصقاع النائية عبر الأراضي القاسية المعفرة بالغبار.

«الأخبار تأخذ شهرا لتصلنا هنا» أضاف تشايلدز: «لذلك ليس لدينا علم بما قد جرى بالفعل حتى الآن».

وضع بوتر البندقية مكانها بحرص، ووقفنا كلنا للحظات غارقين في الصمت والتفكير. وحده رينشو كسر الصمت ليظهر كعادته الأبدية موهبته في سوء التقدير:

«سيسبب ذلك المتاعب ويعطل خططك».

القبطان إيليام كويليان كيولي، يونيو 1857

تجول حراس جمارك لندن في سفينة الإخلاص على مدى ثلاثة أيام مقطبين عابسين وبالكاد نطقوا بكلمة. تلك الأيام الثلاثة لم تكن من أيامي المفضلة. وضعونا في أحد تلك المقصورات المقفلة الجديدة ولم يكن لدينا ما نفعله سوى الانتظار ونحن نستمع إلى ضجيج لندن المجنون يدوي فوق الجدار العالي كإنذار. طيلة ذلك الوقت كانت سفينتي المسكينة تُفتش وتُنبش بطريقة لا يمكن احتمالها بينما كنت أفكر أن الكارثة لن تكلف سوى اكتشاف صغير أو حماقة يرتكبها أحد ما من خوفه.

ما من أحد في الحقيقة أكثر دقة من الجمارك. جعلونا في البداية ننقل البراميل إلى السطح ومن ثم أفرغوا ما فيها من الرنكة. بعد ذلك فتشوا في كل مكان في المخزن، إلى آخر برميل خشبي مليء بالحبال الغليظة، مرورا بقن الدجاج، فمربط النعجة، وصولا إلى القارب حيث كان الخنزير. فتشوا في كل خزن البحارة ونزعوا صورة الأميرة فيكتوريا ونسلها من الإطارات. وحتى جربوا تفتيش زيي الرسمي ونبشوا في قبعتي بحثا عن بضع أونصات من التبغ قد أكون أخفيتها هناك. ثم بعد أن انتهوا من ذلك أعادوا الكرّة من جديد يطرقون هنا وهناك على خشب السفينة

أو يقتلعون الأرضية ليفتشوا تحتها أو يشعلون نارا صغيرة ليتتبعوا دخانها من أي منفذ يصعد. ثم تلا ذلك المقابلات، حيث أخذونا واحدا تلو الآخر إلى غرفة الطعام، كل في دوره للاستجواب. تفحصوا في رواياتنا، خصوصا في حكايتي الحمقاء عن ذلك القارب الذي اشترينا منه الجبن. كانوا طيلة الوقت يرغون ويزبدون مهددين على أمل أن ينهار أحد منا ويطلق العنان لاعترافاته.

«سنجد البضاعة قريبا في كل الأحوال». هكذا كانوا يتوعدون.

«ساعدوا أنفسكم بإخبارنا الآن».

ثلاثة أيام كاملة من البحث والتفتيش، وماذا وجدوا بعد كل ذلك الضجيج؟ لا شيء البتة. أنا نفسي لم أصدق. كنت أعلم أن سفينتنا أعجوبة صُنعت من الخشب وأن كل بحارتي من آيل أوف مان ومن بيل تحديدا، لكنني لم أتوقع أن «الإخلاص» ستحافظ على نفسها منيعة وعذراء في وجه ذلك الاجتياح. ففي نهاية المطاف كانوا نخبة التجسس والعمليات في جهاز الجمارك الملكي، وفوق ذلك يتحركون في لندن المقيتة مجالهم الحيوي، بينما لم نكن نحن بالنسبة لهم سوى طاقم سفينة من المساكين القادمين من آيل أوف مان، أصغر البلاد في العالم الكبير. لا أريد هنا التحدث عن معجزات، لكن شيئا ما غير عادي كان يحدث بالفعل مما دفعني للتساؤل فيما إن كان المعروف الذي قدمناه لذلك الأسقف شالمرس، باصطحابه معنا، قد بدأ يعطي ثماره في النهاية؟!

هناك ما يستحق الاحتفال. ولم يكن في ذلك الشعور أي حماقة بالتأكيد، فلم يعد بوسعنا منع أنفسنا من ذلك بعد تلك الأيام الثلاثة الطوال. تجمعنا في تلك الليلة في المخزن حيث لا يمكن لأحد

أن يتلصص علينا ونحن نثرثر بلغتنا زيادة في الحيطة. هل شربنا؟ نعم، ربما قليلا. هل غنينا؟ لا، لم نجرؤ على ذلك. وهل رفعنا الأنخاب؟ نعم، لا يمكنني إنكار هذا. رددنا مقولة مأثورة في لغتنا تعني بالإنجليزية «يعيش الرجال والموت للأسماك». ونعني هنا سمك الرنكة، كما هو حال كل صيحات الأنخاب في آيل أوف مان. ثم رددنا «الموت للرأس الذي لا يمشط شعره». كنا نتمنى الموت لصديقنا المفضل، سمك الرنكة بالطبع.

بالتأكيد لا بد من ثمن يجب دفعه بعد ليلة كتلك. لكن في حالتنا كان الثمن باهظا. ففي صباح اليوم التالي وأنا أخرج من قمرتي مترنحا تحت وطأة الصداع الذي اشتد وقعه بفعل ضجيج لندن الذي كان يدور في رأسي كعجلات عربة ثقيلة وجدت أمامي رجلا غريبا على سطح السفينة يجلس على كومة من الحبال ويدخن غليونه بمتعة.

«قبطان كيولي؟» نهض بتمهل وبطريقة لا تخلو من استخفاف، كأني لا أستحق منه أي عجلة. «اسمي باريش» وأخرج من جيبه رسالة وقدمها لي. خمنت من شكلها ومن خطوطها المتداخلة التي تشبه الخربشة أنها من الجمارك. ولم أكن مخطئا.

«قررت إدارة الجمارك وبناء على الإثباتات المتوافرة بوجود بضاعة أجنبية على متن سفينة الإخلاص - ولم تكن سوى جبنة كويل - أن هذه السفينة التجارية خالفت القوانين بتغيير خط رحلتها من بيل إلى مالدون وأبحرت إلى ميناء أجنبي، وقد أنكر قبطانها ذلك مرارا عندما استجوب من قبل حرس السواحل الملكي. وبناء عليه تقرر أن يدفع مالكها - وهو أنا - غرامة قانونية مقدارها 200 جنيه».

مئتا جنيه! مبلغ لا يستطيع العديد من الرجال جمعه في سنوات. من أين لنا نحن بمئتي جنيه؟ هناك أيضا رسوم المرفأ الباهظة، مرفأ لندن الذي لم نختر أن نكون فيه، والتي ترتفع مع كل يوم إضافي لنا فيه. وأخيرا هناك تسع بنسات، الرسوم الجمركية المترتبة على قطعة الجبن. لكن لم يكن كل ذلك مسألة قانون. كل القضية أنهم شعروا بالهزيمة وتوجب عليهم أن ينتقموا. دعكم من أحاديثهم، ليس هناك أسوأ من رجل إنجليزي مهزوم، خصوصا إن كان في زي رسمي. لا عجب مع كل ما يفعلونه أن يتمرد كل أولئك الهنود الهندوس ضدهم، وأنا في الحقيقة أتمنى لهم التوفيق في ذلك.

«سأبقى هنا حتى تُدفع الغرامة» أوضح باريش بنبرة لا تخلو من تودد. «كي أتأكد أن كل شيء على ما يرام». كان هناك بغرض التجسس بعد أن فشلوا في اكتشاف أي شيء. يحاولون في إدارة الجمارك أن ينالوا منا الآن بالحيلة والتجسس.

فعلت كل ما بوسعي. كتبت في ذلك اليوم ذاته رسالة إلى دان غون مخمر الجعة في بلدة القلعة. وضعت أملا كبيرا في تلك الرسالة. صحيح أن غون كان يخشى إقراضنا مرة أخرى خشية العجز عن التسديد، لكن من جهة أخرى كنا نحن على وشك الخلاص من ورطتنا من هذا الرصيف اللعين، والإبحار إلى مالدون حيث سيكون لدينا ما يكفي من المال.

وبينما كنا ننتظر حرصنا على أن نبيع كل ما يمكن بيعه لدينا للوكلاء والسفن العابرة. أول ما نفذ كان سمك الرنكة رغم أنه لم يجنِ الكثير من الربح بعد أن كان قد أُخرج من البراميل مرتين وبدت عليه علائم ذلك. ثم بعنا كل ما يمكن بيعه من

محتويات السفينة، حتى ما بقي لدينا من الدجاج. ولم أكن لأتردد بالتضحية بلوحات ألبرت أمير فيكتوريا وعائلتها لو وُجد مشترٍ. لكن كل ذلك لم يكن ليكفي، فعندما أحصيت الغلة بعد كل ما بيع كان لا يزال ينقصنا ثلاثة وثمانون جنيها. ثم وصل رد غون في رسالة قصيرة.

«قم ببيع السفينة ورد لي ما عليك».

لم يكن ذلك ردا. كان كمن يلقي قاذوراته الوضيعة في المحيط. وكأنني كنت أريد بيع «الإخلاص»، أو كأنني أستطيع فعل ذلك وأنا أعرف ما الذي سيجده مالكها الجديد من كنوز مخبأة فيها. أطلقنا على غون نعوتا شنيعة في ذلك الصباح. منافق، مدّع، وضيع، زبال.. عجوز.. دودة نهمة، يكدس المال مع زوجته الشمطاء وهو يتوهم بغرور أن له أي قيمة.

لم يكن لذلك أي جدوى بالطبع، وفي غضون ساعة واحدة، كنا أمام أسوأ مشكلة واجهتنا عندما قفز اثنان من حراس ميمنة السفينة حاملين جعبتيهما وهما يغادران بكل وقاحة أمام طاقم البحارة كله. «لا، شكرا. نفضل أن نجد سفينة تدفع لنا». هكذا أجاباني عندما أمرتهما بالعودة. لم يكن ذلك ليمثل أي مشكلة في سفينة أخرى. لكن الإخلاص ليست أي سفينة، فبحارتها كلهم من جزيرة مان وكل واحد منهم يجب أن يكون من مدينة بيل حصرا. وفجأة علمت لحظتها أنني أمام فرصة كبيرة علي استغلالها. فكما يقول أحد الحكماء: لا فائدة من المقامرة ببنساتك بعد أن يجردك النرد من حصانك وبيتك.

لو ذهب أحدهم الآن يتسكع بين القوارب على الرصيف لسمع الكثير من القال والقيل عن أشياء وأمكنة لم يسمع بها قط، بل

ولم يتخيل يوما أنه سيفعل. وقد سمعت أنا نفسي الكثير من الأقاويل عن لندن وعن حانة بعينها حيث تدور أحاديث وتجري صفقات في الخفاء. وفكرت أنه ربما كان بوسعي الحصول على قرض من أحد ما هناك كجزء من صفقة أو اتفاق. لعلها تكون صفقة رابحة في نهاية المطاف، كأن يحصل أولئك الدائنون بعد خلاصنا من ورطتنا على حمولة السفينة لقاء سعر معقول للغاية. هناك مخاطرة في ذلك بالتأكيد، فنحن بالفعل لا ندري بمن نثق من بين الإنجليز هنا، ولا أستبعد أن يخدعنا جواسيس الجمارك المتربصون بنا. لكن لم يكن أمامنا سوى أن نحاول.

عليّ في البداية أن أحصل على بعض العينات. أرسلت كيفينغ لمشاغلة الجاسوس باريش ببعض الثرثرة كإجراء احترازي ثم طلبت من برو أن يجعل الشباب يثيرون الضجة وهم يعملون بغية التغطية والتشويش لأتسلل بعد ذلك إلى تلك المخابئ السرية التي حافظت عليها سفينة الإخلاص محصنة من أعين الجمارك. ذهبت أولا إلى مخزنها وتحديدا إلى إطار ذلك الباب الذي بأعجوبة لم ينتبه الكابتن كلارك إلى قطعة الحبل فوقه. حركة شد خفيفة من يدي وسمعت الجواب في صوت طقطقة لم تأت من مكان قريب، بل من غرفة المستودع المجاورة. لا يمكن لأحد أن يكتشف مصدر الصوت إن لم ينظر إلى الحبل وراء اللوح الذي انفتح. يلي ذلك صوت الطقطقة مرتين إضافيتين من جهة قاعة الطعام. يقينا كان تمثالا ألبرت وفيكتوريا لحظتها أقل ثباتا على الأرضية. نظرة متفحصة كانت تكفي لاكتشاف أنهما يستندان إلى فراغ، وإن جرب أحد ما دفعهما فسيتلقى عندها أكثر المفاجآت إثارة. ستدور المفاصل المرتبطة بهما لينفتح باب من الأرضية إلى أعلى بمنتهى الهدوء والرشاقة.

والآن سأخبركم لماذا لم يجد أصحاب الوجوه المتجهمة من الجمارك أي شيء في السفينة. ذلك لأن الإخلاص لم تكن هيكلا خشبيا مفبركا. لا، فمن أرضية قاعة الطعام وكل ما تحتها كانت الإخلاص سفينة كاملة داخل سفينة أخرى. الطبقة الداخلية كانت الألواح التي اشتريتها من ذلك المركب الذي فُكِّك، وقد قمت بترقيقها بعض الشيء، إلا أنها ظلت صلبة ولم يكن لأحد أن يلاحظ الفراغ خلفها حتى إن نقر عليها. أما الحيز الذي بين الطبقتين فلم يكن يتجاوز ثمانية عشر إنشا، إذ إن أي إنش آخر سيثير الريبة، لكنه بإحاطته الكاملة بجدران السفينة كلها يشكل فراغا كبيرا يكفي لتخزين كميات هائلة من التبغ والبراندي. كل هذا دون أن نأخذ في الحسبان كل الزجاج الفرنسي الملون الذي خبأته. أي متعة في النظر إلى كل تلك الثروة وهي تمتد في مخابئها، بينما تدغدغ روائح التبغ والكحول خياشيمي.

كان يكفيني أن أعرض كميات صغيرة، حفنة من التبغ في علبة وقارورة صغيرة من البراندي وقطعة صغيرة من الزجاج الملون. مقدار ضئيل الحجم يمكن إخفاؤه بسهولة. دسست عيناتي الثمينة في جيب معطفي وأعدت كل شي في «الإخلاص» إلى ما كان عليه ثم صعدت إلى سطح السفينة حيث كان باريش لا يزال يثرثر مع كيفينغ، ولم يبدُ عليهما أنهما يلقيان أي بال إلى ما أفعل. أومأت إلى رئيس البحارة برو أن يتبعني لأنه رجل ذكي رغم عينيه الشاردتين على الدوام والباهتتين كقطعة من الجبن. يقال إن أمثال برو لديهم عقول حادة الذكاء أكثر مما ينبغي، لذا لا تثق بهم في سوق. الشخص الثاني الذي أومأت إليه في طريقي كان شاينا كلوكاس، الذي كان دائما جاهزا للمساعدة في أي شيء، لكونه عملاق السفينة ولديه من القوة ما يعادل سبعة ثيران.

كل ما كنا بحاجة إليه هو الحظ، وكان وقتها إلى جانبنا. مشينا نحن الثلاثة نحو البوابة ونحن نلوح بأيدينا كي يرى الجميع أننا لا نخفي شيئا، وتركنا الحراس نعبر، من دون حتى أن ينظروا إلينا. وفجأة وجدنا أنفسنا في لندن، تلك المدينة التي كثيرا ما سمعت عنها ولم أرها من قبل. لم أشأ للضجيج والقذارة حولنا أن تشغلنا، وفكرت أنه من الأفضل أن نمشي خشية أن يكون جواسيس الجمارك وراءنا، وهكذا تابعنا المسير في خطوات واسعة.

«هل تريد أن أدلك على الطريق يا سيدي؟» جاء الصوت من فتى إن كان يمكننا بالفعل أن نسميه كذلك. كان يشبه أكثر كرة من الأسمال البالية وعينين صغيرتين جائعتين تبرقان. «سأدلك على الطريق مقابل بنس واحد فقط». لا أدري كيف عرف أننا غرباء رغم أننا كنا نرسم الكآبة على وجوهنا محاولين أن نبدو كغيرنا من سكان لندن البائسين. ثم خطر لي أنه قد يكون ذا فائدة لنا. «بنس واحد إذن؟ حسنا... إننا نقصد حانة ووترمان آرمس».

«نعم، أعرفها. اتبعوني فقط». قال وكأنه يغني.

«أرجو فقط ألا يكون من جواسيس الجمارك». تمتم برو.

لم أستطع منع نفسي من الضحك، إذن لم يكن من عادة برو أن يتفوه بحماقات مضحكة كتلك. قلت له: «آه أيها الرجل. سيأتي وقت ترى فيه جواسيس الجمارك في الأسماك نفسها».

كل ما كان بوسعنا فعله أن نمشي وراء الفتى الذي كان ينعطف بنا من شارع قذر إلى آخر ثم يمشي ويمشي في الأزقة حتى بدأت أتساءل ما إن كان يعرف الطريق حقا أم أنه كذب علينا ليحاول كسب البنس منا. وأخيرا قادنا عبر زقاق ضيق إلى فناء قذر تحيط به منازل بائسة ومائلة ثم توقف. كان صبري لحظتها قد بدأ ينفد.

«ضللت الطريق، أليس كذلك؟» قلت له.

وبدلا من أن يجيب كما يمكن لكم أن تتوقعوا قام بفعل غريب. أطلق صراخا عاليا «بااا... مااا... ».

بعد لحظة خرج من أحد المنازل رجل عجوز يبدو كالمعتوه، يتكئ على عصا رمادية، أشعث الشعر غريب الهيئة وعيناه تحدقان بجنون إلى مكان جانبي ما، من دون أن ينظر إلى أحد مباشرة. بدا العجوز أكبر من أن يكون أبا لأي أحد هناك. خلت للحظة أنه ربما يساعدنا في الوصول إلى ووترمان آرمس، لكن الفتى التفت نحوي على حين غرة وأطلق صرخة. «آه.. أين الجنيهان الاثنان خاصتي؟».

قد يخال المرء أن ذلك قد يكون مضحكا أو مسليا. لكن لا، لم يكن الأمر كذلك أبدا. الوحيد الذي ضحك كان شاينا كلوكاس بما عرف عنه من بلادة. وما كان منه بعد لحظة سوى أن تنازل إلى مستوى ذلك المخلوق. «كل ما طلبته كان بنسا واحدا، أليس كذلك؟».

رأيت الفتى يأخذ نفسا عميقا ثم انفجر بالصراخ: «لصوص». كأنه موجة عارمة من الصفير. بعد ذلك رأينا حشدا يتجمع ويزحف نحونا، كل يحاول أن يظهر صلته بالفتى. كانت هناك أمه التي بدت أصغر منه، وأبوه الذي بدا أكبر من أمه، والكثير من العمات والأعمام والأخوال والخالات ثم رهط كثير من أناس لا أحد يعرف صلة قرابتهم. ما زاد في الأمر صعوبة أنهم بدوا عائلة متماسكة أيضا، وقد وحدتهم رغبة واحدة وهم يتجمعون حولنا، أن نرد لقريبهم الجنيهات الأربعة - وليست الخمسة - التي سرقناها منه. الأمر في غاية الوضوح، لم كل تلك الضجة وماذا يريدون؟

«لنذهب من هنا». صحت بمن معي.

لم يكن معظمهم أضخم في الحجم من الفتى نفسه، وللحظة خلت أننا نستطيع الهروب بسهولة ويسر. بدأنا ببطء نتراجع إلى الوراء مجتازين الفناء ثم عبر الزقاق وشاينا يقودنا. استطعنا تدبر الأمر إلى أن وصلنا الشارع حيث كان المكان أكثر اتساعا لهم. فجأة انقض الفتى وغرس أسنانه في رجل شاينا ثم ما لبث أن تقدم الرجل العجوز وأخذ يضربه بعصاه، وعندما حاولت مساعدته انقض علي رجلان يحاولان سرقة ما في جيوبي. عندها أخذنا نركض وقد علا وراءنا ما يشبه العواء بينما أقدامنا تنهب الشارع جريا متجاوزين المتسكعين، خصوصا من يمد أيديه منهم. ثم لمحت فجأة بناء ضخما يتسم شكله بالبساطة فعلمت أنه لا بد أن يكون ديرا. كان الباب مفتوحا وأحدهم يدخل فصرخت مشيرا لمن معي: «هناك... هناك».

بعد لحظة وجدت نفسي في الداخل ألهث وتكاد أنفاسي تنقطع في قداس اكتظ بالمصلين الخاشعين بملابسهم البسيطة. أخذ بعضهم ينظر إلي شزرا، وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة بينما كان واعظهم يتمتم بهدوء. كان شاينا خلفي تماما يحاول التغلغل بين الحشد، قدر استطاعته، بينما لم يكن هناك أي أثر لرئيس البحارة برو.

«هل رأيت ما حدث له؟» همست. هز شاينا بكتفيه وتلمس ساقه حيث أصيب نتيجة الضرب. أعتقد أنه كان علينا أن نخرج بحثا عنه، لكني فكرت لحظتها أنهم ربما كانوا لا يزالون يترصدوننا في الشارع. ثم إن برو ذكي ولن يعدم حيلة ليتدبر أمره. «سنبحث عنه لاحقا»، قلت لشاينا الذي بدا سعيدا بقراري.

«تلك الأحداث الفظيعة في الهند.. » استطرد الواعظ الذي كان رجلا ضئيلا مهندما بنظارات. «... ستكون المعركة التي ستنهي كل المعارك».

إنه رجل قتال إذن! حسنا، لا أمانع في بعض النيران وشيء من المقاليع، رغم أن ذلك ليس الأفضل على الإطلاق. لا بد من التوضيح أن رجال جزيرة مان مختلفون في مرجعياتهم، لذلك يذهبون إلى كنائس مختلفة في أيام الآحاد ذاتها، خصوصا إن لم يكن لديهم ما يفعلونه. ففي نهاية المطاف ليس من المنصف أن تتبع لمذهب واحد فقط بينما يتربع الأنغليكان على عرش الأغاني والموسيقى، ولدى الروم أفضل البخور والروائح، أما فيما يتعلق بالمسرح فلن تجد رجلا ناريا أكثر توقدا من صاحبنا هذا. وهكذا، ها نحن، ليس أمام رجل حرب فقط، بل وعلى مرمى سنوات قليلة من النصر كما وعد! كان لديه حيل ذكية لربط كلامه باللحظة الراهنة. وفقا لكلامه ليس جوج حاكم روش ومزهك وثوفال سوى قيصر روسيا نفسه الذي يحكم موسكو وسيبيريا. أما فيما يتعلق بالمعركة الكبرى التي ستتبعها كوارث ووباء فستكون بين روسيا والإنجليز، كتلك المعركة التي خاضوها مؤخرا في شبه جزيرة القرم لكنها ستكون أكثر ضراوة بمئات الأضعاف.

من سيقع ضحية لتلك القرارات العظيمة، ذلك الدمار الرهيب؟ آه، كلنا نعرف الجواب. الآثمون. كانت لديه قائمة طويلة، ألقاها متمهلا كي لا نخطئ في التعداد. الفاسقون والسكارى. الخاطئون في أيام الأحد. الأتراك الهمجيون والزنوج الذين لم يعترفوا بسمو الرب، واليهود الذين آذوا مخلصنا المسيح، وكل من ارتكب الخطايا ولم يكلف نفسه عناء الاعتراف، وأتباع البابا. كان المصلون مستغرقين

كجمع من الأغرار، وهو يتلاعب بهم بكلماته كمن يرقص. سرَتْ في البداية بينهم موجة من الخوف خشية أن يكونوا مقصرين في الاعتراف، ثم موجة رعب من أن يكونوا هم من سيلاقي المصير في الاحتراق في النار الأبدية. بعد ذلك سرت فيهم موجة من الارتياح عندما عرفوا أنهم لن يكونوا في قائمة الآثمين في نهاية المطاف، خصوصا إذا ما تحلوا بالحكمة وأخذوا الحذر. أما أفضل اللحظات فكانت في النهاية عندما تلذذ الجمع بشعور الرضى، ذاك وهم يتأملون في مصير كل أولئك الأغنياء والأمراء والملوك والأباطرة الذين رغم كل ما يملكون سيتركون كل شيء وراءهم ليُلْقَوا عراة في الجحيم. أي كلام رهيب! ورغم أني لست من المؤمنين بنهاية العالم، إلا أني عند سماع قصة النهاية، بكل ذلك اليقين، أصابني برعشة وجعل الشك والتساؤل يتسرب إلى نفسي.

«كفى، هيا بنا». قلت لشاينا الذي بدا وكأنه لم يسمعني كسمكة وقعت في شباك الواعظ، وهو ينظر إليه محملق العينين رعبا. وكعادته دائما لا تنقص هذا الرجل البلادة عندما يلح عليه أحد في أمر ما، بل إنه أدار ظهره لي عندما لكزته مستحثا إياه. حسنا، قد يتحلى رجال جزيرتنا بالانضباط على سطح السفينة وقد يبلغون في طواعيتهم سلاسة شرب كأس من الحليب، لكن في مناسبات كهذه ينسون أنفسهم. لكن هناك حدود. لكزته بقوة على مرفقه وقلت: «آمرك أن تتبعني الآن». ويبدو أن صوتي خرج قويا فشدني الرجل الذي ورائي من سترتي بقوة ناهرا: «هذا يكفي. إن كنت لا تستطيع البقاء صامتا فعليك أن تخرج من هنا».

المشكلة أن قماش سترتي كان قد تمزق قليلا من جراء المشادة مع أولئك اللصوص، عندما حاولوا الوصول إلى ما في جيبي. وفجأة

أحسست بشيء ما يسقط. والآن، لم يكن هناك أفضل من صوت تحطم زجاج لينتشر في الفضاء بكل تلك الروعة! حتى صديقنا الذي يخطب، توقف عن الكلام للحظات. وبالمثل، لم يكن هناك أفضل من رائحة البراندي لتداعب الأنوف، وهكذا توقف كل من حولي لينظر ما الذي كان يجري. وأي مشهد مثير كان بالنسبة لهم. إلى جانب زجاجة البراندي المهشمة كان هناك علبة التبغ المتناثر على الأرض، وعلى مقربة منها اللوحة الزجاجية. كانت هذه الأخيرة قد كُسرت أيضا، لكن لم يكن من الصعب تمييز ما رسم عليها فقد رُسمت بإتقان، وهناك أشكال وصور لا يمكن للرجال إلا أن يتعرفوا عليها. كانت صورة امرأة شابة تبتسم جالسة في كرسي مريح وفي حضنها هريرة صغيرة. أما ملابسها فكانت قلنسوة صغيرة، ومعها جزمة أنيقة ناعمة، يلفها رباط حول ساقيها، وبالطبع الهريرة أيضا. هذا كل ما فيها، لكن تفاصيلها كانت رائعة.

«سكير». قال أحدهم.

«فاسق». تمتم آخر بغيظ من بين أسنانه.

بدا لي أن الحظ لم يكن إلى جانبنا في ذلك اليوم، لكننا عندما خرجنا، كان من سوء طالعي أننا لم نجد أثرا لصديقنا في أسماله ولا لأي من أقاربه. كان الشارع هادئا وخاليا إلا من الداهية رئيس البحارة برو الذي كان يتشمس متكئا على أحد الجدران. هكذا هو دائما. حتى لو غرق العالم كله في مستنقع من الوحول، فسيكون هو وحده من ينسل بمكر إلى حيث يكسب جنيها في مكان نظيف. هذا مستفز أحيانا إلى حد يشعر المرء بغواية ما للكمه.

قد تقدّرون بالتأكيد، كم بدا لي الأمر بائسا وأنا أفكر فيما جرى لنا. لم يكن الأمر سهلا ولم يعد من المجدي أن نبحث عن

تاجر أو سمسار، إذ إنه لم يعد لدينا عينات نعرضها. ومرة أخرى فاجأني برو أيما مفاجأة عندما لم يستغرب أو يتفاجأ على الأقل، بما حدث معنا. قال: «لا تهتم ولا تقلق نفسك يا قبطان». ابتسم ثم أكمل كلامه: «لماذا لا نعرض الإخلاص للتأجير؟ أو لنقل مثلا نأخذ ركابا إلى أي مكان يشاؤون في مكان ما ناءٍ؟ نستطيع بهذا أن نوفر ما علينا من ديون».

«تأجير؟ أعلم أننا مضطرون وفي وضع حرج. لكن مع ذلك، هناك أنواع من السفن تصلح لنقل المسافرين وأنواع أخرى لا تصلح. وأنا أكثر من يعلم من أي نوعٍ سفينة الإخلاص».

«ليس علينا نقلهم إلى أي مكان في الواقع». تابع برو وراء أفكاره: «ما إن نتحرر من هنا، ونتخلص من حمولتنا في مكان ما، يمكننا أن نجد أي ذريعة، ونخبرهم أننا لا نستطيع أن نكمل الرحلة معهم ونعيد لهم أجرتهم».

كاد كلامه يدفعني لأن أقول لا، وأترك ندبة في ذكائه. لكن الحقيقة أنها لم تكن فكرة سيئة إطلاقا.

الكاهن جيفري ويلسون، يوليو 1857

اقتربت من بيت ابنة حمي، عربة كبيرة غُطيت بشادر، تنوء تحت أثقال حمولتها، وكانت بالنسبة لي أول المؤشرات الدالة، على أن كل شيء قد ينقلب فجأة إلى خطأ. كنت منهمكا في قراءة بريدي ولم أُعر الأمر أي انتباه في البداية، معتقدا أنها تقصد أحد الجيران إلى أن نادتني الخادمة.

«أحد ما يسأل عنك يا سيد ويلسون».

في الخارج كان ينتظرني سائق العربة، وهو رجل من ذلك النوع الذي لا يهدأ فمه عن الحركة، إما في المضغ أو في البصاق أو في تدخين الغليون أو في كل ذلك معا. «حسنا، أين نضعها؟» سأل مشيرا إلى العربة. وبينما كنت أبحث عن إجابة غير مشجعة لسؤاله كشف مساعده غطاء الشادر عن الحمولة، التي كانت عبارة عن مؤونة وحاجيات كل من سيذهب في البعثة.

«هذا خطأ». قلت محتجا: «كل هذه الحمولة يجب أن تذهب إلى متن السفينة». وبينما كان السائق يقلب بعض الأوراق رأيت جوناه تشايلدز يتقدم في عربته نحونا والغم يرتسم بوضوح في قسماته. عرفت لتوي أي أخبار سيئة يحملها معه.

«سيرسل الأدميرال سفينتنا إلى بومباي بحمولة من الذخيرة». وكأن كل هذا لا يكفي ليكون كارثة! أصبحنا الآن بلا سفينة! أضاف ملقيا في وجهي مزيدا من الأخبار السيئة: «والكابتن ستبحر كتيبته في غضون أسبوع. يؤسفني القول إننا فقدناه أيضا».

كان من المفترض أن نكون في عرض البحر بعد يومين لولا سوء الحظ هذا ولو لم تختر سفينتنا مع كابتن رحلتنا ضمن الحملة البحرية. بالطبع كنت متضامنا بكل جوارحي مع الجيش الذي كان يمر بأزمة عظيمة بلا شك، لكنني على الرغم من كل ذلك، تمنيت لو أنهم اختاروا سفينة غير سفينتنا، وعثروا على أحد غير قبطان رحلتنا. أوليست بعثتنا في كل تفصيل منها، على القدر ذاته، من أهمية قتالهم ضد تلك العصابات المجرمة. فإن كانوا هم يقاتلون دفاعا عن الحضارة ودورها فنحن من جانبنا نقاتل لحماية الصخرة التي تقوم فوقها تلك الحضارة، الكتب المقدسة ذاتها.

أخذ سائق العربة يتبرم من الانتظار، بسبب أمر مؤونة وعتاد رحلتنا المنكوبة. ما زاد حرجي أني لم أكن أريد أن أجعل من بيت ابنة حمي مستودعا لي وأنا نفسي ضيف عندها. لكن لم يكن هناك أمامي حل آخر، فلا يمكن ترك الحمولة في الشارع بطبيعة الحال. «ضعهم في قاعة الزوار». قلت وأنا أفكر في أن تلك أكثر غرف البيت اتساعا وأقلها انشغالا.

أرسل السيد تشايلدز وراء كل من رينشو والدكتور بوتر اللذين لم يتأخرا في القدوم. اقترحت أن نجتمع في قاعة الزوار حيث يمكننا أن نراقب العاملين. أي لحظة حزينة كانت ونحن نشاهد تدفق عتادنا إلى داخل القاعة وتكوّمه مشكّلا جبلا من الأراجيح الشبكية

وسروج الخيول وأعدادا لا تحصى من أخراج البغال تكفي جيشا بحاله. كل ذلك في تواتر حثيث أضفى على حديثنا راهنية مؤلمة.

«أخشى أننا لا نستطيع العثور على سفينة أخرى». أعلن السيد تشايلدز: «فهمت أن قيادة البحرية تضع يدها على كل ما يمكنها من السفن».

«أعتقد أنه بإمكاننا الإبحار بأحد المراكب البخارية. سمعت أنه أصبح بإمكانها الوصول الآن إلى أصقاع نائية كأستراليا». قال برو.

لم أتمالك نفسي من الإحساس بالغيظ، من هذا الرجل الذي لا يتردد بإلقاء الدروس علينا، ولم يمض على وجوده ضمن فريق البعثة أسبوع واحد بعد. «في حالتنا لا بد لنا من سفينة تقلنا وحدنا». وجدت نفسي أقول بصرامة: «سنحتاج للتنقل بين الجزر، وفي مجاهل تاسمانيا، بالإضافة إلى أن على السفينة تزويدنا بالمؤونة في تلك الأصقاع».

تثاءب رينشو: «ماذا عن سفينة أجنبية؟ لن يستولوا على سفن كهذه أيضا».

لم يكن غريبا عن طبيعة رينشو أن يبادر بأفكار غير موثوقة كهذه. رمقه تشايلدز ذو النزعة الوطنية المتكلفة بنظرة تأنيب على الفور: «لا، أن لا نجد سفينة على الإطلاق خير مما تقول. إنها بعثة إنجليزية مسيحية، لهذا يجب ألا تعتمد على رجال ذوي عقيدة زائفة. لا، إن لم يكن هناك حل عملي فلم يعد هناك سوى أن نؤجل موعد الرحلة».

كان علي أن أتدخل هنا: «إنْ أجّلنا فلن يكون موعد وصولنا إلى أرض الديمن في الصيف، الفصل الوحيد الذي يمكن خلاله الوصول إلى الداخل. علينا في هذه الحالة أن نؤجل عاما كاملا».

ارتبك حديثنا عند هذه النقطة. كلنا شعر أننا في ورطة، وصلنا إلى نقطة اللاعودة، وعلينا أن نبحر بشكل مُلحّ، لكنّ أيا منا لا يستطيع التفكير بوسيلة توصلنا إلى غايتنا. وهكذا وقفنا صامتين يلفنا الحزن ونحن نراقب القاعة تمتلئ بحمولتنا، ثم كيف فرغ السائق والعاملان من نقل المتاع الكبير وجعلوا ينقلون بعدها المواد الاستهلاكية الصغيرة التي اشتراها الرائد ستانفورد وهم يتصببون عرقا وقد نال منهم الإنهاك.

«مواد منتقاة جيدا». علق رينشو.

يبدو أن الرائد ستانفورد قد وجّه عناية كبيرة إلى عملية شراء المواد، من حيث الكم والنوع معا، إن لم نقل إنه قد بذخ في ذلك. حتى إني وجدت نفسي أفكر فيما إذا كان في عنايته الفائقة تلك، يبذل قصارى جهده ليتلافى سوء الطالع الذي صادفه مع ذلك البغل في بلاد الرافدين. مرت الأطايب من أمامنا. أفضل أنواع لحم الخنزير المحفوظ وسمك السالمون المغلف ومجموعات وخلطات متنوعة من آبردين وصناديق كاملة من زجاجات الشراب والنبيذ والشامبين. ليس هذا فقط، بل رأينا ما أكد لنا، أن كل ما نراه إنما كان يراد لنا أن نستهلكه ونحن مرتاحون ومرفهون. فبعد ذلك أتى دور الكراسي والطاولات وأغطيتها وما يلزم من أطباق وأدوات تناول الطعام. ولتكتمل الترتيبات في أفضل ما يمكن تبع ذلك صندوق كبير من السيجار الكوبي الفاخر.

«لا عجب أن هناك كل أخراج البغال تلك». تمتم رينشو.

تسلل بعض الرضى إلى وجه جوناه تشايلدز وهو يرى ما أنفق عليه: «لم أكن أدري، أن للرائد ستانفورد كل هذه المتطلبات في المؤونة».

«ربما كان من حظنا أنهم استدعوا الرائد، فهو لا يعرف شيئا عن أستراليا». قال برو.

صدمتني هذه الوقاحة من وافد جديد ينتقد عضوا خدم الفريق منذ البداية. وفاجأتني أكثر ردة فعل تشايلدز الذي لم يفعل أي شيء ليحد من تطاوله، بل وأكثر من ذلك بدا أنه يتفق معه في الرأي. «بالتأكيد هذا صحيح. لكن إن كنت ترى معي فإنه من الصعب علينا أن نجد خبيرا في أستراليا في عجالة كهذه».

انتقلنا بعدها إلى مناقشة أمر القبطان كموضوع لم نعطه ما يستحق من الأهمية إلا بشيء من التردد لكون البعثة ذاتها قد أصبحت موضع تساؤل.

«لكن هل نحن حقا بحاجة إلى مستكشف؟» سأل بوتر بلهجة مبالغ بها. «رجل خبير كهذا لا شك لن تكون له قيمة تذكر في تاسمانيا ذاتها. من الأفضل لنا أن نبحث ببساطة عن رجل تتوافر فيه سمات شخصية مناسبة. رجل صاحب إرادة وتصميم. حيوي وشجاع. قوي الجسد والعقل».

ربما كانت مخيلتي، لكن شعورا طاغيا داهمني مرة واحدة بأن بوتر لم يكن يرسم صورة مجردة في ذهنه لشخصية قائد البعثة، وإنما كان يقدم نفسه لهذا الدور. ربما كان حكمي متسرعا، إلا أني وخلال الفترة التي عرفته فيها اتضح لي أنه رجل حيوي، بل وذو طبيعة انفعالية. لم يكن لفكرة كهذه أن تروق لي إطلاقا. قد يكون رجلا ذا شخصية مثيرة للإعجاب على طريقته الخاصة، إلا أني لم أكن أرى فيه السمات المناسبة لهذه المهمة الجليلة. فمهمتنا لم تكن عادية في نهاية المطاف. إنها تشبه سعيا مقدسا للبحث عن مجاهل لا حدود لأهميتها. ومن الخطأ أن يُوضع على رأس

بعثة كهذه رجل لا أحد يعرف عنه شيئا، على الأقل فيما يخص مواقفه الأخلاقية. إلا أن قلقي في تلك اللحظة، كان حقيقة من السيد تشايلدز، الذي كان يتحمس بسرعة وبشيء من الخفة. ماذا لو خطر له أن يكلف الدكتور القيادة؟

هنا بادرت بالاقتراح: «من المؤكد أن علينا البحث عن رجل ذي إيمان مؤكد بالمبادئ التي تنطلق منها مغامرتنا، أحدٍ ما ذي قيم أخلاقية معروفة، ولا بد لي هنا من التأكيد على أني لا أبغي من كلامي هذا اقتراح نفسي. أبدا، لو فعلت هذا لتناقضت مع طبيعتي التي تنفر من أي سعي وراء المصلحة الذاتية. لم تخطر لي هذه الفكرة على الإطلاق. أنا فقط أحاول أن أشرح السمات الواجب توفرها في قيادة البعثة».

«ربما عالم جيولوجيا». تمتم رينشو بشكل غير مبرر ناقلا عينيه بيني وبين بوتر بطريقة مستفزة.

التفت جوناه تشايلدز نحوي، وبدا وكأنه تفاجأ بعض الشيء؛ كأن خاطرا ما قد جال في ذهنه للمرة الأولى. «ربما ترغب أنت في التصدي لهذه المهمة يا فيكار؟».

وهكذا كان الأمر. بشكل مفاجئ، ومن دون أن أسعى وراءه، وجدت نفسي هكذا، أواجه أكثر المسؤوليات تشريفا وصعوبة في حياتي. لم يكن الاقتراح متوقعا بالنسبة لي على الإطلاق، إلى درجة أربكني فيها الذهول. كيف لي أن أستوعب الأمر بينما أنا على يقين، أنه لا بد من وجود إنسان آخر أكثر ملاءمة لهذه المهمة. لكن أين هو؟ وخطر لي لحظتها أنني مهما اعتبرت نفسي غير مؤهل، فمن المؤكد أن لدي سمات تجعلني شخصا ذا فعالية كبيرة في هذا الموقع. فأنا لدي معرفة وافية بالكتب المقدسة وبالجيولوجيا

ودراية متواضعة بشؤون العقل البشري. أي امتحان في وقت حرج! وقف الجميع ينظرون إلي ينتظرون إجابتي. هل أستطيع؟ وهل أوافق؟ وهنا تذكرت الحلم الذي رأيت فيه ذلك الصوت يناديني: تعال.. تعال هنا يا فيكار..

ثم أتت إجابتي بصوت هادئ: «إن كنتم تريدونني أن أقود هذه البعثة فأنا أوافق».

ارتسمت على وجه تشايلدز ابتسامة عريضة: «برافو فيكار... برافو».

«لكن ما زلنا بحاجة إلى سفينة». قال رينشو بجفاء.

كان الحل كما جرت الأحداث أقرب مما كنا نظن. كان وكأننا لا نواجه هذه العقبة أمامنا، إلا لننال بتجاوزها ما يعيننا على ما يليها من عقبات. أتى الحل من زوجتي نفسها ولا أحد غيرها. دخلت علينا القاعة فجأة وهي تحمل قبعتها وعلائم المفاجأة بادية على وجهها، لما رأته من الحمولة المتكومة. «ما الذي يجري هنا؟» ولم أكد أبدأ في شرح ما نحن فيه من أزمة حتى لوحت بيدها مقللة من شأن كلامي، وكأنها تريد أن تقول إنه ما من شيء هناك أكثر غباء مما أتفوه به.

«لكن هناك سفينة معروضة للتأجير في إعلان في جريدة هذا الصباح». فوجئنا بكلامها. «تحمل اسما جميلا على ما أذكر. أعتقد أن اسمها العفة».

الفصل الثاني
قبل سبعة وثلاثين عاما
جاك هارب 1820

لـولا الريـاح التـي غـيرت اتجاهـها بلطـف باتجـاه الشـمال الشرقـي لمـا كان لـكل ذلـك أن يحـدث، ولكنـت لا أزال حتـى الآن في قـارب التجديـف الصغـير. هـذا مجـرد خاطـر، فقـد انتهـى موسـم التخزيـن، وبـدأت المؤونـة تنفـد مـن الجزيـرة. لذلـك كان عـلي أن آخـذ المركـب الكبـير وأمـضي إلى جـورج تـاون بحثـا عـن ذلـك النشـال الشـاذ، بيـل هاسـكينس. كان المركـب زورقـا صغـيرا بـشراع كبـير، إلا أن نِـد كان في غايـة الغبـاء وهـو يمسـك بـذراع الدفـة في المؤخـرة. ورغـم أنـه كان عـلي أن أسـتحثه بـين حـين وآخـر، فـإن الرحلـة، لم تأخـذ منـا أكـثر مـن يومـين. كانـت جـورج تـاون في تلـك الأثنـاء تبـدو في حالـة جيـدة، حيـث يمكنـك الوثـوق بأهلهـا بشـكل عـام، فهـي بلـدة صغـيرة، لكنـك مـع كـثرة الغربـاء في هـذا الوقـت مـن العـام، فإنـك لا تـدري مـن يـأتي ومـن يذهـب ولا مـع مـن تتحـدث، وآخـر مـا كنـت أريـده، هـو أن أعـود مـرة أخـرى لـزي السـجناء بعـد كل مـا واجهنـا مـن عنـاء في الهـرب منـه. لهـذا لم نتوقـف في الطريـق وذهبنـا مبـاشرة إلى هاسـكينس. مـضى عـام عـلى وجودنـا هنـا آخـر مـرة، لذلـك ألقينـا نظـرة متفحصـة عـلى

كل شيء. كانت لديه مجموعة رائعة من الزجاج والرخام من ألوان مختلفة لم أرَ مثلها منذ كنت فتى في دوركينغ في الريف. وجدت أيضا شيئا من أجل خدي الذي جرحته بسكين التقشير وتركت عليه ندبة كبيرة لم تكن لتشفى لولاه. طلبت من نِد أن يبقى صامتا لكونه غبيا في التجارة وبالكاد ينفع في التجديف، وتمكنت بما لدينا من توفير أن أحقق صفقة جيدة وأشتري مخزونا كافيا من الطحين والشاي والروم بالإضافة إلى دواء خدي. بقي لدينا بعض القطع النقدية أيضا، وفكرت بزيارة الحانة طمعا ببعض الوقت في أحضان لِيْل التي تعمل هناك. لكن نِد حذرني أننا قد نلفت الأنظار ويُكشف أمرنا، فعدلت عن خططي ومضينا مباشرة لصعود المركب.

عادة ما تكون رحلة العودة من جورج تاون صراعا حقيقيا مع الرياح الغربية، لكن في هذه المرة كان الحظ إلى جانبنا، وما إن أقلعنا حتى هبت الرياح باتجاه الشمال الشرقي ومضينا معها. لم يكن لرحلتنا أن تكون أكثر يسرا، وفي غضون أيام ثلاثة كنا على مقربة من الجزيرة. هناك، وبينما الريح تهب نشطة أخذت أفكر بشيء أتنعم به إلى جانب الطحين والشاي والروم. وباعتباره جبانا رعديدا، لم ترق الفكرة لنِد الذي بدا عليه الخوف مما يجول في خاطري. أخذت أتحايل عليه بالكلام، وأطلق عليه صفات وأسماء تستميله إلى جانبي، ووعدته إن وصلنا إلى ما نبغي أن يحصل على واحدة لنفسه. كان دائما من السهل استمالته بالكلام، وقد فعلتها هذه المرة وأقنعته، لكنه دفع ثمن ذلك غاليا كما حدث فيما بعد.

وهكذا تابعنا مسيرنا مجتازين الجزيرة ثم انعطفنا جنوبا في محاذاة الساحل الذي كان في معظمه مشجرا، حتى رأيت الدخان

يتصاعد من نارهم. واعتبارا من هذه النقطة، كان علينا أن نكون حذرين، فأخذت الدفة بنفسي واتجهت بالمركب مقتربا من الشاطئ كي نكون أقل انكشافا. لم يكن من السهل أن نرسو على اليابسة لوعورة المنطقة، لكننا استطعنا في النهاية، أن نصل بالمركب إلى خليج صغير على بعد ميل أو ميلين منهم. وهناك فعلها نِد. فبينما كنا نخفي المركب في دغل صغير عادت إليه مخاوفه، ولم يكن من المجدي محاولة إقناعه مرة أخرى بالكلام، فتركته لشأنه ومضيت وحدي متخفيا بين الأشجار. ورأيتها، تلك العاهرة، تقفز في الماء من صخرة بحثا عن المحار عارية لا يسترها شيء، انحناءات بطنها الناعم وجسدها المكشوف كأنهما جاهزان بانتظاري.

عدت بعد ذلك إلى نِد والقارب بانتظار أن يحين الوقت المناسب. لم يكن باستطاعتنا أن نوقد النار بالطبع، وكانت تلك الليلة باردة. نهضت قبل الفجر ومضيت بهدوء مسترشدا بضوء القمر إلى أن رأيت نارهم. كانوا هناك، حوالي الثلاثين ينامون على أقرب مسافة ممكنة من النار، من دون أن يحترقوا، وكأنهم يخشون ما قد يخرج لهم من الظلمة. كتمت ضحكتي أمام هذا المشهد واقتربت من تلك الجنية التي رأيتها من قبل. حملتها بين ذراعي لكنها قاومت بشراسة وأخذت تصرخ وتعض وتضرب كحيوان ضارٍ، مما أثار الآخرين الذين اقتربوا وبدؤوا يتجمعون حولي. كنت أتوقع ذلك. أطلقت رصاصة على أحدهم، فأصيبوا بالذعر وتراجعوا، لكن ذلك لم يجعلها تتوقف عن المقاومة ومحاولة الإفلات. حتى عندما وضعها نِد وأنا في المركب، فإنها لم تهدأ، بل ازدادت شراسة وعنفا إلى الحد الذي خفت أن تقلب فينا القارب، وتُضيع ما لدينا من مؤونة. قلت لِند، لدينا مقاتلة حقيقية هنا. أجل كانت بذلك

القدر من العنف، فحتى عندما وصلنا إلى بيتي لم أستطع وضعها معي، بل كان علي تقييدها بالسلاسل، وكانت تضرب وتخرمش عندما أقضي وطري منها. أرادها نِد أيضا، لكني قلت له لا، أنت لم تفعل شيئا للفوز بها.

فوجئت بعد بضعة أسابيع أن ثلاثة براميل من الطحين الجديد قد فسدت. مشكلة كبيرة. لن يكفينا ما تبقى. تذرّع نِد بأنه متوعّك، لذلك كان علي أن أذهب بالمركب إلى جورج تاون لتعويض ما فقدناه.

تأوه بيل هاسكينس كما توقعت وقال إني لا بد أني قد تركت الرطوبة تتسلل إلى الطحين، وهذا ما جعله يفسد. أمر لم يكن صحيحا البتة. أعطاني في نهاية المطاف برميلين لم يكونا كافيين، لكنهما أفضل من لا شيء، وقد خمنت أنهما سيكفيان لسد الرمق على الأقل. تفرغت بعد ذلك لما كنت أنوي فعله، أن أقضي ليلة مع امرأة الحانة لِيل، وقد فعلت ذلك بالفعل رغم ما فيه من مجازفة. لم أعد إلى الجزيرة إلا بعد انقضاء عشرة أيام.

عرفت أن شيئا ما قد حدث عندما لم أرَ الدخان يتصاعد من المدخنة. ولم أتأكد إلا حين وصلت إلى الكوخ حاملا أحد براميل الطحين. هناك رأيت نِد ملقيا على الأرض قرب الباب، بنطاله تكوم عند عقبيه وقد تهشم رأسه كيقطينة بحجر لطخته الدماء ألقي على مقربة. لا بد أنه كان مُلقى هكذا منذ وقت طويل، إذن فإن الطيور كانت قد التهمت الكثير من جسده، خصوصا وجهه وأمعاءه. طبعا لم يكن هناك أثر للجنية ولا لقارب التجديف.

بدا لي الأمر واضحا، ولم يكن من الصعب أن أكتشف ما الذي حدث. لقد أغوته. كانت قد تعلمت بعض الكلمات بينما كان

يراقبهـا، ولم يكـن أسـهل مـن غوايـة ذلـك الأحمـق. وعندمـا اقـترب منهـا وغلبتـه شـهوته اسـتطاعت إقناعـه بـأن يفـك قيدهـا لتتمكـن مـن الحركـة بسـهولة. وهكـذا، عندمـا كان منهمـكا في لـذة الحصـول عـلى مكافأتـه هشـمت رأسـه بذلـك الحجـر. لاحظـت وأنـا أدفنـه، أن عضـوه قـد تـأذى بشـكل كبـير فعرفـت أنهـا هـي مـن فعـل ذلـك، وليـس الطيـور.

لم أعـثر عـلى قـارب التجديـف الصغـير. أمضيـت ثلاثـة أيـام في البحـث عنـه في كل مـكان يمكـن أن يرسـو فيـه مـن دون جـدوى. لا بـد أنهـا قـد حطمتـه أيضـا.

كان موسـما جيـدا لا أذكـر أنـه أتى أفضـل منـه، وأمِلـت في شراء قـارب تجديـف صغـير. لا يمكننـي البقـاء دون واحـد، عـلى سـبيل الاحتيـاط، فمـن يـدري كيـف تسـير الريـاح هنـا. بـل ربمـا أحصـل عـلى جنّيـة أخـرى أيضـا، لكـن أقـل شراسـة في القتـال هـذه المـرة.

بيفاي، 1824 - 1828

حصل مرة أني اكتشفت تلك الدهشة عندما كنت صغيرا أركض على الدوام متجولا هنا وهناك والعالم بالنسبة لي لا يزال ألغازا لم تجد حلولا بعد. حتى الآن لا يزال ذلك الوغد يثير بين جوانحي أكثر المشاعر رقة. كان لأشخاص آخرين أن يضلوا السبيل بعد كل ما في تلك التجربة من أذى ويفقدوا القدرة كليا على أن يهتدوا إلى أنفسهم من جديد، لكن لا، أنا لست من هذا النوع. فلقد تمكنت من استيعاب ما جرى، إذ إن الاحتمال والصبر من خصالي ومهاراتي الخاصة.

حدث كل شيء قبل زمن طويل مضى، قبل العديد من الأصياف، وقبل أن يتغير كل شيء ويغدو من الصعب تصديق أن من أتحدث عنه إنما أنا نفسي. لماذا؟ لأنني لم أكن وقتها أعرف هذه اللغة التي أتحدث بها الآن، إلا أن ذاكرتي كانت تعمل جيدا. كان اليوم الذي حمل لي تلك المفاجأة يوما من أيام الصيف الحارة، الحشرات تلسع والجميع يذهب إلى بركة ماء واسعة لكنها ضحلة لا تكاد تغمر القدمين. تجمع الأولاد الكبار وأخذوا يتراشقون ويلعبون في الماء لطرد الذباب والحشرات والحر عن أجسادهم. تملكتني رغبة قوية في الانضمام إليهم واللعب مثلهم بالماء. وهكذا وجدت نفسي

أنطلق راكضا نحو البركة كالريح. لكن الأرض تحت الماء كانت زلقة فتزحلقت قدمي وسقطت مرتطما بعنف. وعندما نهضت بعدها من الماء متلمسا ركبتي المصابة حدث ذلك الشيء المقيت. فهناك في الماء رأيت كائنا غريبا يشبه المسخ، وجهه عادي، وهذا بالتحديد ما جعله أكثر رعبا لأن شعره كان غريبا وفظيعا. لم يكن لون شعر على الإطلاق، بل هو لون باهت كعشب يابس بعد يوم صيفي قائظ. تحركت فاضطربت التجاعيد في وجه المسخ.

خلت لوهلة أن كل من في البركة ظهر له مسخ خاص به، لكني عندما نظرت حولي رأيت الجميع منقلبين رأسا على عقب. رأى مونغانا كل شي وصرخ «فظيع»... كان مونغانا هذا ألد أعدائي في تلك الأيام واسمه يعني ذبابة المستنقعات. اسم على مسمى لأنه لم يكن يحلو له سوى أن يلدغ ويعض، وكان ضئيل القامة، يكبرني بعامين ويكرهني منذ أن عرفته. كراهيته كانت بالنسبة لي بداهة تشبه وجود الهواء والأشجار، وكان من عادته أن يلاحقني على الدوام متحينا الفرصة للغدر بي بلكمة قوية أو ركلة. لهذا لم أكن أذهب إلى مكان دون عصاي لأكون جاهزا له في أي لحظة. «هل يعجبك ما ترى؟ فظيع! » صرخ بصوت كله حق ثم أخذ برشق الماء بطريقة لا تقل حقدا. وعندما انضم إليه الآخرون تركتهم ومضيت.

عدت إلى البركة بعد أن تركوها لأرى فيما إن كان المسخ لا يزال هناك. وما إن وصلت إلى الماء حتى ظهر وهو ينظر إلي بعينيه المخيفتين.

كانت أكثر الألغاز غموضا بالنسبة لي في تلك الأيام ما حدث لأبي وأمي. كل الأولاد كان لديهم آباء وأمهات سوى من فقد والديه

بسبب الموت، إلا أنا، فلم يكن لدي حتى أي ذاكرة عنهما. أما عندما كنت أسأل عنهما فلم أكن أتلقى إجابات، بل نظرات ساخطة، وأحيانا لكمات موجعة. «لا تهتم بذلك». هكذا كانت جدتي تقول لي بعينين كعيون القطط. كانت غالبا ما تكون غاضبة مني، لكنها كانت صديقتي وعائلتي ومن يحميني، ورغم لطفها معي إلا أنه لطف مشوب بالكراهية. هكذا كانت طريقة جدتي الخاصة. هي من كان يعطيني اللحم عندما نجلس حول النار، تلقمني إياه في فمي لكنها تفعل ذلك بوجه مقطب. «لا أدري لماذا علي أن أتجشم عناء إطعامك؟ أنت لا يأتي من ورائك غير المتاعب». وبنفس الطريقة كانت دائما تلتقطني عندما أقع ونحن نسير، تضعني على كتفها ثم تلكزني بغيظ في ساقي. كنت في بعض الأحيان أكرهها بشدة وأبتعد عنها لأنام وحدي بعيدا عن النار. لكنها كانت عائلتي، ولم أكن أملك سوى أن أعود إليها في النهاية، وعندما أفعل لا تقول لي أي شيء. فقط تطعمني كما كانت تفعل دائما.

لا ألومها الآن بالطبع، بعد كل تلك السنوات، وأتفهم الكراهية التي كانت تشوب لطفها. عندما نكون صغارا لا نفهم الأمور الشاذة، بل نتقبلها كما الهواء الذي نتنفسه.

«انسَ أمك. لا تفكر فيها أبدا». هكذا أجابتني عندما استثرت غضبها بإلحاحي في السؤال مرة، وغالبا ما كنت أفعل ذلك. لم أكن أريد الاستسلام وتتملكني رغبة بالمضي بعيدا. «ذهبت، وكفى». هذا كل ما حصلت عليه. لكنني بالطبع لم أكن أستطيع النسيان. سألت تارتوين الذي كان صديقا قريبا من جدتي، لكنه ليس من عائلتي. لم يكن لديه أبناء، بل بنات فقط، ولسبب ما رأيت وقتها

أن هـذا سـبب كونـه بدينـا بعـض الـشيء وعينـاه بليدتـان. لكنـه كان ذكيـا عـلى أيـة حـال ولم يكـن فـظ الطبـاع إلا عندمـا يظـن أنـه تعـرض للخـداع. لذلـك كان الجميـع يصغـي إلى مـا يقـول، وكان هـو غالبـا مـا يصغـي للآخريـن أيضـا. لم يكـن ينظـر إلي كذنـب صغـير كـما يفعـل الآخـرون، ولا يتأفـف مـن وجـودي كـما تفعـل جـدتي. علمنـي أشـياء كثـيرة رائعـة، وعندمـا كان يـراني أتعـرض للكـم والـركل مـن مونغانـا وغـيره مـن الأولاد يخلصنـي مـن بـين أيديهـم ويضربهـم بالعصـا. لكـن حتـى تارتويـن كان يصبـح غريبـا عندمـا أسـأله عـن أمـي. تتغـير ملامـح وجهـه كمـن يـرى غيومـا سـوداء في الأفـق. «ذهبـت في البحـر». هـذا كل مـا كان يقولـه دون أن ينظـر إلي كعادتـه، بـل يديـر وجهـه بعيـدا عنـي. الأسـوأ كان عندمـا أسـأله عـن أبي. تضيـق عينـاه ويقطـب. «ليـس لـك أب. لم يكـن لـك أب يومـا. توقـف عـن إزعاجـي بهـذا الهـراء. أمـك ماتـت. ماتـت، ولـو كانـت حيـة لعـادت».

لكنـي لم أصدقـه تمامـا. لا، لم أصدقـه، وأخـذت منـذ ذلـك اليـوم كلـما عبرنـا بشـاطئ البحـر أنظـر إلى الأمـواج وأتخيـل أمـي تخـرج مـن بينهـا وتمـشي نحـوي، طويلـة وجميلـة وطيبـة أكـثر مـن كل الأمهـات. تحمـل في يدهـا سـلة مليئـة بأصنـاف عجيبـة مـن الطعـام جمعتهـا مـن حيـث كانـت تقيـم وراء البحـار، أسـماك كبـيرة كالحجـارة لكـن بطعـم حلـو كالعسـل وفواكـه بزرقـة البحـر. تقـدم كل ذلـك لي برقـة وحنـو لم يبـدرا يومـا مـن جـدتي. كانـت في بعـض الأحيـان تصطحـب أبي معهـا ولكـن بملامـح غامضـة لا ترسـم لـه صـورة أسـتطيع رؤيتهـا. هكـذا الأحـلام لا تطاوعنـا ولا تـأتي بمـا نريـد رغـم أنهـا لنـا وتخصنـا. وعـلى الرغـم مـن محـاولاتي الكثـيرة لرسـم شـكل لـه، إلا أني لم أسـتطع مـرة أن أرى ذراعـا لـه أو سـاقين، وظـل دائمـا يشـبه غيمـة لهـا وجـه فقـط.

لم يكن هناك من عدو لأحلامي سوى العفريت الصغير مونغانا وأمه باجرلي. كانا لا يوفران جهدا في إلحاق الأذى بي. باجرلي تستعدي الآخرين ضدي بسرد أكاذيب سخيفة عني، كأن تقول لهم إني ضربت أطفالهم بينما كانوا مشغولين عنهم، أو تخبرهم أني استنزلت اللعنات عليهم مما جعلهم يتعرضون للمكائد. لو كنت سمعتها وهي تردد تلك الأقاويل الشنيعة لصرخت بكل ما فيّ من قوة أنها ليست سوى كاذبة حقيرة وأنهم يجب ألا يصغوا لها. كانوا غالبا يصدقونني، ولكن ليس دائما. لم يصدقوا كل ما أقول في أعماقهم. ولطالما أحسست بنظراتهم المصوبة نحوي باستغراب. مونغانا كان الأسوأ، ولم يكن يتورع عن ترديد أي شيء يمكن أن يسبب لي المصائب ويفسد علي أحلامي.

«أين أمك أيها الشاذ؟ ألا تدري؟ سأخبرك أنا. عندما رأت كم أنت قبيح لأول مرة حاولت أن تقتلك ثم هربت بعيدا بحثا عن مكان تموت فيه».

«هذا ليس صحيحا. أمي رحلت في البحر. تارتوين أخبرني بذلك».

لكن مونغانا حقود ولعبته المفضلة أن يتكلم كمن يقطر السم في أذنك. «تارتوين يقول ذلك لكي لا تبكي».

حاولت فيما بعد أن أطفئ تلك الكلمات بإغراقها كمن يتبول على نار. لكنها عادت وتكاثرت حولي لتنهشني. وعندما عدت للجلوس على شاطئ البحر لأتخيل أمي وأبي فسد كل شيء. نعم، ستظهر أمي من بين الأمواج طويلة وجميلة كما كانت دائما، لكنها لن تبتسم لي هذه المرة وستتجاوزني بوجه جامد كالحجر كأنها لا تريد أن تراني أو تعرفني. كم كان ذلك مؤلما. لكن

الوقت سيمر، وأنا كما قلت سابقا صبور. فنون الصبر والاحتمال اختصاصي. احتملت مونغانا، وفي أيام كان الحظ يحالفني وأفلح في تسديد بعض اللكمات القوية إليه. ومع تعاقب الأيام قل تفكيري وانشغالي بلغز ما حدث لأمي وأبي.

كنا نقيم في أمكنة بعينها أحيانا ونتنقل هنا وهناك في أحيان أخرى. في الأيام الحارة نقيم بين الأدغال ويقوم تارتوين مع الرجال الأخرين باصطياد الطرائد لنشويها على النار ونأكلها. وعندما تهب الرياح الباردة ويتساقط الثلج ويصبح الدغل كقطعة جليد كنا نذهب صوب البحر بأمواجه العالية وصخبه، حيث نبني أكواخا صغيرة بمحاذاة الأشجار لننعم بالدفء. هناك كنا نأكل أسماك الإنكليس أو الفقمة إن وجدت.

رويدا رويدا بدأت ذاكرتي تستوعب الأمكنة التي كنا نتنقل بينها، فأخذت أتعرف على تلك التلال والجبال، بل وعلى تلك النقطة التي ينتهي عندها العالم أيضا. كنت كمن تتكشف أمامه الألغاز على مهل. أخذني تارتوين إلى التلال حيث أراني كيف يضع الورود على رأسه ليصبح أجمل. علمني كيف أتنبأ بأحوال الطقس، فقط من تلك الهالة الضبابية حول القمر أو من لون الغيوم، وكم كان ذكيا في توقعاته إذ إنه لم يخطئ مرة واحدة. علمني أيضا كيف أصنع سهاما حادة بواسطة النار وأسناني فقط. حادة حتى لتكاد تنغرس في الصخر، وعلمني كيف أصوبها أيضا على الرغم من أني كنت صغيرا على رمايتها. تعلمت أيضا كيف أقتفي آثار الحيوانات مما تتركه وراءها من آثار، وكيف أعرف أي شجرة تسلق حيوان الأبوسوم من شكل الخدوش التي تتركها مخالبه على الجذوع. أما أكثر الكائنات

قبحا وفظاعة فكان النمر التاسماني برأسه الطويل المتدلي وجلده المخطط. كان عدونا اللدود، يقتلك على الفور إن لم تسارع وتصبه بسهمك، وكان يحب التهام الأطفال. غالبا ما كنا نصادفه، لكنه يفر ويمضي بعيدا عندما يرانا كثُرا. ليس هذا وحسب، إنما تعرفت أيضا على عفريت الرياح، وهو كائن طويل بشع، يأتي في الليل كعاصفة ويزمجر بصوت يشبه جذوعا تتكسر. يحملق بنا ونحن نائمون وما إن يصادف أحدا بعيدا عن النار حتى ينقض عليه ويصيبه بالجنون. لهذا كنا حريصين على ألا نبتعد عن النار ونبقى مجتمعين. نجلس هناك في الظلام بعد أن نفرغ من الأكل ونستمع إلى تارتوين يروي لنا حكايات لا أجرؤ على الإفصاح عنها حتى الآن. حكايات عن الشمس والقمر وعن أصل كل الكائنات، من الإنسان إلى الولب[3] والفقمة والكنغر وغيرها. حدثنا أيضا عمن يقطن بين الصخور وفي الجبال والنجوم وكيف وصل كل إلى موطنه. صرت أمشي وأكتشف ما حولي كأني أستمع إلى حكايات حتى غدا العالم أليفا كأحد أفراد عائلتي.

كنا نصادف قبيلة تاركينر التي تسكن جنوبا في طريقنا أحيانا. كانوا بمثابة أصدقاء لنا، وثلاث من نسائنا أتين منهم. إن صادفناهم على تخوم العالم نتبادل الأخبار ثم نخيم معا ونقضي الوقت في المسامرات ونتبارى في الرقص لنكتشف من الأفضل، نحن أم هم. كنا دائما نفوز.

أما قبيلة روينغين التي تعيش في الشمال فكانوا دائما أعداءنا، منذ أن وجدت ذاكرتنا. لئيمون وغدارون لا تأمن شرهم لو أدرت

(3) حيوان صغير يشبه الكنغر يعيش في غابات أستراليا. (المترجم).

ظهرك لتتبول على جذع شجرة. أخبرنا تارتوين عن حروبنا القديمة معهم وكيف أنهم لم ينتصروا في معركة واحدة إلا بالغش والخداع. وحتى زمن قريب كانت هناك معارك معهم، آخرها حين أصيب عم غونار بأحد رماحهم في ساقه. كنت صغيرا وقتها، ولا أتذكر ما حدث. كنا نتحاشى الذهاب إلى تلك الجهة من العالم حيث يعيشون، وكنا عندما نقترب نأخذ حذرنا ونمر بصمت. بالطبع لم نكن نخاف من الروينغين، فهم جبناء، لكنهم يفوقوننا عددا إذ إنهم اشتهروا بكثرتهم. حدث مرة أننا وصلنا إلى تخوم عالمهم ورأيتهم هناك على شاطئ البحر بأعدادهم الغفيرة يجلسون ويأكلون سمك الإنكليس. رأونا لكنهم تظاهروا بأنهم لم ينتبهوا لوجودنا، ونحن من جانبنا تجاهلناهم ومضينا بهدوء كما طلب منا تارتوين. وهكذا لم يحدث بيننا قتال تلك المرة. لكن غونا قال إنه من الجنون أننا لم نغتنم الفرصة ونُرْدِهم برماحنا قتلى. كان مونغانا الأكثر مهارة في القتال وتحدث كأن الرغبة بالقتال تملأ كيانه وتبحث عن منفذ لها. لكن الجميع كان يعرف أن تارتوين على حق فهم يفوقوننا عددا.

تعاقبت الأيام والسنون. طالت قامتي وبدا لي أنه لم يعد من ألغاز كثيرة في العالم. لكن لا، فعلى الأقل نصف تلك الألغاز ما زالت تتربص بي كنمر يتلمظ بانتظار فريسته.

في أحد الأيام الدافئة أمطرت لكن دون رياح فانهمرت قطرات المطر كالحصى فوقنا. مكثنا في الدغل نستمتع برائحة الدخان المتصاعد من شواء الطريدة التي غنمنا بها بعد أيام طويلة لم نأكل فيها سوى الجذور. ثم فاجأنا مونغانا الذي ذهب ليصطاد وهو يصيح عائدا: «شيء ما قادم نحونا». شيء ما؟ إن كان هناك

شيء ما قادم ولا تعرف ما هو، فليس من الحكمة في شيء الانتظار حتى يأتي وينقض عليك. أشار تارتوين إلينا أن نختبئ فوق الأشجار فسارعنا إلى الدغل حيث وفرت لنا الأوراق مخبأ نستطيع الرؤية من خلاله ونبقى محجوبين عن الأنظار. سمعنا بعد هنيهة صوت تكسر أغصان فعلمنا أن ذلك الشيء لا يمكن إلا أن يكون فظيعا. لم يكن شيئا واحدا، بل ثلاثة مخلوقات لم أرَ في حياتي أكثر غرابة منها. كائنات، لا تشبه الرجال إلا في الشكل، جلودها بلون الحجارة، فضفاضة تهتز على ما تحتها وأقدامها بشعة، ضخمة جدا ومن دون أصابع. والأكثر بشاعة وجوههم التي كانت بلون اللحم النيئ. تقدموا تحت المطر الذي اشتدت غزارته حتى كادت الأشجار تتقصف، وما إن رأوا النار ولحم الشواء حتى توقفوا لوهلة ثم هرعوا إليها بسرعة ونهم. نظرت إلى تارتوين ففوجئت بالغم يخيم على قسماته، ونظرت إلى الآخرين فوجدتهم غارقين في الكآبة أيضا. أي لغز فيما يجري! «من هؤلاء؟» همست والفضول يكاد يقتلني.

انفجر تارتوين فجأة غاضبا كما لم أره من قبل في حياتي. «موتى». قال بحدة كأني تفوهت بما يسيء إليه. «موتى نهضوا من قبورهم». عندما يصبح كل شيء غريبا دفعة واحدة فإن أي لغز إضافي يكاد يبدو لنا مألوفا. خمنت أن هذا ما يحدث للموتى. كل شيء مخيف لكنه مثير للفضول. راقبت أولئك الموتى. لا يبدو أنهم سعداء في موتهم، بل قلقون كأن فيضا من الألم والعذاب يضطرم في دواخلهم. كانوا جياعا أيضا، لم يبالوا بمعرفة من أوقد النار أو أعد الشواء إنما انقضوا على اللحم، لحمنا، وأخذوا ينهشون بضراوة وهمجية قطعا كبيرة لم تنضج بعد. لا بد أن الموت أصابهم بكل هذا النهم، خمنت وأنا أراقبهم بذهول.

بدا لي أني أمام ألغاز كثيرة. فلماذا لم يحدثني تارتوين عن تلك الأشباح، أنا الذي اعتقدت أنه أخبرني كل شيء. ثم كيف للأشباح أن تموت وهي ميتة أصلا؟! وبينما أنا مستغرق في حيرتي والمطر ينهمر والآخرون يراقبون كيف تأكل الأشباح طعامنا انتبهت على حين غرة إلى أم مونغانا ترمقني بنظرة حقد أكثر حدة من حراب الرماح. ينبئك حدسك أحيانا أن شيئا ما كريها على وشك الحدوث، وبالفعل ما لبثت أم مونغانا أن أشارت إلي بإصبعها: «كل شيء بسببه». نظر الجميع نحوي وقد ازداد وابل المطر غزارة وارتجفت أوراق الشجر. «ماذا تعنين؟ لم أفهم شيئا». سألت فاستغرق الجميع في صمت مطبق ولم ينطق أحد ولو بهمسة، إلا أم مونغانا فقد صوبت نظرة مشبعة بالتقريع نحو تارتوين وقالت: «أخبره». لم نعتد أن ينظر أحد إلى تارتوين بهذه الطريقة. توقعت منه أن يرد على كلماتها الوقحة بلكمة أو بغضب على الأقل، لكنه صمت وطأطأ رأسه كمن ينوء تحت آلام الصداع. جدتي وحدها تكلمت بصوت يشبه الزمجرة: «دعيه وشأنه». لكن ما من فخ أكثر إحكاما من لغز يواجهك، فحتى لو علمت أن الجواب سيجلب لك الشقاء فلن تزداد سوى فضول ورغبة في الكشف والمعرفة. «أخبرني».

أطلق تارتوين زفيرا طويلا وتهدل جسده في جلسته كأنه كتلة لحمية منتفخة. «أبوك كان مثلهم.. شبحا».

أي لغز محير هذا! كيف لي أن أكون ابنا لشبح ميت؟ إلا أن نظرات الآخرين أنبأتني بأن ذلك لا بد أن يكون صحيحا. نظرات تغيرت وأخذت ترمقني كأني أحد المشردين أو فرد من قبيلة الرويغين. فاجأتني لحظتها ذاكرتي بتلك الظهيرة البعيدة ونظرة

المسخ إليّ في البحيرة الضحلة. أجل، كان شعر شبح ووجه مسخ ما رأيته ذاك اليوم. أي حقيقة تتكشف لي الآن؟ وأي أمر رهيب تنبئني به ذاكرتي! هكذا انقضى كل ذلك الزمن وأنا هنا مكاني آكل وأتنفس، تتعاقب علي السنون وأنا أتوهم أني أعرف كل شيء! والآن، بلمح البصر، كمن يتزحلق ويسقط أكتشف أن كل شيء من أيامي وعمري لم يكن سوى سذاجة مقيتة. تملكني الغضب فجأة، وخصوصا من تارتوين الذي يفترض أنه صديقي الوفي.

«لماذا لم تخبرني؟» لم أهمس، بل سألته بصوت من لا يبالي بأن تنقض علينا الأشباح وتلتهمنا كلنا. لم يجب تارتوين، بل بقي صامتا يحدق في خنفساء رمادية تزحف على الأرض. «كذبت علي. قلت إنه لا أب لي».

أغمض تارتوين عينيه: «لم يكن كأب. لقد أتى في الليل مرة واحدة فقط، اختطف أمك وذهب بها بعيدا». رأيت لحظتها جدتي تشير بإصبعها العظمية الطويلة إلى وجه تارتوين وتقول: «أنت تركته يسرقها مني. كلكم فعلتم ذلك». هل تعلمون أنهم جميعهم شعروا بالعار، فقط لأنهم لم يقتلوا أبي في ذاك اليوم البعيد. وحدها أم مونغانا لم تفعل مثلهم واكتفت بحقدها. «زوجي قاتلهم وحده. كان شجاعا وكنتم جبناء. لا تنسوا ذلك». نظرت إلي وتابعت: «لكن الأشباح قتلوه بأصواتهم التي تصم الآذان». كان مونغانا يبكي في تلك الأثناء.

وهكذا عرفت لماذا كانوا يكرهونني طيلة ذاك الوقت. أبي هو الذي قتل والد مونغانا. كان ذلك مريرا.. مريرا للغاية، لكن كان علي أن أشقى بالمزيد من المعرفة. «ماذا حدث لأمي؟».

هزت جدتي بكتفيها وأجابتني مقطبة: «هربت من جزيرة الأشباح وعادت إلينا. لكن الغضب تمكن منها وجعلها في قلق

دائـم. وفي أحـد الأيـام بعـد أن وُلـدتَ ذهبـتْ لتقتلـه. حاولـت منعهـا وإقناعهـا بالبقـاء معنـا، لكـن أمـك لا ينفـع معهـا أن تخبرهـا مـاذا تفعـل».

هنـا رمتنـي باجـرلي بنظـرة ظفـر، كمـن يخبـئ لي مكروهـا: «أرادت أن تقتلـك يـا بيفـاي. أرادت أن تهشـم رأسـك عـلى جـذع شـجرة. هـي أخبرتنـي بذلـك، وكان عليهـا أن تفعـل لـولا ضعفهـا».

كان ذلـك أسـوأ مـا يمكـن أن أتذكـره عـلى الإطـلاق. شـعرت بالضعـف وبفيـض مـن المـرارة داخـلي. نعـم، مونغانـا كان عـلى حـق في نهايـة المطـاف، فأمـي بالفعـل كانـت تنـوي قتـلي، ولم تكـن لتخـرج مـن البحـر حاملـة الطعـام اللذيـذ مـن أجـلي. هكـذا انتهـى ذلـك الـسر الغامـض الـذي أحـاط بالمصير الكريـه لأمـي وأبي، وصرت أرى في عيـون الآخريـن نظـرة مختلفـة نحـوي، كأننـي شـخص جديـد لم يعرفـوه مـن قبـل. كل شيء في عالمـي انهـار دفعـة واحـدة، والأكـثر أنهـا خطيئتـي أنـا. لم أعـد أبـالي بـشيء سـوى أن تحصـل تلـك المعجـزة ويعـود كل شيء إلى مـا كان عليـه، أجلـس معهـم بطمأنينـة حـول النـار ونحـن ننتظـر أن ينضـج اللحـم.

«انظروا، لقد ذهبوا» قال غونار.

كنـت قـد نسـيت الأشـباح لوهلـة في خضـم مـا عصـف بي، وبالفعـل نظرنـا مـن خـلال الأشـجار ولم نـرَ أثـرا لهـم، كأنهـم سـمعوا حديثنـا فـدب الذعـر فيهـم وفـروا. تركنـا الدغـل وعدنـا إلى النـار. لم يتركـوا وراءهـم شـيئا مـن اللحـم عـدا بقايـا العظـام. نظـر تارتويـن إلى مـا خلفـوه نظـرة كـدرة، كأنـه يراقـب غيومـا سـوداء في الأفـق. «هيـا، لنـأتي بطريـدة أخـرى». ذهـب مـع بعـض الرجـال لاصطيـاد مـا نـأكل، بينـما انصرفـت مـع البقيـة إلى جمـع الحطـب لوقـد نـار جديـدة. كل

شيء بدا هادئا وعاديا كأن شيئا لم يحصل، لكنه لم يكن كذلك في حقيقة الأمر. فأنا لم أستطع نسيان كلام أم مونغانا عن أمي وكيف كانت تريد قتلي، ولا تلك النظرات التي أخذ الجميع يرمقني بها، كأني مخلوق مختلف عنهم. انتظرت حتى انزاحت نظراتهم عني فابتعدت بهدوء كمن يذهب ليقضي حاجة. وما إن ابتعدت قليلا حتى أخذت أركض. مضيت بعيدا، ورحت أركض وأركض بسرعة حتى بدت الأشجار والأدغال تركض أيضا، والريح تلفح وجهي بقوة، والأرض لا تكاد تلامس قدمي إلى أن تملكني إحساس مريح اجتاح جسدي كله وتغلغل إلى عظامي بأني أريد أن أكون بعيدا، أبعد ما أستطيع. انحدرت في الوادي حتى وصلت إلى ساقية صغيرة، قفزت فوقها وتابعت الجري إلى الطرف الآخر حتى كادت أنفاسي تنقطع وخفقان قلبي يعلو على صوت انهمار المطر. لكني لم أتوقف، ومضيت أركض بين الأشجار وأجتاز الأدغال التي خلفت جروحا في قدمي حتى خارت قواي وسقطت متعثرا بالحطب القديم على الأرض.

ظللت مستلقيا هناك، وكانت المرة الأولى التي أكون فيها وحيدا بهذا الشكل. أثار الهدوء فضولي، وبدت لي أصوات الطيور وحفيف الأشجار صخبا في ذلك السكون. ثم امتلأ قلبي برغبة عارمة أن يأتي تارتوين وجدتي والآخرون فيعثروا علي هنا ويتأسفوا على كل ما قالوه لي ويخبروني أن أمي لم تكن تريد قتلي وأن كل ما سمعته منهم لم يكن سوى كذب. نعم، وسيوسعون مونغانا وأمه ضربا، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه كأن شيئا لم يحدث، ويتلاشى هذا القهر الذي يطبق على صدري. أضغاث أحلام، وأمل كالسراب. لم أسمع أي خطوات ولا أي أصوات تناديني. لم يكن هناك

سوى لسع الذباب وأصوات الطيور، وعندما حل الظلام عرفت أنهم لن يأتوا. اجتاحتني عندها مشاعر الكره نحوهم ولم أعد أبالي أني وحدي ولا نار لدي، بل إني وددت لو يأتي النمر التاسماني برأسه الطويل القبيح ويجهز علي بأنيابه أو يهبط عفريت الرياح من فوق الأشجار ويصيبني بالجنون. لكن أحدا لم يأتِ، ولم يحدث شيء على الإطلاق سوى أني غرقت في النوم.

في اليوم التالي وجدت كل شيء على حاله. لم يتغير شيء سوى أني قررت أن أموت. لم آكل أو أشرب شيئا وصنعت فراشا لأموت عليه من الأعشاب والطحالب وأوراق السرخس واستلقيت بانتظار أن أموت. لكن لم يكن من السهل الموت هكذا، فجسدي كان يحكني بشدة بسبب لسع الذباب والجروح التي خلفتها الأشواك فلم أتمكن من الاستلقاء بسكون. وبالإضافة إلى ذلك لم أكن أدري كيف أموت، مستلقيا على ظهري أم على جنبي، إلى أن حل الظلام في النهاية وغرقت في النوم من جديد.

في اليوم الثالث صحوت على مفاجأة أثارت دهشتي. استيقظت مع بزوغ الفجر وقد اصطبغت السماء بلون الدم. كنت جائعا وعطشانا، إلا أن شعورا من الغبطة ملأ كل جوارحي، كأنما لم أختبر الغبطة في حياتي من قبل. شعرت بالضعف كأني أنوء تحت وطأة من الحبور والرضى جعلتني لا أستطيع الركون ويداي ترتجفان. بلغت حيرتي وذهولي حدا أردت فيه أن أصرخ مناديا الأشجار والذباب الذي يلسعني. أردت أن أكون حيا مهما قال مونغانا وأمه. اجتاحتني رغبة عارمة في أن أكون حيا ولو لم يكن على هذه الأرض وغد أو مشرد واحد يريد لي أن أعيش. لا تزال تلك الحالة تحيرني

حتى بعد مرور كل تلك الأيام. ربما ذلك لأني كنت جائعا، أو ربما لأني اكتشفت قدرتي الخاصة على الاحتمال.

قررت بعدها أن أذهب للبحث عنهم، إذ إنني لم أعد أشعر بأي ضغينة تجاه أولئك الجاحدين. لكن ذلك لم يكن سهلا، فقد مضى وقت ليس بالقصير منذ أن وصلت إلى هنا، ولم أعد أذكر أي من الجهات أوصلتني إلى هذه البقعة التي تلفها الأشجار من كل النواحي. كنت وسط غابات كثيفة تغطي كل ما حولي وتعذر علي فيها رؤية أي علامة أو شيء مألوف يرشدني إلى الطريق. ضللتني الأشجار، ففي لحظة أشعر أني أتعرف على بعضها في معالم الطريق، وفي لحظات أخرى أخالها تخادعني وتتعمد الظهور بمظهر غيرها كي أضل طريقي من جديد. هذا عدا الدوار الذي سببه الجوع لي وجعل قدميَّ تتعثران فأتخبط وأنا أمشي. وصلت في النهاية إلى ممر لم أتبين وجهته، لكني رأيت عليه آثار أقدام لا يتجاوز عمرها يوما أو اثنين، وكان هذا يكفيني، فتبعتها وأنا أفكر فيما سأقول لهم عندما أعثر عليهم وما الذي يمكن أن يقولوه لي. لم يحدث أن كنت وحيدا بهذا الشكل من قبل، لكني تصرفت بشجاعة. تبعت الأثر حتى وصلت إلى مكان سمعت فيه جلبة طيور، أمر ينذر عادة بالشؤم. وبالفعل اتجهت نحو مصدر الضجيج ونظرت من خلال أغصان الأشجار إلى فسحة بينها فرأيت جمعا من الطيور تنقر وتنهش بصخب، كانت تلتهم تلك الأشباح الثلاثة. كانت أجسادهم مزروعة بكثير من السهام، وبدا أنهم كانوا يحاولون الفرار عندما سقطوا قتلى في تلك الفسحة. هكذا تعلمت أن الأشباح يمكن قتلها على الرغم من أنها بالأصل ميتة. لا أدري ما الذي جعلني أشعر بالأسى من أجلهم، وهم الذين أكلوا طعامنا

وسببوا لي كربا عظيما. رميت بحجر فابتعدت الطيور قليلا، لكنها ظلت على مقربة تقفز وتنتظر. أي لغز هذا! لقد تركهم تارتوين ينصرفون، فمن أرداهم بالسهام هكذا؟! لم يخفف ما فعلته الطيور بهم من فضولي لأقترب وأنظر إليهم عن كثب. اقتربت منهم وأنا أتساءل هل أنت أبي؟ أنت هو؟ أم أنت؟ ثم لمست شعر أحدهم فوجدته مثل شعري. كان الآخر بعين واحدة تركتها الطيور زرقاء كسماء يوم بارد. وعندما لمست جلودهم التي كانت بلون الحجارة اكتشفت أنها ليست بجلود البتة، بل غطاء مزيف يخفي تحته بشرة حقيقية فاتحة بلون وجوههم اللحمية. بشرتي أنا لونها بشري على الأقل.

رغم إثارة المشهد إلا أن الجوع الشديد منعني من البقاء أكثر. قذفت بحجر آخر نحو الطيور ومضيت مقتفيا آثار الأقدام على الممر إلى أن بدأت أشتم رائحة هي الأشهى. رائحة دخان من مخيم قريب تشي بأروع ما يمكنني العثور عليه، لحم يشوى على نار يجتمع حولها بشر ينتظرون نضجه. عندما تتضور جوعا فإن أنفك سيعثر عليها، تلك الرائحة، حتى ولو كانت تنبعث من وراء الجبال. قد يصيب الجوع عينيك بالتعب وقد تتوقف أذناك عن العمل أيضا، لكن أنفك يبقى في منتهى الذكاء والحساسية.

أشاعت تلك الرائحة النشاط في أوصال جسدي وأمدت قدميَّ المتعبتين بالقوة لأتابع مسيري صعودا إلى أن بلغت قمة تلة فرأيت عمودا من الدخان يتصاعد من تخوم الغابة. استبشرت بحسن طالعي وطغى علي شعور من البهجة. أجل، الآن نجوت، هكذا فكرت، واندفعت أركض كأني أسابق الريح.

جورج باينز، الموظف في شركة أرض العالم الجديد، 1828

أبي العزيز

كم يؤسفني أني لم أكتب لك منذ أسابيع عديدة، وكلي رجاء ألا يتبادر إلى ذهنك أنه تقصير من ابن عاق، فلعلك تعلم كم يندر أن تبحر سفينة من هذه البقعة النائية من العالم. أما عن أخباري فأنا لا أعرف حقا من أين أبدأ، فالتطورات على صعيد وضع المستعمرة كما على الصعيد الشخصي كانت بالفعل عظيمة خلال الفترة الماضية. لا أستطيع القول إن كل شيء كان سهلا، لكني غالبا ما أفكر فيك وأتخيلك تنظر من خلال نظارتيك إلى طلابك في قاعة الصف، تلك النظرة الصارمة المشبعة بالحكمة، وأنت كما عهدتك دائما وبكل يسر تعلم أين الصواب.

كانت رحلتي الأخيرة من بلدة هوبارت التي لا تتجاوز في الحقيقة مساحة قرية صيادين كبيرة أقل سوءا مما توقعت، وكرجل قادم من إنجلترا فإن ما أصابني من دوار البحر لا يستحق الذكر. الأمر المقلق الذي واجهته لدى وصولي كان حال المستعمرة التي يفترض أن تصبح وطني الجديد، ورغم أن هذا الوضع لم يمضِ عليه أكثر من سنة واحدة، إلا أني صدمت بما رأيت. فعدا مقر الشركة الذي أُحضر خصيصا من إنجلترا كأجزاء تم تركيبها هنا،

وهو بالفعل ذو نوعية ممتازة، كل ما وجدته هنا ليس أكثر من أكواخ بنيت من لحاء الشجر تفتقر حتى إلى أرضيات ترد البرد أو ما يكسو جدرانها لرد الرياح. فعلت ما بوسعي لأتقبل هذا الوضع الفقير دون شكوى، وحاولت التركيز بدلا من ذلك على مستقبل هذه الشركة العظيمة ودوري فيها، إلى أن رحل الشتاء وجاء الربيع برياح أكثر لطفا فوجدتني قد تأقلمت مع حياتي في بيتي البدائي الصغير. بدأت أعتاد أيضا على الطبيعة من حولي. لا تشبه دورسيل في أي شيء، فالمشهد هنا أكثر بدائية وأقل تناسقا، إلا أنه لا يخلو من مباهجه الخاصة. تطور لدي شغف خاص بشجرة الكينا. تنمو هذه الأشجار هنا بوفرة وتتميز بتدرجات ألوانها الفاتحة، وعندما تداعب الريح أوراقها تصدر صوتا ينعش الروح. العمال والموظفون في الشركة لطفاء بما يكفي معي. أما رعاة الماشية الذين يعتبرون جنود المؤسسة، وهم عادة رجال أشداء، فإنهم يعاملونني أفضل بكثير مما يعامل بعضهم بعضا، ربما لأني شاب كما تخيلت. ليس هذا فقط، بل إنهم أطلقوا علي لقبا خاصا، الواعظ الصغير، إذ كان يبدو عليّ ملامح مبالغ بها من الجدية. أصبحوا يرددون على سبيل النكتة أني أهدف إلى إصلاح طرقهم في الحياة، أمر لم يخطر في بالي البتة في حقيقة الأمر، لكن حتى السيد تشارلز مدير المؤسسة انضم إلى لعبتهم هذه، وكلما صادفني يقول لي: «لم تفلح بعد في تعليمهم كيف يغنون الترانيم يا سيد باينز».

عُينت مساعدا للسيد بيرس، المهندس الزراعي في الشركة، وهو رجل غير محبوب في المستعمرة. لم يخف الرعاة انطباعاتهم عنه، عندما علموا بتعييني، بل لم يترددوا في القول إنه غريب الأطوار،

ويفتقد إلى عقل يملأ رأسه. ترددت كثيرا في أن أعتمد على أقاويل كهذه في تكوين أي انطباع عن الرجل مفضلا أن أستنتج آرائي بنفسي، نهج لطالما عملت أنت نفسك على تكريسه لدي. ومع ذلك أعترف لك أني وجدت السيد بيرس شخصية مثيرة للاهتمام على نحو خاص. وجهه المتجهم وعلائم الحيرة المرسومة على محياه تدل على أنه شخص مشغول على الدوام بالتفكير في مصلحته الفردية. لا وقت لديه للتفكير بالآخرين، حتى أولئك الذين يهتمون به أو يظهرون له الود، لكنه مع ذلك خصني بمعاملة مختلفة، وكان دائما لطيفا ورحب الصدر معي. في أغلب الأحيان، تنحصر مهماتي معه بمرافقته في جولاته المختلفة على رعاة الماشية، لتفقد الحيوانات، وتقديم الرعاية لأي إصابات أو أمراض. كثيرا ما تكون هذه الجولات متعبة، خصوصا عندما يكون الطقس رديئا، وهذا ما يحدث دائما في هذه البقعة من الأرض. لكن بالنسبة لي كانت تقدم لي فائدة عظيمة، لأني وجدت فيها الطريقة الأنجع في التعرف على أرض موطني الجديد. وهل هناك طريقة أفضل في معرفة الأرض واكتشاف أسرارها من المشي عليها وتنشق روائحها!

في الجولة الثانية من جولات العمل تلك، رأيت سكان الأرض الأصليين لأول مرة. كنا نعبر مساحة مفتوحة من العشب حين لمحنا ستين منهم يرتاحون حول نار أوقدوها، وكانوا أغرب مخلوقات رأيتها في حياتي. طوال القامة، ويمكن القول عن بعضهم إنه وسيم بطريقتهم الهمجية الخاصة، لكنهم كلهم رجال ونساء في حالة من العري الكامل. وإن لم يكن مظهرهم هذا صادما بما يكفي فإن الطريقة التي يصففون بها شعورهم كفيلة وحدها بأن تجعلهم يبدون في غاية الغرابة. الرجال منهم يصبغون شعورهم الطويلة

بمادة حمراء ويوزعونها في خصل، فتبدو للناظر كأنها حبال قرمزية. أما النساء فرؤوسهن حليقة ويمكن القول إنهن صلعاوات، مظهر لا يليق بأي امرأة على الإطلاق.

لو كان الأمر بيدي لبقيت بعيدا عن تلك المخلوقات، لكن السيد بيرس أصر على الاقتراب منهم، وقال إنه فعل ذلك عدة مرات، من دون أن يتعرض لأذى أو إصابة. وماذا بيدي، أنا مساعده، سوى أن أخضع لرغبته. لكن ما حدث أنهم كانوا لطفاء بما يكفي معنا عندما اقتربنا، بل وأعطونا بعضا من الولب الذي كانوا يشوونه، وفوجئنا أنه لم يكن سيئا كما تخيلنا. أصر السيد بيرس الذي يعرف بعض أسمائهم من لقاءات سابقة، أن نبقى ونجلس معهم لفترة، حتى ولو على حساب وقت العمل، إذ إنه كان يحاول من خلال الحديث معهم أن يتعلم بعض مفردات لغتهم. أردت الابتعاد عنهم، ولا أخفيك أن صبري كاد ينفد، فما أدرانا حقا ما الذي كان يجول في رؤوس تلك المخلوقات وهي تتجمع حولنا هكذا، تارة تنظر وتارة أخرى تلمس شعري أو ثيابي لإشباع فضولها المقلق. كل ما جال في خاطري أنهم كانوا يخططون لقتلنا خفية بتلك السهام الحادة التي يملكون منها الكثير. كانت مخيفة، خفيفة لكنها حادة كإبر، ويمكن أن تخترق أي جلد مهما كانت سماكته.

عندما مضينا في طريقنا في النهاية تحت المطر لم يتحدث السيد بيرس سوى عن أولئك المخلوقات، قائلا إن لديهم الكثير من الشجاعة. لا أعتقد أني رأيته من قبل بكل هذا الحماس، بل إن انفعاله أثار حفيظتي. فمهما كان من أولئك السكان الأصليين، لا يصح أن يستحوذوا على اهتمام موظف في شركة كبيرة تقع

على عاتقه مهمات وواجبات. لم يكن انحيازه هذا ليثير قلقي لولا العدائية التي أبداها تجاه رعاة الماشية الذين قال عنهم إنهم ليسوا سوى مجموعة من الهمج مكانها الأصلي في السجن. كلامه هذا، ونفوره من الرجال الذين يعملون معه، جعلني أفكر فيما إن كان تحمسه الشديد للسكان الأصليين ليس بدوره سوى - وبطريقة غريبة - شكل آخر من أشكال الكراهية. لكنه خاطر احتفظت به لنفسي.

لم يمضِ وقت طويل على تلك الجولة حتى أصابتني حمى وأقعدتني في كوخي الصغير. كان السيد تشارلز مدير الشركة وزوجته غاية في اللطف والكرم معي. زاراني عدة مرات أثناء مرضي، وأحضرت السيدة تشارلز الحساء الساخن الذي قالت إنه سيساعدني على الشفاء. ليس هذا فقط، بل واقترحت إن لم أتحسن قريبا أن أذهب وأقيم معهم في المنزل. أي كرم كان منها! لو رأيت منزلهم يا أبي. ربما لن يسترعي البناء اهتمامك، فهو متواضع من حيث فن العمارة، لكن كلما مضى علي الوقت في هذه المستعمرة، ازداد إعجابي به. كان بالنسبة لي في هذه المستعمرة الفقيرة بشرفته وصالونه والزجاج في كل نافذة من نوافذه المصدر الوحيد للحضارة. الذي حدث أني تماثلت إلى الشفاء سريعا ولم أحتج للإقامة هناك، لكن مجرد التفكير في ذلك البناء كان له أعظم الأثر في تحسن صحتي.

ثم في أحد الأيام، وبينما كنت أجلس على جذع شجرة أمام كوخي أستمتع بشمس الربيع سمعت صراخا، وما إن رفعت رأسي حتى رأيت مشهدا في غاية الغرابة. السيد بيرس يدخل المستعمرة مسرع الخطى، وأمامه هيغس وسوتن، اثنان من رعاة الماشية.

كان الغضب قد نال منه وبدا وهو يدفع الرجلين كأنه يقود زوجا من الكلاب، وما إن لمحني حتى أشار إلي بيده أن أتبعه إلى مقر الشركة. فعلت ذلك على الفور، مدفوعا بفضولي لمعرفة ما يجري. وهناك، ما إن خرج السيد تشارلز ليستطلع ما الخطب حتى وجد نفسه حكما في جدل حامي الوطيس. زعم السيد بيرس وهو يتميز غضبا أنه وجد جثتين من السكان الأصليين مدفونتين على عجل على بعد لا يتجاوز الخمسين مترا من كوخ راعيي الماشية. ولدى معاينة الجثتين اكتشف أنهما قتلا بالرصاص. والأكثر من ذلك، قوله إنه رأى أكثر من مرة الراعيين يحاولان استدراج نساء من السكان الأصليين إلى كوخهما، مما أثار غضب رجالهم.

«ليسا أكثر من مجرمين». صرخ ثم تابع: «يجب أخذهما إلى هوبارت وشنقهما هناك».

لم يكن دفاع هيغس وسوتن عن نفسيهما أقل ضراوة. أصرا على نفي التهمة وقالا إنهما رأيا العديد من الرجال ذوي المظهر المتوحش في الجوار، لا بد أنهم من المحكومين الفارين، ومن المؤكد أنهم هم من فعلوها. لم تبدُ حجتاهما على قدر كبير من التماسك. صحيح أن هناك مستوطنة لعقاب المحكومين في هذه الجهة من الجزيرة قرب ميناء ماكواري إلى الجنوب، وصحيح أن العديد من أولئك المحكومين يتمكنون من الفرار أحيانا، إلا أن المسافة شاسعة والأرض في المنطقة وعرة إلى حد يستحيل فيها النجاة، وكان معظم الفارين إما يعودون من تلقاء أنفسهم، أو يهلكون في العراء. وهكذا رجح احتمال أن راعيي الماشية، هما من قاما بقتل الرجلين من السكان الأصليين. لكن رغم تعاطفي الشديد معه، فإن قسوة السيد بيرس في حديثه عن الشنق،

لم تساعده في دعم موقفه. نعم الرجلان بحاجة إلى درس قاس، لكنهما في النهاية من رجالنا الذين نعرفهم حق المعرفة.

بذل السيد تشارلز ما بوسعه كي يهدئ من النفوس.

«لقد أوضحت من قبل أني لا أسمح بأي اعتداء على السكان الأصليين، وهذه الحادثة ستلقى مني أقصى الاهتمام».

بدا لي جوابا في غاية المسؤولية والمنطق، لكنه لم يخفف من غضب السيد بيرس. «سيفصلان من العمل».

فكر السيد تشارلز وأجاب: «لم تثبت إدانتهما بعد، ومن حقهما أن نعاملهما كبريئين حتى تثبت الإدانة».

استرعت إجابته إيماءتي شكر من الرجلين.

في الواقع فكرت وقتها أن كلام السيد تشارلز لا ينطلق في جوهره من مبادئ وقيم القانون والعدالة بقدر ما ينطلق من مصالح وحاجات العمل في المستعمرة. فلم يكن من السهل العثور على رجال مناسبين للعمل والحفاظ على النظام في الوقت نفسه. لكن السيد بيرس لم يبال بكل تلك الاعتبارات العملية، وامتقع وجهه غضبا وأخذ يرغي ويزبد، عن أن ما حدث فعل أوحى به الشيطان ولا يقل شرا عن أفعال الشيطان ذاتها. لم يكن في لغته هذه والحق يقال أي لباقة، لكن السيد تشارلز تعامل مع الأمر بروية وصبر وقال إنه لا يزال هناك عدة أسابيع تفصلنا عن موعد إبحار أول سفينة من هوبارت، لذا فعلينا أن نهدأ وننسى الموضوع حتى ذلك الوقت.

لكن ما حدث أثبت أن نسيان الموضوع كان مستحيلا. فبعد بضعة أيام أخذت الأمور منحى مغايرا، فقد رأى أحد رعاة الماشية مجموعة رجال من السكان الأصليين يقتلون عمدا عددا من الأغنام.

حاول الرجل إبعادهم، لكنه جُرح بسهم أصابه في رجله. ذُبح خمسة وثلاثون رأسا من الأغنام في ذاك اليوم، ومع نهاية الأسبوع كانت خسائرنا من الماشية خمسة وستين رأسا. خسارة كبيرة، فكل ثروتنا من الماشية لا تتعدى خمسمئة رأس كلفت الكثير من الجهد والمال لإحضارها إلى هذه البقعة النائية. ومما زاد الأمر سوءا أننا كنا ننتظر وصول دفعة جديدة من الأغنام من سلالات لا توجد على هذه الجزيرة، حمولة أُعدت خصيصا للتخصيب وتحسين النسل. كل ذلك جعل الخسارة أكثر وطأة علينا.

تلت ذلك أيام عصيبة بالفعل، وغالبا ما رأيت فيها السيد تشارلز يتمشى في المستعمرة وقد رسم القلق تغضنات على جبينه الناصع النبيل. فعل كل ما بوسعه لاتخاذ الاحتياطات المناسبة. أصدر تعليمات بحمل السلاح بشكل دائم، وكلف رجلين حراسة المستعمرة ليلا نهارا. نُقلت الماشية مع الرعاة أيضا إلى مكان في الشمال، أقرب من المستعمرة، بحيث يمكن تأمينها بسهولة أكثر، إجراء لم يكن ليحدث لولا الضرورة القصوى، فالمراعي في هذه المنطقة محدودة. ورغم أن كل ذلك لم يكن سوى إجراءات طبيعية، وأقل ما يمكن فعله في ظروف كهذه إلا أن موظفا واحدا في المستعمرة، رأى فيها سوء تقدير، ويؤسفني أن هذا الرجل لم يكن سوى السيد بيرس. كأن هذا الرجل لا ترضيه سوى الآراء المتطرفة، لا لشيء سوى أن يتبع ما في رأسه من حماقات. لقد اعترض حتى على حمل السلاح بحجة أن ذلك سيكون بحد ذاته عملا استفزازيا. رأى أن علينا بدلا من ذلك أن نسعى للتواصل مع السكان الأصليين لنشرح لهم أننا آسفون على ما حصل، واقترح أن يقوم بذلك بنفسه مستفيدا مما تعلمه من لغتهم. لكن السيد

تشارلز لم يقتنع، فقد رأى بحكمته أن تصرفا كهذا لن تكون نتيجته سوى وابل من السهام تطلق علينا.

تبدو الأوضاع هادئة في الوقت الراهن، ويبدو أنها عادت إلى طبيعتها مرة أخرى. لم نشهد أية حادثة منذ أسبوع ولم نلحظ حتى أيا من السكان الأصليين على مقربة. استأنفنا، السيد بيرس وأنا، جولات التفتيش، لكنها أصبحت الآن قصيرة لقرب الماشية. لا يكف السيد بيرس عن تذمره من البندقية، كأن حملها على كتفه لم يكن بالنسبة إليه سوى عقوبة.

«أي خردة لعينة! » هكذا كان يغمغم ونحن نمشي، بينما ترف عيناه بطريقته الغريبة. «كم أتمنى لو ألقي بها بعيدا... لكن لا، هذا لن يعجب السيد تشارلز المحترم». يرمقني عندئذ بنظرة توحي أنه يضمنني في استنكاره. ورغم علمي بأنه لم يكن يتوقع مني الموافقة على كلامه فإن مجرد الإصغاء إلى شكواه يجعلني أحس أني أتواطأ معه.

جرت الأمور على هذا المنوال حتى حدث في صباح أحد الأيام أن بعض الماشية شردت في ما وراء السياج إلى جهة المراعي السابقة التي ألفتها من قبل. لم يكن في الأمر ما يقلق، إذ إن عدد الحيوانات لم يكن كبيرا، ثم إننا اكتشفنا لاحقا تلك الثغرة في السياج التي هربت منها وقمنا بإصلاحها. المفاجئ في الأمر، أن ذلك حدث في مكان مكشوف من أحد أكواخ الرعاة، وتحديدا كوخ هيغس وسوتن. «سيندمان على ذلك قريبا»، قال السيد بيرس. يتحدث بانفعال عظيم يجعلني أحاول تهدئته أحيانا. «لا أظن أنهما ابتعدا كثيرا. ربما ذهبا إلى كوخ سميث وكرين ليحضرا بعض المواد اللازمة في ترميم السياج».

«لنذهب ونجدهما إذن».

لكننا عندما وصلنا إلى الكوخ التالي وجدناه شاغرا أيضا. حتى عندما تسلقنا أحد الأكمات القريبة لم نر أيا من الرعاة، وكانت الماشية وحدها. وفجأة بدأ القلق يتسلل إليَّ. ما الذي حدث؟!

لم يُبدِ السيد بيرس اهتماما كبيرا بالأمر، إلا أني لمحت علائم الضيق واضحة على وجهه. «لم نرَ ما يوحي بمشكلة أو خطأ. أعتقد أن الأمر مجرد إهمال. بالطبع علينا إخبار السيد تشارلز في الحال». وما إن هممنا بالعودة إلى المستعمرة حتى سمعنا صوتا يتردد في الفضاء، صوتا لا يمكن للأذن أن تخطئه، إطلاق نار. أتتنا الأصوات من جهة الشمال الشرقي، جهة البحر، وبدا من خفوتها أنها على مسافة بعيدة. لم تسعفني مخيلتي وأنا أميز التواتر المنتظم لإطلاق النار سوى بصورة رهيبة لمعركة بين رجال يقاتلون دفاعا عن حياتهم ضد عصابة إجرامية من السكان الأصليين يمطرون كل شيء حولهم بوابل من السهام الحادة. لم يتفوه السيد بيرس بكلمة واحدة، بل التفت بوجهه الشاحب وانطلق مسرعا باتجاه مصدر الضجيج. وهكذا تبعته وقلبي يخفق بشدة بينما لا يشغل فكري إلا افتقاري إلى أية خبرة في استخدام السلاح.

توقف إطلاق الرصاص فجأة، ونحن لا نزال على مسافة بعيدة. «أرجو أننا لم نتأخر». هز بيرس برأسه متجهما وتابعنا طريقنا. كان من الصعب أن نمشي من دون الأصوات التي ترشدنا إلى جهتنا، لكننا حثثنا الخطى قدر ما نستطيع، بمحاذاة مسار من الأشجار إلى أن وصلنا إلى قمة جرف معشوشب، يطل على البحر. جعلني الهدوء المطبق، الذي لم يكن يقطعه سوى صفير الريح وأصوات الطيور، أعتقد أننا وصلنا إلى المكان الخطأ، بل وبدأت أتساءل

فيما إذا كان إطلاق الرصاص الذي سمعناه لم يكن سوى حدث عرضي بريء. لكنني سمعت فجأة صراخ السيد بيرس الذي كان قد وصل إلى الصخور على حافة الجرف: «هنا.. هنا». اقتربت منه ورأيت على أحد الصخور ما يشبه رسما ليد بشرية بلون أحمر قان. لم تكن قد جفت بعد. كان بيرس وقتها يتقدم من بين الصخور، عندما صدرت عنه ما يشبه الحشرجة. تبعته لأجد كل شيء قد تلطخ بالدماء، أوراق الشجر والأعشاب. دماء في كل مكان تجمعت كبرك قرمزية. لا أعرف كيف لطخني الدم في كل بقعة من جسدي لزجا وحارا، ولم أعرف مصدره حتى بلغت حافة الجرف فرأيتهم هناك مطروحين في قاع المنحدر وقد بللتهم الأمواج. لم أرَ في حياتي مشهدا كهذا. أوصال مقطعة ورؤوس مهشمة وأحشاء مندلقة، كلها اصطبغت بأحمرٍ قانٍ، تخاله تدفقا من نبع قرمزي انفجر تحتها.

كلهم كانوا من السكان الأصليين، عددهم مجتمعين يقارب نصف القبيلة التي رأيناها من قبل. وأعترف أن أول شعور داهمني بعد رعبي من هول ما رأيت، كان إحساس خفيف بالارتياح لأن القتلى ليسوا من رجالنا. قد يبدو ذلك قاسيا، لكن في أماكن نائية كهذه، لا يملك المرء إلا أن يتعاطف مع أبناء جلدته. إلا أن شعوري ذاك تلاشى سريعا، وحل مكانه قرف شديد وارتياع مما حدث. أما السيد بيرس فلا حاجة لوصف مدى انفعاله، إذ إنه أجهش بالبكاء، من دون حرج، وهو يهم بالنزول إلى قاع الجرف، فعلٌ بدا عبثيا بعد كل ما رأيناه، عدا أن المد قد بدأ وكانت عدة جثث قد طفت قليلا بسبب الأمواج. وبعد عدة محاولات مني لثنيه عما يريد استسلم واقتنع أن الجرف شديد الانحدار، وجلس

بجانبي وهو يغمغم غاضبا مرة تلو أخرى كأنه يردد ترنيمة: «سينالون عقابهم على هذا».

أدرك الآن أنه، وعلى العكس مني، كان يخشى أن يقع ذلك منذ البداية، منذ انطلقنا مسرعين صوب صوت الرصاص. لم يخطر في باله للحظة واحدة أن رجال الشركة هم من كانوا في خطر. شعرت بالعار، ولا أعتقد أن انفعالي في تلك اللحظة كان يقل عن انفعاله هو. فبطريقة عجيبة جعلني مشهد أولئك المخلوقات المهشمة والنازفة أشعر بالأسف عليهم وبأنهم كائنات أليفة. هُشِّم إنسان إلى أشلاء وسيبدو مثلك تماما، بصرف النظر عن لون بشرته وطريقته في الكلام.

لم يطل الوقت حتى تلاشت أي شكوك لدي حول الفاعل. فقبل أن نجتاز نصف المسافة في طريق عودتنا إلى المستعمرة رأيناهم، عشرة من رعاة الماشية، سوتن على رأسهم، يحملون بنادقهم ويمشون بخيلاء. كانت ثياب بعضهم مبللة نتيجة غسل سريع لآثار جريمتهم كما خمنت. لم أصدق أن هؤلاء الرجال هم أنفسهم من عرفت وعاشرت وتبادلت معهم النكات والمزاح.

«قتلة»، خرجت كلمات السيد بيرس صراخا. «قتلة مجرمون».

أنكروا فعلتهم، لكن بخفة من لا يبالي بالإنكار. «يبدو أن أولئك المحكومين عادوا لأفعالهم مرة أخرى»، قال سوتن غامزا هيغس.

«وهل لي أن أسأل ما الذي تفعلونه هنا كلكم؟» قال السيد بيرس بنبرة آمرة.

هز سوتن كتفيه باستخفاف: «كنا نصيد الطيور وقتلنا بعض الغربان». والغربان مصطلح بالمحكية يشار به بيننا إلى السكان الأصليين مما أثار موجة من الضحك المتهتك بين الآخرين.

«يجب أن تعاقب على ما فعلته، وعقابا شديدا. سأسعى إلى ذلك بنفسي، أقسم إنك ستعاقب»، صاح السيد بيرس.

رمقه سوتن بنظرة لئيمة تقدح شررا: «من حسن حظك أن الواعظ الصغير برفقتك».

استفزني أن يناديني بلقبي بهذه الطريقة وفي هذا الموقف. «اسمي جورج باينز، ولا أقبل أن يناديني أحد مثلك بأي اسم آخر». لم يكن من الحكمة أن أتحداهم، فقد ردوا على كلامي بنظرات تهديد، ونصحنا الأكثر هدوءا بينهم أن نتقي الشر ونمضي من فورنا إلى المستعمرة. ورغم أنه كان من الصعب أن نمضي هكذا والغضب يعتمل في صدرينا، فقد وجدت أنه لا خير من المماطلة، أمر وافقني عليه السيد بيرس في النهاية.

«معركتنا الحقيقية ليست هنا».

عندما وصلنا إلى مقر الشركة لم نجد السيد تشارلز هناك. قالت لنا زوجته إنه ذهب لتفقد بعض أراضي الشركة. كان ذلك مخيبا، ومرت الساعات التالية عصيبة وثقيلة. جلسنا في غرفة الطعام واجمين ولم ننطق بكلمة واحدة بينما كانت السيدة تشارلز تقدم لنا الشاي بين حين وآخر. وعندما وصل السيد تشارلز في النهاية قرأ بحدسه على الفور ما وراء وجومنا. أصغى بصبر إلى رواية السيد بيرس المرعبة لما جرى.

«علينا الذهاب فورا إلى هناك»، قال بنفاد صبر عندما أنهى سرده. ربما يكون المد والجزر قد أزالا الكثير، لكن لا بد أن يبقى شيء يمكن لك أن تراه بنفسك».

عبس السيد تشارلز: «سيحل الظلام قريبا».

«يمكننا أن نأخذ مصابيح معنا».

«جـون! »، رفـع السـيد تشـارلز يـده ليهـدئ مـن روعـه. «أعـرف أنـك في غايـة الانفعـال والتأثـر بسـبب مـا حـدث لأولئـك المسـاكين. أنـا أتفهـم أنـك مفجـوع»، وهنـا انخفضـت طبقـة صوتـه إلى مـا يشـبه الهمـس، «لكنـي أطلـب منـك شـيئا واحـدا. حـاول أن تطـرد كل ما جرى اليـوم مـن ذهنـك، في الوقـت الحـالي عـلى الأقـل، فنحـن مسـؤولون عن المسـتعمرة كلهـا، وهـذه لا يمكـن إدارتهـا مـن دون رجـال. صدقنـي سـأعمل مـا بوسـعي لمعالجـة هـذا الموضـوع كـما ينبغـي».

أخــذت عينــا الســيد بــيرس تطرفــان بشــدة. «هــل تعنــي أنــك ســتتركهم دون عقــاب؟».

رمقـه السـيد تشـارلز بنظـرة متفكـرة: «لم أقـل شـيئا كهـذا. كل مـا قلتـه أن تدعنـي أعالـج الموضـوع بطريقتـي الخاصـة».

«سـيد تشـارلز، أخـشى أنـك لم تـدع لي خيارا آخـر»، وقـف باضطراب مـما جعـل الكـرسي ينزلـق وراءه، ثـم لكـزني في سـاعدي فاضطـررت للوقـوف مثلـه أيضـا. «اعتبـارا مـن هـذه اللحظـة أنـا مسـتقيل مـن العمـل في شركـة أرض العـالم الجديـد. إن كنـت لا تريـد تطبيـق العدالـة فأنـا مضطـر للبحـث عنهـا في مـكان آخـر. سـنذهب جـورج وأنـا، مـن دون إبطـاء، إلى هوبـارت مبـاشرة لنشـهد عـلى كل شيء رأينـا، وعـلى ترددك في القيـام بواجبـك أيضـا يـا سـيد تشـارلز».

صدمنـي إعلانـه المفاجـئ هـذا، وأعـترف أن الانفعـال كان يعصـف بي. بالتأكيـد أشـاركه الغضـب، ولـدي مثلـه تصميـم عـلى أن نفعل شـيئا تجـاه مـا جـرى، ولا أخفـي خيبتـي مـن رد تشـارلز المتحفـظ. لكـن أن يسـتقيل مـن الشركـة، هـذا تـسرع، بـل إنـه تهـور. وقـد بـدا وضعـي في غايـة الحـرج، إذن أنـا بمجـرد الوقـوف هكـذا إلى جانبـه أظهـر كمـن يشـاركه فيـما يفعـل. ومهـما كان مـن أمـر بربريـة رعـاة الماشـية فيـما

ارتكبـوه، ألم أقطـع نصـف العـالم كي أصـل إلى هنـا وآخـذ دوري في مغامـرة اكتشـاف العـالم الجديـد؟ أجـل، مـع احترامـي البالـغ للسـيد بـيرس إلا أني لا أسـتطيع إخفـاء اسـتيائي، فقـد كان مـن الأفضـل أن يـتروى قليـلا حتـى نناقـش الأمـر سـوية.

بـدا أن السـيد تشـارلز قـد لاحـظ ارتبـاكي فرمقنـي بنظـرة تعاطـف سريعـة. «أرجـو أن تتـاح لنـا الفرصـة للتحـدث في الأمـر مـرة ثانيـة»، قـال وهـو يرافقنـا إلى البـاب ونحـن نخـرج. «سـيكون الأمـر أفضـل بعـد أن تنـالا قسـطا مـن الراحـة، وتعيـدا التفكـير». لكـن مـا أبعـد الراحـة والتفكـير عـن السـيد بـيرس الآن. أراد أن يبتعـد عـن المسـتعمرة. «علينـا أن نغـادر هـذا المـكان يـا جـورج. فعندمـا يمنـح مجموعـة رجـال أنفسـهم للشـيطان فـإن بقـاءك معهـم عندهـا يكـون مشـاركة في الـشر».

حاولـت أن أخفـف مـن حدتـه. «ليسـوا كلهم أشرارا. السـيد تشـارلز ليـس شريـرا».

لم يكـن لتعليقـي سـوى أن يزيـد مـن تصلبـه في رأيـه. «ألا يتسـتر عـلى القتلـة؟ إنـه كالـداء، كلهـم مصابـون». ثـم أخـذ يـشرح خططـه ومـا الـذي يتوجـب علينـا فعلـه. وأي مشـاريع! «علينـا أن نبنـي مسـتوطنة مسـتقلة خاصـة بنـا ونقيـم فيهـا ريثـما نجـد وسـيلة نقـل تأخذنـا مـن هنـا. وإن كان هنـاك رجـال أنقيـاء كـما تزعـم، وأنـا أشـك في ذلـك، فيمكنهـم أن ينضمـوا إلينـا». ثـم مـا لبـث أن توقـف فجـأة ونظـر حولـه. كنـا قـد وصلنـا إلى أرض مكشـوفة خـارج مجـال رؤيـة مقـر الشركـة والمسـتعمرة. «هنـا مـكان مناسـب»، قـال بانفعـال. «يجـب أن نبـدأ ببنـاء كـوخ».

هـا هـي أيامنـا العصيبـة تدخـل في نفـق اللامعقـول! نظـرت حيـث أشـار فوجـدت أن الأرض رطبـة تحـت أقدامنـا، ولعـل هـذا سـبب

أنها تُركت دون استثمار. «ولكن هل نستطيع ذلك؟ نحن لا نملك أدوات! بل نحن لا نعرف كيف نبني كوخا».

«لدي سكين»، قال وهو يرفعها. كانت صغيرة لا تنفع سوى في تقشير الفواكه. «هيا، سنجد بعض الأخشاب ونقطعها إلى أشكال مناسبة».

وجدنا بعض الحطب، لكن معظمه كان متعفنا من جراء الرطوبة والفطريات، وما وجدناه سليما كان بأشكال وأحجام غير متناسقة بحيث تتعذر الاستفادة منه. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لدينا مسامير، وعندما لفتُّ نظر السيد بيرس إلى ذلك شرع ينحت بعض المسامير من الخشب بسكينه وهو يصفر بما يشبه الحماس. لم أقتنع أن ما يفعله سيفيدنا في أي شيء، وسرعان ما حل الظلام وبدأت هبات من ريح باردة تعصف.

«كان علينا أن نبدأ بإيقاد النار أولا»، قلت وقد بدأ الغضب ينال مني.

«غدا نعد النار».

نظرت إلى كومة الأغصان التي جمعناها وكانت تشبه حطبا أُعد للحرق أكثر من خشب قطع للبناء، وفجأة نفد صبري: «هذا محض جنون».

«وماذا تقترح إذن؟».

لا أعرف كيف قررت كل شيء فجأة! كان كل تفكيري ينحصر في كوخي وبما فيه من دفء وطعام: «سأعود إلى الكوخ».

فوجئت ببردة فعله. نظر إلي مشدوها كأنه لا يصدق ما يسمع. أعتقد أنه كان يثق بي بالفعل وكان يرى في الرجل الذي يمكن أن يؤتمن على السر. «حسنا، اذهب، امضِ من هنا في الحال. ومن

قال إني أبالي بك بقيت أم رحلت؟ اذهب وانضم إليهم، وإياك أن تفكر في العودة إلى هنا مرة أخرى».

عدت إلى كوخي في حالة يرثى لها. كنت أتضور جوعا فأشعلت نارا في موقد الكوخ الصغير وبدأت أعد الشاي وأحضّر قطعة عجين لخبزها. لم أكد أبدأ حتى سمعت قرعا على الباب. كان السيد تشارلز.

«ألم يعد السيد بيرس بعد؟» سألني فأجبته بهزة من رأسي. «كنت أود أن أدعوكما إلى البيت. قامت زوجتي بإعداد لحم الضأن المشوي، فقد خطر لها أنكما قد تكونان جائعين». ألقى نظرة خاطفة على طعامي البائس. «بالطبع إلا إن كنت تفضل أن تتناول وجبتك الخاصة هنا».

ذهبت معه. لا أدري لماذا، ولكني ذهبت. وعرفت لماذا ما إن جلست على تلك المائدة الرائعة وامتلأت معدتي باللحم والبراندي. لم يكن السيد تشارلز من بدأ بالكلام عن السيد بيرس، بل أنا من بدأ بينما جلس السيد تشارلز يصغي بلطف ويعبس بين الفينة والأخرى وهو يتابع حديثي. قلت إن السيد بيرس لا يصغي إلى نصيحة أحد. كان دائما غريبا ينتمي إلى الخارج وينقصه حس الانتماء، وأعتقد أني أكرهه بالفعل. قد يبدو كلامي لك غريبا يا أبي، فالرجل لم يرتكب أي خطأ. لكني الآن وأنا أسترجع كل ما جرى في ذاكرتي أكتشف أن ذلك بالضبط هو السبب في كرهي. إنه لم يخطئ. نعم، كأني أكرهه لأنه على حق، ولأنه جعلني بذلك أبدو لنفسي خاطئا.

أصغى السيد تشارلز بصمت إلى حديثي طيلة العشاء. وفقط عندما فرغنا من الطعام وكادت زجاجة البراندي تفرغ رمقني

بنظرة متفحصة ثم صرح برأيه الخاص. «هل تعلم يا جورج لو أن السيد بيرس فعل ما يريد وحوكم أولئك الرجال فإن شركتنا ستكون الخاسر الأكبر. ستنهار بالتأكيد». أشعل غليونه وتابع: «إنهم يستحقون العقاب بلا أدنى شك، ولكن لم يحدث في تاريخ هذه الأرض أن رجلا أبيض شُنق بسبب قتله أحد السود بصرف النظر عن نصوص القانون. ستكون النتيجة ضجة كبرى في إنجلترا لن يستفيد منها سوى أعدائنا، ولن يتذكر عندها كل ما قمنا به هنا. ستضج الصحف بالخبر، وستنهار الأسعار في سوق الأسهم، ولن نجد أنفسنا عندها إلا على بعد خطوة واحدة من الإفلاس. بالطبع كل ذلك لا يهم السيد بيرس». نفخ هنا في غليونه ثم تابع: «كم كان من الأفضل لو أن الأمر ترك لي. بوسعي كمدير أن أجعل أولئك الرجال يندمون على فعلتهم بنفس القدر لو أنهم أخذوا للمحاكمة في هوبارت، ولكن سأفعل ذلك بهدوء وبطريقتي الخاصة».

«هل ستفعل ذلك؟».

«ليس الآن. سأفعل لكن ليس الآن. سأنتظر إلى ما بعد قدوم الحمولة».

لا أظن في الواقع أني كنت بحاجة إلى إقناع. فأنا أتيت إلى هنا بحثا عمن أتواطأ معه لأهرب من نظرات الازدراء التي حاصرني بها السيد بيرس. وهكذا وجدت نفسي تلك الليلة أوقّع على شهادة زور. «أشهد أن عدد القتلى من السكان الأصليين لم يتجاوز الستة وأن رجالنا تعرضوا لاعتداء مفاجئ».

لم أرض السيد بيرس بعد ذلك لفترة طويلة، ومع مرور الأيام تلاشت تلك الضغينة الغريبة داخلي وتحولت إلى إحساس طاغ

بالعار، وهذا ما جعلني أتحاشى التفكير طيلة ذلك الوقت بزيارة تلك البقعة اللعينة من الأرض، قرب المستعمرة. لكن رأيي تغير عندما سمعت في أحد الأيام حديثا بين رعاة الماشية.

«لا أعرف ما الذي يأكله»، قال أحدهم: «جرذان على الأغلب».

ضحك الآخرون. «وليس لديه ما يكفي أيضا كما يبدو من مظهره. من يدري، قد نرتاح منه قريبا».

«وسيكون في هذا خلاصنا».

عدت على الفور إلى كوخي وأخذت كمية من الطحين. وجدت السيد بيرس جالسا تحت ما يشبه سقفا من الأغصان والأوراق امتد بين شجرتين. كان مشعثا وقد نمت لحيته وشعره وتشابكا في خصل قذرة، تماما كمشرد بائس. حاولت التكلم معه مرارا لكنه رفض أن ينطق بكلمة واحدة، ناهيك عن أن يقبل الطحين مني. تركته بالقرب منه ومضيت عله يأكل شيئا بعد رحيلي.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت سفينة صيد حيتان أمريكية إلى المرفأ بعد أن غيرت مسارها بسبب سوء الطقس. وعلى الفور توجه السيد بيرس إلى الشاطئ وتمكن من تأمين سفره إلى لونسيستون على نفقته الخاصة. قام السيد تشارلز بدعوة قبطان السفينة إلى العشاء في مقر الشركة، وأخشى أنه قام بتزويده دون علم السيد بيرس بشهادتي المكتوبة لترافقه في الرحلة. وبعد أسبوع واحد فقط وصلت حملة استيطان جديدة من إنجلترا. تغير العالم كله في لمح البصر وتضاعف عدد سكان المستعمرة وشاع فيها جو من الحيوية والألفة، إذ إن العديد من الرجال الوافدين أحضروا زوجاتهم وأطفالهم معهم. وبالرغم من كل المشاغل التي أتت بها التطورات الجديدة لم أنسَ أن أذكر السيد تشارلز بوعده أن يعاقب رعاة الماشية.

«سأعالج الموضوع في الوقت المناسب، لا تقلق. لكني لا أستطيع التفكير في أي شيء الآن. لدي الكثير من المشاغل كما ترى».

لم يرضني رده الفاتر، إلا أني لا أستطيع أن أنكر كم كان مشغولا بشؤون المستعمرة. جلبت الحملة معها أربعة نجارين وأخشابا للبناء أيضا. راحت المساكن الجديدة تنتشر في كل مكان كأنها تتبرعم من الأرض، بيوت حقيقية، وليس مجرد أكواخ من اللحاء والصفيح. أعددت خطة لبناء كنيسة أيضا ووصلت مع الحملة أعداد من الماشية بينها خراف التخصيب. باشرنا بالعمل على توسيع أراضي الشركة إلى حدود جديدة تلبي الحاجة. وفي خضم ذلك كله فاجأني السيد تشارلز بتعييني خلفا للسيد بيرس كمسؤول زراعي أول في المستعمرة. لن أقول إني لم أشعر بشيء من القلق تجاه هذه المسؤولية الكبيرة، فأنا ما زلت شابا لأضطلع بعمل كبير كهذا، لكني في ذات الوقت رأيت أنه سيضيف الكثير إلى خبراتي وسيمكنني من التأثير على مجريات الأمور في المستعمرة، وعلى الأقل سأكون قادرا على منع تكرار الأحداث المؤسفة التي جرت من قبل.

حدث الاعتداء بعد وصول السفن بأسبوعين فقط. كانت المستعمرة لا تزال تحت حراسة مشددة، وبقي لغزا غامضا كيف تمكن السكان الأصليون من الوصول خلسة إلى مقر الشركة. لم يرهم أحد سوى السيدة تشارلز. في خضم انهماكها فيما أتت به السفن من أصناف الطعام كانت تعمل إلى وقت متأخر على إعداد صنف من الحلوى حين رأت عشرة منهم يدخلون من الباب ويحملون في أيديهم المشاعل. أخرسها الرعب ولم تتمكن من التفوه بكلمة واحدة. لم يتعرضوا لها بأي أذى، وكل ما فعلوه

أنهم أوقدوا النار في الستائر والأثاث بهدوء، ثم مضوا كما جاؤوا. وعندما تمكنت لاحقا من تمالك نفسها وتحذير زوجها والآخرين كانت النار قد بدأت تلتهم كل شي إلى أن تعذر إطفاؤها، ولم يمض وقت حتى احترق كل شيء وانهار ذلك المنزل البديع. في صباح اليوم التالي عُثر على سوتن واثنين من رعاة الماشية قرب أكواخهم قتلى بسهام اخترقت أجسادهم.

بدأت حملة بحث فوري عن السكان الأصليين، وأصدر السيد تشارلز تعليمات صارمة بأن لا يتم إيذاؤهم إن أمكن وأن يُحضروا إلى المستعمرة أحياء ليصار إلى إرسالهم إلى لونسيستون حيث يُسلمون إلى الجهات المختصة. إلا أن ما حدث في الواقع أن أحدا منهم لم يتم القبض عليه، وكل ما أسفرت عنه الحملة رؤية دزينتين منهم يسيرون على تلة بعيدة باتجاه الجنوب، ولمرة واحدة فقط. تبعهم الرجال، لكن سوء الأحوال الجوية جعل ذلك صعبا وما لبث أن فُقد أثرهم. والحقيقة أن ذلك لم يزعجني أبدا.

كل ذلك حدث منذ أسبوعين فقط، وليس في كل الأحوال نهاية ما لدي من أخبار. فأنا لم أصل بعد إلى الموضوع الذي جعلني أسارع للكتابة إليك يا أبي.

نحن الآن في أواخر ديسمبر، والربيع في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ينقلب صيفا، وعندما يكون الطقس هادئا تكون الليالي هنا دافئة وعذبة وطويلة. كثيرا ما يحلو لي في ليلة كهذه أن أتمشى بعد نهاية عملي إلى الشاطئ لأتأمل المحيط الشاسع. فعلت ذلك منذ أربعة أيام وبقيت هناك حتى حال لون الضوء ببطء متدرجا من القرمزي إلى الوردي ومن ثم إلى زرقة الغسق الداكنة. وفي طريق عودتي كان علي أن أجتاز المستعمرة كلها التي

أصبحت الآن تعج بمواد وأدوات البناء، وما كدت أجتاز نصف المسافة حتى تناهى إلى سمعي صوت. لم يكن في الحقيقة سوى ضحك تردد بهدوء واضحا. وعلى الفور ميزت صوت السيد تشارلز، وعندما نظرت في غبش المساء رأيت الشخص الذي كان يتحدث إليه. كان هيغس راعي الماشية.

أمر عارض، بل وهامشي أيضا. أعترف بذلك. ولكني لا أدري لماذا لا أستطيع صرفه عن ذهني مهما حاولت!

ها أنا يا أبي كتبت لك كل شيء. كل شيء بتفاصيله، ولعل لهذا السبب لن تصلك هذه الرسالة أبدا.

بيفاي، 1828

حلمت بوجبة من اللحم المشوي، لكن بدلا من ذلك وجدت القتال في انتظاري. لم أكن قد شهدت معركة من قبل، إلا أن تارتوين روى لي الكثير من الأخبار والحكايات. هناك أشياء يمكن أن نفهمها دون أن نعرفها في الواقع. لم تكن معركة بمعنى الكلمة، بل مواجهة بين قبيلة الروينغين وقبيلتي. كان الأمر بمثابة لغز بالنسبة لي. فالروينغين كما عرفت عنهم ينتمون إلى عالم آخر بعيد حيث يتوجب عليهم العيش دائما، ولم أر يومها أنهم كثر كعادتهم. كنا في الواقع نفوقهم عددا، إلا أن قوتهم كانت في عدتهم. كان لديهم الكثير من السهام بينما لم يكن لدينا سوى القليل في يد تارتوين وبضعة رجال آخرين. جعلني كل ذلك أقلق بشدة، وأتساءل فيما إن كانت قبيلتي ليست سوى رهط من الحمقى المساكين.

«أنتم جبناء»، شرع الروينغين بالغناء ليبثوا الرعب في قلوبنا. «سنقتلكم في الحال».

«أنتم كاذبون وغشاشون»، أجبناهم بالغناء من طرفنا. «واليوم سُتقتلون».

كانت المعركة في غاية البطء. لم يحدث شيء واستمروا في التلويح بالسهام وتبادل التهديد بالغناء. كنت أراقب، وعندما طال أمرهم

على هذا الحال دون أن يحدث قتال حقيقي توجهت إلى الدغل حيث كانت جدتي والنسوة الأخريات يقفن. استطعت أن أرى البهجة على محيا جدتي حين رأتني رغم عدائيتها، كأنها لا تستطيع أن تكون سعيدة البتة!

«بيفاي، أين كنت؟ بحثنا عنك في كل مكان»، سألت جدتي.

سرني ذلك. قلقوا علي إذن! سألتها متى بدأ هذا القتال. أجابتني أن المشكلة بدأت صباح البارحة حين رأى رجال قبيلتنا الروينغين يمشون في الغابة، الغابة التي تخصنا وتقع في عالمنا. كأن هذه الجهة من العالم لنا وحدنا! هذا سبب موجب للقتال بالطبع، إذ إن أكثر قوانيننا تشددا تنص على أن يبقى كل في مكانه إلى إن سُمح له بدخول أمكنة الآخرين.

ثم أخبرتني كيف كاد ينشب القتال حين أراد الروينغين رواية قصصهم. قال غونار إنهم لا يستطيعون فعل ذلك، لكن تارتوين الذي لا يحب القتال كثيرا سمح لهم. حكايات كئيبة للغاية. قالوا إن الأشباح جاؤوا إلى أرضهم بأعداد كبيرة وأحضروا معهم حيوانات كالأشباح أيضا، خرقاء وصغيرة بلون الثلج. كان أولئك الأشباح ودودين في البداية، لكنهم بعد ذلك أخذوا يخطفون نساء الروينغين فنشبت معارك صغيرة متفرقة. وفي أحد الأيام وبينما كان الروينغين يبحثون عن سمك الإنكليس ليصطادوا هاجمهم الأشباح بعصي تصدر انفجارات قوية وقتلوا كل من استطاعوا، كبيرا أو صغيرا، رجلا أو امرأة، ثم رموا الجميع في البحر. رد الروينغين فيما بعد بقتل بعض من الأشباح الذين ردوا بهجوم مضاد، لكن هذه المرة بأعداد أكبر. وكانوا كلما حاولوا الرد يجدونهم كثرة. دائما يفوقونهم عددا، حتى لم يعد بوسع

الروينغين البقاء في أرضهم. لم يكن هذا سوى الخراب بعينه، إذ إن من المستحيل على الإنسان أن يهجر أرضه. كمن يموت تماما، أو لربما هكذا اعتقدت في ذلك الوقت.

أراد غونار قتل الروينغين في كل الأحوال، على الرغم من حكاياتهم، لكن تارتوين شعر بالحزن وتعاطف معهم. وهكذا قال لهم إن رجالنا لن يقتلوهم إن وافقوا على أن يرحلوا فورا وألا يعودوا إلى هنا مرة أخرى. وافقوا بالطبع، وبدا أنهم ذهبوا. في صباح اليوم التالي كان معظمهم قد رحلوا، إلا قلة عادت إلينا وبدؤوا يصيحون من خلال أغصان الأشجار على تارتوين طالبين أن يدعهم يبقون في عالمنا. رفض تارتوين ذلك، بل كان أكثر تشددا من الجميع الآن وأكثر حتى من غونار الذي كان تعنته قبل لحظات مجرد حماقة. وهكذا تأهب الجميع للقتال.

«عودوا إلى عالمكم»، هتف رجالنا. «عودوا وإلا فستقتلون جميعا».

في كل من الطرفين كان هناك من يستعجل اندلاع القتال. لدينا كان غونار، ولدى الطرف الآخر رجل قصير بعينين تقدح شررا. يبدأ كل منهما بالتقدم نحو العدو بإقدام وشجاعة هاتفا وملوحا برمحه ثم ينظر وراءه ليرى ما إن كان بقية رفاقه يتبعونه، وفي كل مرة لا يجد أحدا. استمر الحال هكذا، حتى خلت أنه ما من قتال سيحدث أبدا. ثم بدأ حال المتحاربين يثير الضحك. تقدم محاربهم صارخا ومحرضا برفع السهام والتلويح بقبضته، لكنه ومرة أخرى التفت ولم يجد أحدا وراءه فعاد أدراجه. وأثناء تراجعه إلى الوراء حصل ما أدى إلى الكارثة. تعثر وسقط على الأرض. أذكر أن البعض منا ضحك، وقد كنت بينهم، ولكن ليس غونار. لم يضحك بل قفز مبتهجا بالفرصة

الثمينة. ركض ورمى برمحه الذي انطلق كالريح وأصاب مقاتل الروينغين محدثا صوت اختراق في جسده سريعا وخاطفا... ششش... ششش... أحدث ذلك جرحا ذا حجم كبير في بطنه، ورغم أنه حاول أن ينهض وهو يصرخ إلا أنه لم يتمكن من ذلك.

لم يتمالك الروينغين أنفسهم من شدة الغضب فاندفعوا باتجاه غونار الذي أصيب برمحين، أحدهما في رقبته. آلمني ذلك كثيرا، وملأ قلبي الأسى لرؤيته يصاب إصابة بالغة كهذه. عم الهياج والغضب في هذه الأثناء؛ الكل حمل سهامه وصوب متأهبا، أو كمن وراء شجرة استعدادا لنزال وشيك. أحسست فجأة ولأول مرة في حياتي أن قتالا دمويا سيحدث، وأن الجميع سيهلك في وطيس حرب لم يحدث مثلها من قبل.

وهنا سمعنا ضجيجا هائلا.. ضجيجا لم أسمع مثيلا له في حياتي، دوى قويا كالرعد، وخاطفا حتى إني لم أكد أسمعه حتى تلاشى. زلزل الدوي ما حولي، ودوى في أذني كصخور تنهار بفعل ريح عاتية كأنما تلقيت لطمة عظيمة على رأسي. خلت للحظة أنه صوت الموت ذاته وأني لست الآن سوى شبح، لكني نظرت حولي فرأيت الآخرين مثلي أخرسهم الذهول. ثم رأيت الغرباء. نعم، لا بد أنهم كانوا هناك منذ البداية، لكني لم أنتبه إليهم بسبب العراك. وقفوا بجانب الأشجار، ليسوا كثرة بل أقل حتى من الروينغين، لكنهم أقوياء. تتقدمهم امرأة وجهها جامد كالحجر وتحمل عصا غريبة يقارب طولها الرمح لكنها غليظة كهراوة وذات نهاية مدببة. عصا بدت جديدة ولامعة ويتصاعد الدخان من فوهتها. دهشت لذلك؛ فمن أين ينبعث الدخان وما من نار هناك؟ لا بد أن فيها قوة سحرية ما. تلك المرأة هي من صرخ علينا.

«لن أدعكم تقاتلون بعضكم.. يجب أن تقاتلوا من أجلي».

توقف القتال بالطبع وقد أصابت المفاجأة الجميع بالارتباك. البعض ركض ليختبئ فوق الشجر، بينما وقف البعض الآخر يراقب بذهول. أي لغز هذا! المرأة التي لم أرَها من قبل تحدثت بلغتنا. بل وفوجئت بأحجية أخرى أيضا، فقد رأيت جدتي التي لم تبكِ في حياتها تجهش بالبكاء.

«من تكون هذه المرأة؟» سألت.

أجابت جدتي، ولأول مرة لم أرَ الكراهية في نظرة عينيها. «إنها أمك».

وأخيرا رأيتها. ليست طويلة وجميلة كما تخيلت، بل قصيرة بذراعين وساقين قويتين وعينين متقدتين متأهبتين للقتال. وما أهمية ذلك الآن وقد تحقق ما كنت أتوق إليه من سعادة! أي بهجة تجتاح كياني. ها قد أتت للبحث عني أخيرا. لم أنتظر، وركضت نحوها. ركضت متجاوزا الجميع، أبناء جلدتي والروينغين والغرباء والحيوانات الغريبة التي لم أرَ مثلها والتي كانت تشبه النمور ويسمونها الكلاب. لم تنتبه إلي حتى اقتربت منها فأمسكت بساقها وناديت: أمي!

تلقيت لحظتها صدمة كادت تفتك بروحي من الألم. فقد غاب التوقد في عينيها وراء صقيع لا يطاق وتحولت نظرتها إلى ما يشبه بحرا متجمدا. دفعتني بقوة جعلت ذراعي تؤلمني وابتعدت عني. اقتربت من صبي صغير له ساقان نحيلتان تجعلانك تريد ضربهما. وهل تعلمون أنها حملت ذلك الكائن المقرف بين ذراعيها كأنها تحتضن تحفة ثمينة! أجل، كانت أول مرة تقع عيناي فيها على تاياليه، ذلك المخلوق الذي لم أتخيل أنه يمكن أن يكون أخي.

الفصل الثالث
القبطان إيليام كويليان كيولي، يوليو 1857

قضينا ثلاثة أسابيع كاملة محجوزين على ذلك الرصيف المحاصر كأننا فئران في صندوق. حتى نهر المياه السوداء كان ليبدو الفردوس بعينه بالنسبة لما عشناه. فالنهر يقود في النهاية إلى مدينة بالدون حيث السواقي الموحلة، كأن الطين هو ما تسعى إليه في ترحالك ولن تجد غيره بانتظارك. كل الساحل الشرقي من إنجلترا سهول موحلة لا شيء فيها سوى ذلك الامتداد العبثي من الرياح والطيور والسماء، والكثير من الطين بالطبع. أما لندن هذه فما إن تجتز شوارعها حتى لتبدو كل قطعة منها مساحة من الجمال والروعة. ولكن كما يقول حكيم: مقابل كل يوم أحد دافئ في الصيف هناك ثمن يوم عاصف تدفعه في الشتاء. وفي حالتنا كان ثمن الحرية واضحا بالنسبة إلينا، أن يتبختر أولئك الإنجليز على سفينتنا كأنهم يملكونها. ثلاثة مسافرين، والأسوأ أنهم كلهم إنجليز. لم أكن بالطبع مرتاحا للاتفاق. توقعت أن تتعرض سفينة الإخلاص لشتى أنواع الإهانة، أن تقرضها الأسماك، أن تمتلئ بفضلات النوارس، وأن يفتشها وينبش أركانها ضباط الجمارك.. أما أن تكون هكذا مستأجرة من هؤلاء المسافرين، فلا، لم أتخيل ذلك إطلاقا.

وأي مسافرين غريبين كانوا! ثلاثي من أولئك الأذكياء البغيضين الذين لا يتفقون على شيء، والذين لا يكلّون عن التبجح، وكلما سنحت لهم الفرصة يستعرضون ما في عقولهم من مماحكات وجدل وهم يتمشون بأدمغتهم العظيمة على الرصيف. وأعجب ما رأيت من أمرهم أنهم كانوا يسعون إلى اكتشاف جنة عدن بأنفسهم. جنة عدن! أليس من الأجدى أن يتركوها في مكانها الأصلي، العهد القديم؟ وليتهم كانوا يبحثون عنها في مكان معقول، بل في جزيرة نائية في أقاصي الأرض تدعى تاسمانيا. مكان لعين لحد الجنون، كله سجون ومنفيون وما هو أسوأ، ولا يفكر بالإبحار صوبه سوى الحمقى. أجل، كان علينا أن نصطحب أولئك المدعين الثلاثة كل تلك المسافة، ذهابا وإيابا، على مدى سنة كاملة من الإبحار مع رجال إنجليز. مجرد التفكير بذلك يسبب الضيق، إذ كان يكفي كربا اصطحابهم حتى مالدون.

أسوأ ما في الأمر ما كان علي أن أحتمله برفقتهم خلال أوقات الوجبات في قاعة الطعام على متن السفينة. ابتساماتهم المتكلفة، كلمات الشكر الزائفة وعبارات ثقيلة مثل «أتساءل فيما إن كان بإمكانك أن تناولني الملح لو سمحت يا كابتن». أثقلهم ظلا فيكار، الكاهن ويلسون، ذلك العجوز الذي لا يتوقف عن الثرثرة والابتسام، كأنه لا يتعب من نفسه أبدا. حقا يندر أن يرى المرء رجلا يملؤه الغرور بنفسه مثله، ويصعب عليك أن تراه وهو يبتسم ويلوك ما في فمه من طعام، ألا تشفق على الأسماك من الصدمة التي ستتعرض لها لو أنه سقط مصادفة في البحر. لم أرَ أكثر دناءة منه. أجزم أنه لا يمكن العثور على أحد بمثل خسته في كل نواحي لندن وزواريبها. بالكاد حصلت منه على ما يكفي من

النقود لتسديد غرامة الجمارك، وكان يتبعني وأنا أشتري المؤونة ويمد رأسه من فوق كتفي، كأني ممن لا يمكن الوثوق بهم. هل حقا يكفي هذا المخزون من الماء لرحلة إلى أستراليا؟ وهل يكفي البسكويت؟ وهل هناك ما يكفي من الأغنام والدجاج؟ وفي النهاية لم أجد أمامي سوى أن أملأ نصف السفينة بمؤونة ومخلوقات لا نحتاجها، وكأننا لا نريد سوى نقلها معنا إلى نهاية العالم. وفي نفس الوقت كنا نحمِّل شحنتهم الخاصة من المؤونة الفاخرة، شامبانيا وأفضل أنواع البراندي الفرنسي وأصناف خاصة من اللحوم، بل وحتى أطباق وأدوات طعام فضية لتكتمل طقوس موائدهم. وهكذا علمنا أن فيكار رغم كل شكواه وتذمره أغنى من حاوٍ تنقلب الأرانب بين يديه إلى ذهب.

لم يكن يمضي يوم دون أن يصدع رؤوسنا بشكاوى لا تنتهي؛ وفي موعد النوم كان ينق بصوت مرتفع حتى لأحسبه في القمرة المجاورة لي. فكرت في البداية أن أنظف ورشة النجار شايز كريستيان وألقيهم ليقيموا فيها، لكنني حسبت أننا لن ننال منهم بنسا واحدا إن فعلت، فأقلعت عن الفكرة واحتلوا قمرة الضيوف في النهاية. جعلت شايز كريستيان يجهز سريرا بطبقتين في مخدع برو ليحتله كل من الكاهن فيكار والدكتور بوتر. أما صبي الزراعة رينشو فجعلته يقيم في القمرة الثانية التي لم تكن أكثر من خزانة بمخرج يشبه الفوهة. وبالطبع لم يتوقفوا ثلاثتهم عن التبرم والشكوى بأنهم يريدون ما هو مريح أكثر، وكأنهم في باخرة ركاب بخارية. حتى كينفيغ وبرو انضما إلى جوقة المستائين وعلا العبوس وجهيهما، إذ لم يعد لهما مكان سوى المهجع مع بقية البحارة.

«لا تقلقا، سينتهي كل شيء عندما نصل إلى مالدون»، قلت لهما بلغة جزيرة مان.

ثم أتى ذلك الصباح الذي انتظرناه طويلا، موعد إبحارنا بعيدا عن ذاك الرصيف الكئيب في لندن. كنت أحلم أن أنطلق بهدوء وسلاسة، فلطالما اعتقدت أنه ما من خير في إثارة الضوضاء ونظرات الناس عندما ترفع الأشرعة. لكن ركابنا الإنجليز، لا يتفقون مع طريقتي للأسف. فقد تجمهر حشد من الناس على الرصيف لوداعهم ملوحين ومطلقين عبارات التمني والدعاء. أناس من شتى المشارب، قس بروتستانتي وبائع صحف، وجوناه تشايلدز أيضا، الممول الذي وقّع معنا عقد الإيجار وأعطانا المال. رأيته على الرصيف، فارع القامة كشجرة باسقة برأس صغير، فبدا كأنه زجاجة وهو يلعب دور صاحب الشأن متنقلا بين الناس تاركا لكل من يريد أن يصافحه. وأتى أولاد الكاهن أيضا، ثلة كبيرة من السمجين، وزوجته وأختها اللتان تشبهان زوجا من رجال الشرطة وقفتا تلوحان وتبتسمان كأنما تتحرقان لهفة لرحيل العجوز البليد. لم يكن حال رينشو صبي الزراعة أفضل، فقد وقف أبوه وإخوته يضحكون بجمود التماثيل، بينما راحت أمه تبكي وتنوح وهي تخرج هدية صغيرة ادعت أنها نسيت أن تعطيها لابنها ليتدفأ بها في ليالي تلك الجبال الباردة. ولم تكن الهدية في النهاية سوى زوج من القفازات البائسة التي لا تصلح سوى لشرب الشاي مع الملكة. أما ثالثهم، الطبيب، فقد كان أفضلهم في طقوس وداعه. تجمع ما يقارب طاقم مشفى كامل من الأطباء يتبادلون الخطابات فيما بينهم حول عظمة الهدف النبيل الذي هو ذاهب من أجله.

حُلت الحبال أخيرا وبدأت المراكب بقطرنا إلى خارج المرسى

المغلق، وما إن غادرناه حتى انسبنا مع مياه النهر باتجاه البحر. لم يعكر فرحي بعودة الإخلاص إلى البحر ثانية إلا الحضور الثقيل لأولئك الإنجليز الثلاثة على متنها وهم يحشرون أنوفهم في كل شيء ويسألون ويتلصصون. كنت أخشى أن يلاحظوا أكثر من اللازم. أمر آخر زاد من قلقي ولم أكن قد فكرت به من قبل؛ كيف سأتمكن من إفراغ حمولة سفينتي السرية مع وجود هؤلاء؟ لا يمكن نقل صناديق من البراندي الفرنسي وعلبا فاخرة من التبغ ومجموعات من أواني الزجاج الثمينة، من دون إثارة شيء من الهرج والمرج. لكن لا بد من فعل ذلك، وإلا فلن نتمكن من رد الأجرة لهم.

«ربما ما علينا سوى أن نرمي الثلاثة في البحر»، اقترح برو بمنتهى البساطة. لا يمكنني التفريق بين مزاحه وجدّه في كثير من الأحيان. لكن الريح هبت جنوبية ولم تدع لنا الكثير من الوقت للتفكير، فمالدون لم تكن بعيدة، ومع ظهيرة اليوم التالي كنا نقترب من شاطئها. أمرت الرجال أن يلقوا بالمرساة على مبعدة من ضفة النهر بحيث يتسنى لنا القيام بما نريد في البلدة القريبة منه، من دون أن نثير الانتباه. لم يكن ذلك مفاجأة سارة بالنسبة لركابنا، وما إن انتبه الكاهن إلى المرساة حتى علا صوته بالتذمر والشكوى.

«مالدون؟ لماذا بحق السماء! ألم أخبرك ألا وقت لدينا لأي تأخير؟»

«بسبب ساعة السفينة»، قلت وأنا أفكر أن هذا أقوى ما قد يخطر في البال من أعذار. «لا يمكننا الإبحار حول العالم بساعة معطوبة، فنفقد القدرة على تحديد موقعنا. سنضلُّ الطريق، وقد نجد أنفسنا ذات ليل دامس تائهين في مجاهل أفريقيا أو في أي ساحل آخر لا نعرفه».

هـدّأ ذلـك مـن روعـه قليـلا، فـما مـن شيء أكـثر نجاعـة في السـيطرة عـلى الـركاب مـن الحديـث عـن خطـر يحـدق بسـفينتهم. وفي الحقيقـة كان مـا قلتـه صحيحـا عـدا تفصيلـين صغيريـن أغفلتهـما، أننـا لم نكـن ننـوي الإبحـار إلى أي مـكان أبعـد مـن مدينـة بيـل، وأن سـاعة السـفينة كانـت تعمـل بمنتهـى الدقـة.

بعـد ذلـك حـان دور بوتـر: «إن كان الأمـر كذلـك، أليـس الأفضـل أن نعـود إلى لنـدن ونجـد هنـاك خبـير سـاعات مختصـا، فنحـن لم نبتعـد كثيرا».

خلـت لوهلـة أنـه ربمـا كان يشـتبه بنـا. اسـتبعدت ذلـك، ولكـن مـا مـن شيء مسـتحيل في نهايـة المطـاف. مـا كنـت متأكـدا منـه أن لنـدن هـي آخـر مـكان أريـد لعينـيّ أن تبصراه الآن. لم يكـن بوسـعي سـبر أغـوار ذلـك الجـرّاح، فقـد كان مـن صنـف يختلـف كليـا عـن صديقنـا الكاهـن فيـكار. فـإن كان ويلسـون رجـلا مـن جلـد وعظـام، فـإن بوتـر كان كتلـة مـن اللحـم. وإن كان ويلسـون ثرثـارا لا يتوقـف عـن التبجـح وحـشر أنفـه في كل شيء، فـإن بوتـر يجسـد الهـدوء ذاتـه كأنـه حيـوان غُريـر ضخـم لا يمكـن أن تأمـن لـه.

«مالـدون مينـاء صغـير ومرتـب»، أخـبرت بوتـر. «لـن يصعـب علينـا العثـور عـلى خبـير سـاعات جيـد هنـا».

لم يكن بوسعهم فعل شيء على أية حال، فالسفينة سفينتي.

أمـرت أن يُنـزل القـارب الصغـير إلى النهـر، ومضيـت لأبحـث عـن ابـن عمـي روب. لم يكـن العثـور عليـه بالأمـر السـهل. أعلـم أنـه يعيش قـرب مالـدون، لكـن كـما لأي أحمـق أن يخـبرك عـن قِـرَبٍ تختلـف، كـما تختلـف الخنازيـر والببغـاوات. «لـن تخطـئ عنـواني. سـتجد المكان بسـهولة، عـلى الشـاطئ مقابـل جزيـرة نـورثي»، هكـذا شرح لي. ولكـن

العناوين هكذا دائمًا. ما أكثر ما تبدو واضحة وسهلة ونحن على بعد شهور وأميال قبل أن نحتاج إلى الوصول إليها. تراسلنا أكثر من مرة لنرتب تفاصيل الزيارة، لكن لم يخطر لي أن أطلب منه رسم خريطة تسهل علي الوصول إليه.

«ما الذي هناك؟ انظر، إلى اليسار؟» صاح باريك كينفيغ فجأة. «يبدو كبيت».

لم نتبين في الضباب سوى كتلة بيضاء غامضة الملامح تراءت فوق السهل الموحل. «أجل، ربما... »

«أنا متأكد أنه بيت يا قبطان». قال كينفيغ بحدة كأنما أغضبته بقولي ربما. كان سريع الانفعال، ويمكن أن يثير غضب البحار ذاتها. يقول البعض إنه ورث طبعه هذا عن أبيه الذي خسر حصانه وعربته ذات يوم من أجل الشراب في حانة. حوادث كهذه لا ينساها الناس بسهولة، وتظل تتردد. البعض الآخر لا يتفق مع هذه الرواية ويقول إن حساسيته المفرطة وسرعة غضبه سببها قصر قامته التي لم تكن تتجاوز طول طفل صغير، وكأن لديه عقدة الأقزام التي تذكر بالإمبراطور بونابرت ذاته. لكني لا أبالي في حقيقة الأمر بكل تلك الروايات، فأكثر ما كان يحتاجه كينفيغ في عمله كمساعد لرئيس البحارة، أن يكون سريع الغضب وأن يصرخ على البحارة على الدوام ليمنعهم من التقاعس.

وبالعودة إلى ما كنت أرويه، شبح ذلك البيت الذي تراءى لنا في الأفق في ذاك اليوم. كنت حتى تلك اللحظة أنوي الذهاب إلى يمين جزيرة نورثي، ولكن فليكن ما أراد، نحو اليسار ليكف عن انفعاله. لا بد لحقيقة المكان أن تنجلي في النهاية، فإن وجدناه كان بها، وإن لم نجده فسيكون لدينا من نلقي عليه اللوم على

الأقل. لم يكن قارب التجذيف وسيلة سريعة لمقصدنا، ومع أن شاينا عملاق سفينتنا كان على المجاذيف فقد كنا نتقدم ببطء شديد. ورويدا رويدا مع انداح ألوان ضوء الغسق الوشيك بدأت ملامح ذلك الشيء الغامض تتضح لنا في الأفق، من كتلة بيضاء لا شكل لها إلى قوام بحواف محددة ثم إلى ما يشبه علبة كبريت يعلوها سقف، إلى أن تكشفت في النهاية ملامح البناء لنا بجوار يافطته التي تهتز بفعل الريح. كان حانة كاملة. لم يكن ما ننتظره بالطبع، لكن ما وجدناه لم يكن الأسوأ على أية حال. فالحانة هي المكان الأفضل لكي تسأل عن عنوان أي إنسان. أوقفنا القارب على الضفة ونزل كينفيغ ليسأل. لم تمض لحظات قليلة حتى رأيناه يخوض في الوحل عائدا نحونا، ومن ملامح وجهه عرفت لتوي أنه لا يحمل أخبارا جيدة.

«يعرفونه جيدا، وبيته ليس بعيدا من هنا. لكننا لن نجده. لقد سافر منذ بضعة أيام إلى كلوشستر، لكنهم قالوا إن أخبارا وصلتهم عن إصابته في عراك بالسكاكين هناك إصابة بالغة. لا يزال هناك».

أي حظ هذا. يبدو أن سوء الطالع يلاحقنا أينما ذهبنا ككلب عجوز لا يمكن طرده بعيدا. وهكذا وجدت نفسي دفعة واحدة، بلا مشترٍ وبلا أي طريقة للعثور على آخر، بحاجة إلى المال ومع ثلاثة مسافرين يتوقعون مني نقلهم إلى آخر العالم. إن كان هناك من أعتمد عليه في هذه المغامرة فإنه ابن عمي ليس غيره. لست ممن يبحث عمن يلقي عليه اللوم، لكن روب لم يكن عونا لي على الإطلاق بتصرفه هذا. كان يعرف حق المعرفة أننا في طريقنا إليه، وليس ذنبنا أننا تأخرنا قليلا. لم يكن عليه سوى أن يبقى هنا في

انتظارنا. لكنه ماذا فعل بدلا من ذلك؟ ذهب إلى كلوشستر باحثا عن المتاعب وعمن يطعنه بسكين.

«ربما علينا الذهاب إلى كلوشستر للبحث عنه»، قال كينفيغ.

لم يكن لدي مزاج للتجوال بحثا عنه وإثارة الشبهات. «حتى لو عثرنا عليه فقد نجده يحتضر». يمكننا الذهاب إلى مالدون والسؤال هناك عما يرشدنا إلى أولئك المشترين الذين حدثني عنهم روب. ولكن كيف نسأل ولم يذكر أمامي اسما واحدا لشدة حرصه، ربما خشية أن أصل إليهم وأعقد صفقة معهم من وراء ظهره. ثم، ألا يمكن أن تكون الجمارك قد أرسلت من يراقبنا؟ فهم يعرفون أننا في مالدون. «لكن بوسعنا أن نحاول فعل شيء آخر. أين قالوا إن بيت روب يقع؟».

ارتبك كينفيغ وبدت عليه الحيرة. «هناك في أول الجزيرة».

«إلى هناك إذن».

لم يكن ابن عمي من ذلك النوع الذي يوظف خدما، ولا بد أن زوجته الإنجليزية تجلس بجانب سريره الآن في كلوشستر، لذا كنت متأكدا أن ما من أحد في بيته. لم أكن أود أن أكون قاسيا بحقه، لكنه هو الذي نقض عهده ووضعنا في هذا المأزق الكبير. لولا تصرفه الأحمق ذلك الدودة، لما اخترقت جسده سكين ولكان الآن بألف خير، وأمورنا واضحة كماء المطر. لا، ما سنفعله ليس سوى تعويض بسيط، ولو اختار أن ينجو من الموت فسنقوم في يوم من الأيام برد بعض البنسات له، إن استطعنا أن نتحلى بما يكفي من اللطف واللباقة.

انكب شاينا والآخرون على المجاذيف ومضينا حول جزيرة نورثي. تنفسنا الصعداء بعد قراري، وحتى الأرض بدت لنا أكثر

رحابة وقد لاحت لنا مالدون بعد أن اجتزنا المساحات الموحلة. وصلنا بعد ذلك إلى منطقة امتدت فيها الأشجار بمحاذاة الشاطئ، وهناك رأينا بيتا.

«أين قاربه؟»، تساءل كينفيغ.

«لا بد أنه أخذه إلى كلوشستر»، أجبته بسرعة.

تركت فارتن كليغ في القارب كي يراقب لنا المنطقة ومضيت مع البقية عبر الأرض الموحلة. قرعتُ الباب زيادة في الحرص، وعندما تأكدت تماما من خلو البيت، درنا حوله نفحص النوافذ حتى عثرنا على واحدة لم يُحكم إغلاقها. بعد لحظات وجدنا أنفسنا في غرفة الجلوس. غريب ما الذي يحدث للمرء عندما يجد نفسه في بيت إنسان دون علمه. تجتاحك رعشة خوف رغم يقينك أن ما من أحد هناك. «لديه أشياء تبدو ثمينة هنا»، قال كينفيغ هامسا.

لم يكن مخطئا. نظرت فوجدت طاولة ومجموعة فاخرة من الكراسي ولوحات كبيرة رسم فيها قوارب بأشرعة مربعة الشكل، ورجال بقبعات غريبة يرفعون سلالا فوق عصي ويشبهون الصينيين. وعلى رف الموقد نماذج صغيرة لسفن بحرية صممت بحرفية عالية. لا يمكن أن يكون هذا مجرد تذكارات جُمعت مصادفة، فمن الواضح أن روب كان يتاجر وحده، وبشكل جيد فيما يبدو. لا بد من وجود نقود في مكان ما. بدأنا بالبحث في كل مكان، في الدروج والخزانات وكل ما وجدناه أوراق وأغراض لا تفيد في شيء. وفي النهاية عثرت على مجموعة من أدوات الطعام الفضية بدت لي ثمينة، ومن المؤكد أنه لا يحتاج إليها الآن وهو يلفظ أنفاسه في كلوشستر.

«هــذه تنفعنــا»، قلــت وأنــا أشــير إلى الأواني الفضيــة. «املــؤوا جيوبكـم، ولا تنسـوا هـذه السـاعة، هنـا عـلى الـرف». كانـت السـاعة تحفــة بديعــة وضعــت بجانــب المراكــب الصغــيرة.

«انظـر هنـا»، قـال كينفيـغ وهـو يحـشر مزيـدا مـن الملاعـق في جيوبــه. «عليهــا حــروف بلغــة مــا».

«وهذه أيضا»، وافقه كليغ وهو يرفع شوكة.

«هششش... » اقتربت محاولا أن أقرأ.

«وفي أسـفلها علامـة محفـورة أيضـا. تبـدو كأنهـا مرسـاة»، أضـاف كينفيـغ.

لم يعـد مـن مجـال أو جـدوى للاهتـمام بـكل تلـك التفاصيـل. أهـم مـا نفعلـه أن نأخـذ كل شيء إلى السـفينة عـلى وجـه السرعـة. إلا أني لم أكـن قـد يئسـت تمامـا مـن العثـور عـلى نقـود حقيقيـة في مـكان مـا فوجـدت طريقـي إلى الطابـق العلـوي بينـما كان الآخـرون ينسـلون واحـدا تلـو الآخـر مـن النافـذة وهـم يقرقعـون بمـا في جيوبهـم المثقلـة. كان الظـلام دامسـا فتلمسـت طريقـي حتى عـثرت عـلى بـاب أدرت مقبضـه ودفعتـه لأجـد نفـسي في غرفـة. تعـثرت بسريـر عليـه كومـة مـما بـدا لي أغطيـة وملاءات خمنـت أن روب لم يجـد الوقـت لترتيبهـا قبـل رحيلـه إلى كلوشسـتر. حاولـت البحـث عـن خزانـة أو دروج وشـعرت بالخيبـة عندمـا لم أجدهـا إلى أن ميـزت في العتمـة شـكل شـمعدانين فأمسـكت بأحدهـما ورحـت أتفحصـه لأكتشـف فيـما إن كان مـن الفضـة أم مجـرد معـدن لا قيمـة لـه. وهنـاك، وأنـا أتحسـس مـا في يـدي حـدث مـا كاد يشـلني مـن الذهـول. فجـأة سـمعت صوتـا حـادا ذا نـبرة عسـكرية.

«مـا الـذي تفعلـه هنـا بحـق الجحيـم يـا فيليبـس؟»

سبع كلمات فقط. هذا كل ما سمعته. لكن كم من الحقائق يمكن لسبع كلمات أن تخبر المرء. أولا أخبرتني أن ذلك السرير الذي تخيلته فارغا لم يكن كذلك أبدا. ثانيا تعرفت على رجل يدعى فيليبس وعرفت أنه على الأغلب خادم لا بد أن يكون ليلتها في إجازة أو أنه ذو نوم ثقيل. وأخيرا، ويا لهول ما اكتشفته في لحظات، أنا ببساطة لست في بيت ابن عمي روب.

كل ما فكرت فيه لحظتها أنه علي أن ألقي الشمعدان من يدي على الفور، فضة كان أم أي شيء آخر. انطلقت أجري خارج الغرفة وأنا أسمع خلفي صوتا آدميا أشبه بالعواء من كلام البشر. اندفعت خارجا من النافذة كقذيفة تنطلق من مدفع، وكانت قدماي في تلك الأيام تجيدان العدو، ورحت أجري باتجاه النهر. كان الآخرون لا يزالون في طريقهم يخطون بحذر متمهلين كي لا يتزحلقوا ويسقطوا في الطين. نظروا نحوي حين رأوني أركض باتجاههم وتخيلت أنهم على وشك أن يوقفوني بأسئلة غبية. لكن لم يكن لدي أي استعداد للوقوف أو لسماع أي شيء، ولحسن الحظ انبعث ضوء مفاجئ من أحد نوافذ المنزل مترافقا مع صوت ارتطام فأثار ذلك فضولهم وجعلهم يتحفزون. لكن الركض والأوحال لا يتفقان، فسقطنا عدة مرات ونحن نجري، وفقدنا عدة ملاعق وشوك إلا أننا تمكنا في النهاية من الوصول إلى القارب وغادرنا الشاطئ على عجل. انطلقنا نجذف بكل ما أوتينا من قوة ولم ينطق أحد بكلمة واحدة حتى عبرنا بعد مسافة قصيرة بكوخ بائس وقد قلب قارب صغير أمامه رأسا على عقب. هنا رمقت كينفيغ بنظرة قاسية، هو الذي سأل عن عنوان البيت في الحانة.

استغرقنا وقتا طويلا حتى اجتزنا النهر ولاحت لنا سفينتنا. كنت أجلس في المؤخرة أراقب بحارتي بجيوبهم المنتفخة، وكلما أمعنت النظر فيهم ازددت قلقا. وعندما اقتربنا من السفينة كنت قد اتخذت قراري، أو لعله كان نصف قرار لأني تركت النصف الآخر لما سيحدث مع الركاب. كنت آمل أن نجدهم نياما غارقين في أحلام الإنجليز الذكية ليتسنى لنا الصعود إلى السفينة وترتيب أنفسنا دون جلبة. لكن لا، لا يمكن لهم ولو لمرة واحدة أن يفعلوا ما يريحنا، وقد كانوا هناك يستندون على الدرابزين يراقبون.

كانت عينا الكاهن الأكثر تفحصا ودقة. «الساعة!» صاح عندما أصبحنا على بعد خمسين ياردا. «لقد وجدوا الساعة. هوريييي... حُلت مشكلتنا».

بدا رينشو صبي الزراعة أكثر تشككا. «هل أنت متأكد أنها الطراز المطلوب؟»

لم أكن أريد أن تكون هيئتنا ملفتة للنظر لدى عودتنا، لكن هذا ما حصل. فما إن وطأنا سطح السفينة حتى تحولوا كلهم إلى عيون تبرق فضولا.

«لكن كيف حدث أن تلطختم كلكم بالوحل هكذا يا قبطان؟» سأل الدكتور بوتر بنبرته المتشككة.

اكتفيت بهز كتفي.

«وأرى أنكم وجدتم أدوات طعام جديدة؟» قال الكاهن. «رائع. لا يحق لي أن أشكو، لكن لا بد من القول إن الأدوات التي لديكم هنا متواضعة».

لماذا كل سوء الحظ هذا؟! لدينا منه ما يكفي لملء نصف المحيط. لن يطول الأمر حتى يجدنا ذلك الرجل. لا بد أنه الآن

يحمل بندقيته ويقتفي أثرنا مع جيرانه، وما إن يجدوا آثار أقدامنا في الطين حتى يهتدوا إلى طريقنا ويجتازوا النهر قادمين إلى هنا ككلاب تتشمم رائحة أرانب. حتى لو أخفينا الملاعق والشوك وكل ما لدينا، فهناك على الأقل ثلاثة شهود، كل واحد منهم لديه من المصداقية ما لدى فرد من العائلة المالكة. كيفما فكرت في الأمر لا أجده سوى ورطة شنيعة. حتى الهرب لم يبد لي سوى حماقة لأنه سيثير ضجة في الجرائد. فهذا لا يحدث كل يوم. أن يُنهب بيت من قراصنة البحر هكذا. لا يحتاج الأمر سوى أن يلمح أحد أصدقائنا الإنجليز الخبر الخطأ في اللحظة الخطأ وفي الصفحة الخطأ من إحدى الجرائد لنشوى على النار مثل سمك الرنكة. فالاتجار ببعض المواد المهربة شيء، والسطو على البيوت شيء آخر تماما. هذا يعني السجن، وربما النفي. إنه دمار كامل.

لكن لا يمكن أن تكون تلك نهايتنا. لن يقبض علينا أحد متلبسين إن لم نكن هنا وشيء واحد على الأقل إلى جانبنا، الريح. كانت ريح تهب نشطة من مالدون باتجاه البحر، وإن كان بوسعنا المضي معها والابتعاد عن هنا لفترة فمن سيتذكر بعد سرقة الملاعق والشوك. أما إلى أين، فلم يكن هذا بالأساس خياري، إذ إن طريقنا قد رسمت لنا منذ البداية. «ارفع المرساة يا برو»، ناديت.

«إلى مالدون؟ لن نتمكن من الوصول مع هذه الريح».

«إلى تاسمانيا».

الفصل الرابع
جاك هارب، 1821 - 1824

مع نهاية موسم التخزين توجهت كالعادة إلى جورج تون في قاربي، وكنت أفكر كل الطريق، إن كان بوسعي الحصول على زورق تجذيف جديد بدلا من ذلك الذي فقدته. ساعدتني حركة المد والجزر عندما وصلت، فركنت قاربي على الشاطئ ومضيت أبحث عن ذلك النشال الجشع بيل هاسكينس. أعارني بيل عربته لأحضر الجلود من القارب، إذ لم يعد هناك نِد ليساعدني. بعد أن نقلتها ووضعتها أمامه على الأرضية جلسنا وانخرطنا في حديث النقود، وقد كان موفقا. قال إنه يعرف من لديه زورق تجذيف صغير طُلي حديثا وهو بحالة جيدة. دفع في الجلود أكثر مما توقعت، ما يكفي لثمن الزورق وما أحتاج من مؤونة، بل وزيادة على ذلك بعض الوفر. قال إنه لا يستطيع تأمين النقود الفضية حتى الغد، وكذلك الرجل صاحب الزورق، لكنه زودني بدولار إسباني وبقطعتين من النقود الفرنسية لأتدبر أموري بها حتى ذلك الحين.

كان ذلك كل ما أحتاجه، فبعد اثني عشرة شهرا وحدي على تلك الجزيرة، أكثر ما أتوق إليه أن أحظى بشيء من الأنس. مع المساء سأملأ جوفي بالروم وأنعم بملذات لِيْل في الغرفة الخلفية.

لا شيء خاص في ليل هذه، فهي قد تجاوزت أجمل أيامها، وكثيرا ما تكون حادة المزاج وتصدع رأسي بالشكوى عندما أقسو عليها قليلا. كنت على وشك أن أضاجعها مرة جديدة عندما اقتحم أولئك الأوغاد الغرفة بمعاطفهم الحمراء وبنادقهم. حاولت التخلص منهم والهرب. دفعت أحدهم وضربت رأسه بالحائط فسمعت صوت تهشم جمجمته، وأدميت وجه آخر بلكمة في فمه، لكنهم كانوا كثرا وتمكنوا من الإمساك بي.

اضطرب رأسي بأفكار ووساوس فظيعة، ونظرت بحدة وتساؤل إلى ليل التي ردت نظرتي كمن فُجع بكارثة فاستبعدت أن تكون هي. صرخت بضابطهم ذي المعطف الأحمر عندما سحبوني: «من إذن؟ من ذلك السافل الذي أرشدك إلي؟» ثم فجأة فطنت إلى ما خفي عني، وعرفت من هو.

شق علي أن أعود إلى زي السجناء بعد أن خلت أني تخلصت منه إلى الأبد. وباعتباري من الفارين ومن المشاغبين أيضا وُضعت في سخرة الطرق، أكثر العقوبات قسوة في السجن، خصوصا في أيام الشتاء الباردة. استمر ذلك سنتين إلى أن تشاجرت مع ضابط سليط اللسان فُنقلت إلى بناء المستودعات في هوبارت حيث تناقلت الأحاديث خبر محافظ جديد، عرف عنه التشدد، اسمه أولدر، ويقال إنه لن يرضى بأقل من جلدنا. ورغم فظاعة ما ينتظرني إلا أن ذلك لم يشغل فكري. ما شغل فكري وقتها هو صديقي القديم بيل هاسكينس. من أين له ذلك الذكاء ليستولي على قارب مليء بالجلود مقابل دولار إسباني واحد وقطعتين من النقود الفرنسية فقط؟!

بيفاي، 1828

لم يكن يملأ قلب أمي ويستحوذ على وجدانها سوى رغبة واحدة، أن نترك عالمنا ونمضي للبحث عن أبي ونقتله. بؤس وشقاء، أجل ومخيف أيضا، أن نذهب إلى مكان لعين لا نعرفه حيث الجبال والصخور والحكايات ليست لنا. البعض منا مثل جدتي وتارتوين لم يشأ أن يذهب، وهذا ما أثار هلعي، حيث كان علينا أن ننفصل ونتشظى مثل شجرة ضربتها صاعقة. كل منا كان عليه أن يختار بين الرحيل أو البقاء. مونغانا وأمه قررا البقاء، وقالت جدتي إن علي أن أبقى أيضا لأني صغير على القتال وإنها وتارتوين سيعتنيان بي، إلا أني كنت أريد الذهاب مع أمي. أتعلمون، اعتقدت أنه بإمكاني مع مرور الوقت أن أستميل عطفها وحنانها نحوي بما أنهما حقي بالأساس. ألم أنتظرها في كل ليالي الصيف وحلمت بها تخرج إلي ساحرة الجمال من البحر؟ لن أبقى وأترك ذلك المأفون الصغير أخي تاياليه يفوز بها وحده.

تاياليه يعني البومة، لكنه لم يكن يشبهها في شيء. فبينما كانت هي مثالا للقوة والسرعة كان هو على العكس ضعيفا بساقين نحيلتين ووجه خائف دائما. لم أتمكن من اكتشاف ذلك السر الذي جعل أمي تحبه وتتعلق به هكذا. كان إن حاول

رمـي سـهم، وغالبـا مـا يكـون فاشـلا ولا يصيـب هدفـه، تقـول إن تسـديده رائـع. وإن قـام بتسـلق شـجرة سـهلة لاصطيـاد حيـوان مـا يتخيـل وجـوده تغمـره بالمديـح قائلـة إنـه أشـجع الفتيـان. وحتـى كلـما جلسـنا قـرب النـار تحتضـن رأسـه الصغـير خوفـا عليـه مـن الـبرد والظـلام. كان ذلـك يدفعنـي إلى الجنـون غيظـا، فـكل مـا ينعـم بـه مـن دفء أحضانهـا لي أنـا وحقـي قبـل أي أحـد آخـر. ذلـك الصفيـق يجـب أن يمـوت ويختفـي. كـم تملكتنـي رغبـة عارمـة حتـى أعماقـي بـأن أقتلـه برميـة رمـح. مـا أسـهل ذلـك لـولا أمـي التـي لم تكـن تفارقـه وكلـما اقتربـت منـه رمقتنـي بنظـرة حاقـدة. كان تاياليـه يعـرف كـم أبغضـه، لكنـه لم يبادلنـي العـداء، وقـد حـيرني هـذا كثـيرا، حتـى إني لم أسـمعه مـرة واحـدة يخـبر أمـي أيـة أكاذيـب عنـي وكانـت سـتصدق أي شيء يقولـه. لمـاذا؟ ربمـا لأنـه لا يعـرف النقمـة، حتـى عـلى أعدائـه. أظـن أني كنـت سـأحبه أكـثر لـو كان ثائـرا أو سـاخطا وكنـا سـنكون عندهـا خصمـين رائعـين.

حـان موعـد الرحيـل أخـيرا، وأحزننـي فـراق كل مـن أعـرف، حتـى أولئـك الذيـن لا أحبهـم مثـل مونغانـا وأمـه. الروينغـين أيضـا أتـوا لوداعنـا الـذي كان بطيئـا ومضنيـا، وحتـى الـكلاب التـي أحضرتهـا أمـي صمتـت كأنهـا عرفـت أن مـا يجـري أمـر يثـير الألم والأسى. ثـم قالـت أمـي إن علينـا أن نمـضي، وبدأنـا بالمسـير وبعضنـا كأنـه يخطـو إلى الـوراء وعيونـه متعلقـة بمـن تـرك وراءه مـن أهـل ووطـن. ومـع كل خطـوة كان البـكاء يتراكـم في دواخلنـا حتـى تحـرر دموعـا ونشـيجا ونحـن نلـوح لمـن فارقناهـم.

حاولـت أمـي قتـل أبي مـن قبـل، ولكـن محاولاتهـا لم تنجـح. قبـل عـدة سـنوات، وكنـت لا أزال طفـلا صغـيرا، ذهبـت للبحـث عنـه

ووصلت إلى قرب شاطئ الجزيرة التي يعيش فيها، لكنها لم تجد قاربه الذي كانت قد خبأته من قبل. ربما هو الذي أخذه. كان ذلك ضربة موجعة لها، وقضت أياما عديدة وهي تتجول على طول ذلك الشاطئ تنتظر مرور قارب ما بينما تقضي وقتها في صناعة الرماح واصطياد الطرائد. لكنها لم تحظ بأي قارب. طاردها بعض الأوغاد البيض مرة ثم تعثرت وسقطت على حجر فأصيبت رجلها بجرح بليغ مما أقعدها عن صيد الطرائد وسبب لها المرض. بعد ذلك مشت مسافات بعيدة، إلى ما وراء عالم الروينغين، إلى أصقاع لم نسمع عنها حتى في الحكايات. كانت لا بد ستلقى حتفها لولا أنها وجدت جماعة تدعى تومجينر كانوا يأكلون السمك على شاطئ البحر. أوشكوا على قتلها، لكنهم عندما سمعوا قصتها أشفقوا عليها وقدموا لها الطعام والشراب. أخبروها كيف قام الأشباح بخطف نسائهم وقتلوا الكثير منهم دون سبب، وأنهم الآن في حرب معهم. كانت أمي تعرف الأشباح، لذا لم تكن تخافهم وأخبرتهم أنهم ليسوا أشباح موتى يقفزون في وجهنا، بل مجرد أناس أوغاد أتوا من مكان بعيد وراء البحار. أخبرتهم أيضا أن بالإمكان قتلهم بسهولة وأنه سبق لها أن قتلت واحدا منهم بحجر. بعد ذلك كفوا عن تسمية البيض بالأشباح وأطلقوا عليهم تسمية خاصة هي «نُم».

وهكذا أقامت أمي مع التومجينر وانضمت إليهم في حربهم لتتزوج في النهاية واحدا منهم ومن ثم تنجب ذلك الجرو اللعين تاياليه. ولم يمض وقت طويل حتى تعلمت فنون القتال وأصبحت تتفوق في مهارتها على كل التومجينر. ليس هذا فقط بل كانت دائما تفاجئهم بأساليبها الخاصة، أمر كان يصعب تصديقه لأنها

لم تكن غريبة فقط، بل وامرأة أيضا. مرة قتلوا رجلين من البيض في كوخهم فما كان منها إلا أن تسللت واستولت على تلك العصا السحرية التي تقتل بصوتها المدوي، والتي كانت تسمى بندقية. تذكرت عندما كانت في جزيرة أبي مقيدة إلى جدار في كوخه كيف رأته يعد بندقيته للقتل، وحاولت أن تفعل ذلك بحشوة من مسحوق وحجر قاتل. أعجوبة، هكذا رأى التومجينر في ما فعلته، فقد أصبحوا الآن قادرين على قتال البيض بسحرهم ذاته. تمكنت من قتل أحدهم بطلقة في رأسه بسهولة، ورأى التومجينر كيف أصبح الهلع يصيب البيض عندما يرونها وهي تحمل البندقية. حرصت جدا عليها، وكانت دائما تخبئها بعناية وتسد فوهتها بقطعة خشب لحمايتها من بلل المطر.

حل بعد ذلك وباء أصاب العديد من التومجينر بالسعال والإقياء. هاجمهم حينها البيض وقتلوا الكثيرين منهم ومن بينهم زوج أمي الجديد. نجحت أمي في الهرب وتمكنت مع البعض من النجاة بأعجوبة، وأصيب من بقي حيا بالضعف والوهن، فلم يعد أمامهم سوى أن يتركوا عالمهم كما نصحتهم أمي لأن البقاء لم يكن يعني في وضعهم ذلك سوى الفناء. وهكذا تركوا ديارهم ومعهم أمي وظلوا يرتحلون وصيد الطرائد مصدر قوتهم الوحيد حتى عثروا على آثار أقدامنا. لم تكن أمي تريد أكثر من ذلك، فعدا عن رغبتها وشوقها لترى قبيلتها، كانت تأمل في أن ننضم لحربها ضد البيض.

وهكذا وجدت نفسي في جماعتها. أي بؤس كان في تلك الأيام! افتقدت جدتي واشتقت إلى وجبات الطعام التي كانت تلقمني إياها بأصابعها العظمية الطويلة. افتقدت إلى تارتوين أيضا، إلى

حكاياته وتعاليمه ونظرته الحانية التي لم أكن أجد مثلها لدى أمي رغم مرور كل تلك الأيام برفقتها. كنت أحلم أن تقارب الأيام فيما بيننا، لكن عبثا، وهكذا وجدت نفسي وحيدا بين كل أولئك الغرباء إلى أن بدأت أشعر بشيء من العاطفة تجاه أبي الذي كنا نسعى لقتله. نعم، يقولون عنه إنه مجرد سافل، لكنه أبي على كل حال، وما من أب لي غيره، وشعرت أنه قد يكون أكثر عطفا علي من أمي. لكن أفكاري ومشاعري كانت تضطرب وتتغير بسرعة فأجد نفسي في لحظات أحلم بقتله وأتخيل كم سيجدني الآخرون ذكيا لو فعلت ذلك بنفسي. كان حلما جميلا أن أقتله، وأبقر بطنه برمحي فيفاجأ الآخرون ويهللوا معجبين بي، وتقلع أمي عن قسوتها وتغمرني بحنان أمومتها بينما يترك تاياليه وحيدا منسيا في مكان بارد.

بدأنا نقترب من تخوم العالم الذي نعرفه رويدا رويدا حتى وصلنا إلى عالم الروينغين. رأيت أماكن لم أرها في حياتي من قبل، وكم كان شعورا غريبا ومقلقا لنا، على العكس من الروينغين الذين أبهجتهم العودة إلى عالمهم في النهاية. أخذوا يشيرون هنا وهناك إلى جبال أو صخور يعرفونها دون أن يغادرهم الخوف في كل لحظة من أن يظهر البيض لهم فجأة ليرموا بهم من أعالي أحد الجروف كما فعلوا بأبناء جلدتهم. قالت لهم أمي علينا أن نتحاشى قتالهم الآن، فهم كثرة. علينا دائما أن نختار المعارك التي نستطيع الانتصار بها. هكذا تقول في أغلب الأحيان، وكانت على حق. طلبت منا أن نصنع عصيا مدببة كالرماح ونطمرها في أرض الممرات بحيث تبقى رؤوسها الحادة ظاهرة ليتعثروا بها ويصابوا. حرصنا دائما على التنقل بحذر شديد وعلى مراقبة طريقنا بدقة. كان الطقس

سيئا، والمطر ينهمر بغزارة على الدوام. قالت أمي إن هذا جيد لأن الرجال البيض لا يحبون المطر، وسيكمنون في أكواخهم بينما نحن ننسل ونقترب منهم خلسة. كانت على حق هذه المرة أيضا فنحن لم نلمح أي أحد منهم. ثم ما لبثنا أن وصلنا إلى البحر وتمكنا من رؤية جزيرة تلوح في الأفق كأنها غيمة رمادية. رأيت كيف تغيرت ملامح وجه أمي لدى رؤيتها تلك الجزيرة واستحالت إلى ما يشبه الصخر، فعرفت أنها لا بد موطن أبي. كان المطر يهطل بغزارة إلا أن الريح هادئة، طقس مناسب تماما للوصول إليه أثناء اختبائه في كوخه مثل كل البيض، ومن ثم ننقض عليه ونقتله. بدأنا بصناعة زوارق صغيرة من لحاء الشجر تكفينا جميعا حتى الأطفال، فقد قالت أمي إن المكان خطر جدا ولا يمكن أن نترك أحدا هنا. لم يبق على الشاطئ سوى الكلاب، وعندما اندفعنا في الزوارق إلى الماء أخذت تتمايل بنا وتعلو وتهبط مع حركة الموج مما أثار فزعي. لم أكن قد ركبت زورقا كهذا من قبل. قذفتنا الأمواج كورقة شجر تدفعها الريح، وهوى قلبي ذعرا وأنا أخال أني سأسقط في أي لحظة ويبتلعني ذلك المحيط بعد أن يتشظى لحاء زوارقنا الصغيرة. كانت السماء داكنة وكذلك البحر، وقد جعلني ذلك أحس بهول العمق فيما حولي، عمق لا قرار له، عمق مخيف جعلني أرى أننا لسنا مع زوارقنا البائسة سوى خنفساء على سطح بحيرة كبيرة. خفت أيضا من الحيتان، تلك المخلوقات الضخمة التي رأيتها تسبح من قبل. خفت أن تظهر لتقضم قدمي. لكن هذا لم يحدث. اقتربنا من جزيرة أبي حتى استطعنا أن نتبين معالمها ورأينا قاربا على الشاطئ ودخانا يتصاعد من الكوخ، إشارتان دلتا على حسن طالعنا وعلى أنه موجود في كوخه.

جعلتنا أمي نرسو على الجانب المقابل من الجزيرة في مكان أكثر بعدا لكنه في مأمن حيث لا يمكن لأحد أن يسمعنا. انطلقنا من هناك نمشي بحذر، وعندما اقتربنا رأينا امرأتين قيدتا وراء الكوخ بسلاسل لامعة، قالت أمي إنها قيودهم ثم بصقت على الأرض بغضب. ظهرت علائم الارتياح على التومجينر عندما رأوا المرأتين وتعرفوا عليهما. كانتا من بنات قبيلتهم واعتقدوا أنهما قتلتا عندما هوجموا في إحدى المرات. رمقت أمي التوجينر والمرأتين اللتين ظهرت عليهما علائم الابتهاج لرؤية الآخرين بنظرات قاسية لتجعلهم يحافظون على هدوئهم. تقدمنا بخطوات قصيرة حذرة حتى وصلنا إلى باب ذاك الكوخ، وبقوة وباندفاعة واحدة دخلنا نحن برماحنا وأمي ببندقيتها. كان المكان مظلما وعابقا بالدخان وروائح شواء السمك ودهن الفقمة، لكن ضوء النار كان كافيا لنرى. أول ما وقعت عيناي عليه عدد كبير من جلود الفقمة. كيف يمكن قتل كل تلك الأعداد من الفقمة؟! ثم رأيت عددا من أدوات الرجل، كان بعضها خشبيا وأكثر ما أثار دهشتي قطعا منحوتة من جذوع الشجر. على أحد تلك الأشياء الخشبية العجيبة جلس رجل أبيض داخل الكوخ أخرسته المفاجأة، وذهل لرؤيتنا حتى تدلى فمه مفتوحا كصدفة. نظر للحظة صوب بندقية معلقة على الحائط، كتلك التي لدى أمي لكنها أصغر، وعندما رأى أنها بعيدة جلس في مكانه ساكنا. يبدو أننا ربحنا هذه الحرب دون ضحايا. أجل، حالفنا الحظ في كل شيء وسارت الأمور كما نريد سوى أمر واحد.

تجهم وجه أمي وقطبت حاجبيها. لم يكن هو! بدا لنا ذلك أكثر مما يطاق وغمرنا إحساس من الأسى والتعاطف مع أمي

التي كان حلم حياتها أن تقتل أبي، عدا أن الأمر كان لغزا محيرا لنا، فهذه جزيرة أبي ومن المفترض أن يكون هنا. أخذت أمي تستجوب الرجل بلغته التي تعلمتها عندما كانت أسيرة أبي، على هذه الجزيرة. ثبتناه إلى الجدار، وكنا ننكزه برماحنا كلما تلكأ في الإجابة. كم أثار فضولي أن أرى رجلا أبيض يتكلم للمرة الأولى في حياتي، وبدا لي فعلا لا يشبه الكلام، إنما غمغمة غامضة تخرج من فم يغص بالسعال. أنا الآن بالطبع أجيد التحدث بتلك اللغة، حتى أفضل من أمي، ولم تعد تلك الكلمات سوى ما أقوله دون تفكير. لكن في ذلك الزمن كانت بالفعل شيئا جديدا ومدهشا. فوجئت بأمي تنطق باسم أبي للمرة الأولى، وكان جاك. لم أصدق أن ذلك اسم، إذ بدا لي لفظا غريبا لا يمكن أن يعني شيئا.

«أين جاك؟» سألت أمي وأعادت سؤالها عدة مرات. «أين ذلك الرجل الأبيض القبيح بالجرح الكبير هنا على وجهه»، ورسمت بإصبعها خطا على وجهها يشير إلى مكان الجرح. لكن الرجل لم يجب واكتفى بالنظر إلى الأرض. قال إنه لا يعرف وإنه جاء إلى هنا قبل صيفين هربا من رجال بيض يطاردونه ووجد الكوخ فارغا فاعتقد أن أحدا لم يطأ هذه الجزيرة منذ زمن بعيد. أحضرنا بعد ذلك امرأتي التومجينر الأسيرتين اللتين بصقتا عليه وأوسعتا وجهه لطما لكل ما فعله من القبائح معهما. ولكن مع ذلك قالتا إنه على حق، وإنهما لم تريا أي رجل غيره هنا. ما زلت أذكر كم كانت أمي حزينة لحظتها، وحتى عندما أخذ البعض الرجل الأبيض، وقتلوه في الخارج، لم يبارح الأسى والغم وجهها.

في صباح اليوم التالي أخذنا قارب الرجل الذي كان أكبر من زورقنا فاستطعت أن أبقي قدمي في الداخل وكانت المرأتان

المحررتان سعيدتين فقضيتا الطريق كله تغنيان. حتى الكلاب ابتهجت وأخذت تنبح بهياج عندما اقتربنا من الشاطئ. أمي وحدها كانت غاضبة لأنها لم تعثر على أبي، وعندما قال البعض إن علينا العودة إلى تارتوين وجدتي والآخرين تصلب وجهها كأنه حجر وقالت بصرامة: «لا. أتينا هنا لنقاتل، أليس كذلك؟» ولوحت ببندقيتها. بوسعها أن تكون مخيفة عندما يتملكها الغضب، وصمت الجميع عندما تكلمت وتبادلوا النظرات دون أن يجرؤ أحد على أن يتحداها. وهكذا، لم نتوجه جنوبا، بل شرقا بحثا عن مزيد من القتال.

السير تشارلز موراي، وزير المستعمرات، لندن، إلى جورج أولدر، حاكم أرض فان ديمن، 1828

أكتب إليك بخصوص مشكلة العرق الأصلي في مستعمرة جلالته. فبحسب ما لدي من معلومات، تضاءلت أعداد السكان الأصليين بشكل ملحوظ نتيجة لأحداث العنف بينهم وبين المستوطنين البيض، حتى كاد هذا العرق ينقرض كليا في العديد من مناطق المستعمرة. وأخشى إن استمر الوضع على هذا المنوال أن ينقرض سكان الجزيرة الأصليون تماما في وقت ليس بالبعيد. لذا فمن الضروري لفت أنظاركم إلى أهمية تجنب ذلك المآل. وفي الوقت الذي لا يمكن التساهل مع أي تمرد على سلطة المستعمرين، فإن الحفاظ على سمعة حكومة جلالته أمر يبقى في رأس قائمة الأولويات بالنسبة لنا. إن تدمير حضارة السكان الأصليين بصرف النظر عن همجيتهم وبدائيتهم سيشكل وصمة عار في سجل بلادنا، وستستغله الدول الأجنبية لإحراج جلالة الملك وممثليه في الخارج. لهذا فإنك مطالب

ببذل كل ما في وسعك للحفاظ على السكان السود، على الأقل بأعداد تكفي لاستمرار عرقهم في الوجود.

جورج أولدر، حاكم أرض فان ديمن إلى تشارلز موراي، وزير المستعمرات، لندن، 1928

في خطابكم الأخير الذي استغرق وصوله إلينا ما يقارب خمسة أشهر بسبب تعرض السفينة أفروديت لطقس غير مؤاتي الرياح، عبرتم يا سيدي عن قلقكم بشأن مصير سكان الجزيرة الأصليين. تأكد معاليك أن اهتمامي بهذه المسألة وانشغالي بها لا يقل عما لديكم، فمنذ وصولي إلى هذه المستعمرة قبل أربع سنوات يحتل مصير أولئك السكان المساكين صدارة الأولويات بالنسبة إلي. لقد بذلت قصارى جهدي لحمايتهم وتطوير حياتهم، لكن يؤسفني القول إن ذلك لم يكن سهلا على الإطلاق. فالسود كما علي أن أوضح لكم، ليس لديهم إدراك لما نسميه بالنظام الذي هو الأساس في كل شيء. فعلى الرغم من فوضاهم وطرقهم الملتوية كنت آمل أن يظهروا بعض الاهتمام والفضول بحضارتنا المدنية العظيمة التي ظهرت أمامهم فجأة، بزراعتنا وصناعتنا، بقوانيننا وطرقنا في العمل. لكن أخشى أني لم أحصد سوى الخيبة. أجل، ويؤسفني أن أحيطكم علما أنهم لم يكتفوا بذلك، بل قاوموا بهمجية مروعة كل ما كان من شأنه أن يرتقي بحياتهم الروحية، على الرغم من وجود العديد من الأخيار من رجالنا الذين لم يدخروا جهدا في تحريرهم من ظلاميتهم الأخلاقية.

لم تجعلني كل تلك المحبطات أقصّر بواجبي في حمايتهم. ولعلك تذكر أني نظمت أكثر الحملات فعالية للقبض على المحكومين الفارين الذين يشكلون غالبية من يعتدي على الأصليين، والذين فرّ معظمهم

خلال ولاية المحافظ السابق. نجحت تلك الحملة وحققت أهدافها، إذ تم القبض على معظم الفارين أو قتلهم، حتى أولئك الأكثر دموية وشراسة منهم. لكن الثأر والأحقاد كانت قد تمكنت من السود مع نهاية حملتنا، وأصبحوا ينتقمون من كل أبيض يكتشفونه مذنبا كان أم بريئا، ووجد الكثير من المستوطنين الأحرار أنفسهم مضطرين للرد على العنف بالعنف. ومرة أخرى واجهت المشكلة بما تقتضيه من السرعة وأصدرت العديد من التعليمات الصارمة التي تحض البيض على معاملة جيرانهم السود بالحسنى، وحذرت كل من يقتل أحدا من الأصليين أو يتعرض لهم أنه سيلقى أشد العقوبات. لكن لم يكن من السهل السيطرة على جزيرة كبيرة لا تقل مساحة وسكانا عن سكوتلندا. هذه حقيقة أثبتتها التجربة، إذ إن الكثير من المستوطنين استمروا في سلوكهم العدائي رغم كل تعليماتي، ومثلهم فعل السود بالطبع. لم تجد حكومة المستعمرة أمامها في هذه الحال سوى أن ترسل فرقا من الجنود لتعقب المعتدين من السكان الأصليين والقبض عليهم، ونادرا ما أفلحوا في ذلك. وفي الوقت نفسه، قام بعض المستوطنين بتنظيم فرقهم الخاصة لمطاردة السود. وهكذا، كما ترون يا سيدي، انزلقت المستعمرة إلى حالة من الحرب الشاملة بالرغم من كل ما بذلته من جهود.

ومما زاد الأمور تعقيدا أيضا سلوك بعض ملاك العقارات هنا. فقد راحوا يشيعون بين المستوطنين الأحرار أن حكومة المستعمرة غير قادرة على حمايتهم من السود، وفعلوا كل ما بوسعهم لتشويه سمعة ممثلي جلالة الملك عبر استغلالهم لخوف السكان البيض. نظمت الكثير من الاحتجاجات وحملات التحريض في جريدة كولونيال تايمز ولم توفرني أنا شخصيا من سمومها.

لم يكن مبعث قلقي ما لحق بي من تشويه لسمعتي بقدر ما لحق بحكومة جلالة الملك من تهديد لسلطتها. إن أي أرض يشكل المحكومون والسجناء السابقون غالبية سكانها لا تقل خطورة عن برميل من البارود، وإن الخراب الذي يمكن أن ينجم عن ذلك قد يودي بالمستعمرة كلها.

علينا فعل كل ما نستطيع للحيلولة دون تطور الأمور في ذلك الاتجاه. وهكذا كان علي اتخاذ إجراءات سريعة. لقد اجتمعت الأسبوع الماضي مع أعضاء الحكومة والموظفين الكبار بمن فيهم سكرتير المستعمرة وقائد الشرطة، ورغم أنه أمر محزن، فقد اتفقنا على أنه لم يعد بالإمكان حدوث أي مصالحة أو تسوية بين العرقين اللذين يعيشان على هذه الجزيرة. كما أني اتخذت توصية تقضي بأن الحل الوحيد لإنهاء الحرب بين الطرفين هو أن تقسم الجزيرة بينهما إلى جزأين منفصلين كليا، وقد بدأ تنفيذ ذلك بالفعل؛ تم إعداد خطة مفصلة تقضي أن يغادر السكان الأصليون المناطق المستعمرة وأن المناطق المخصصة لهم تقع في الغرب والشمال الشرقي فقط. تبدو لي القسمة عادلة، إذ إن مجموع مساحة المنطقتين لا تقل عن نصف مساحة الجزيرة كلها. صحيح أن تينك المنطقتين في الأغلب جبال وعرة صعبة الزراعة والاستثمار، غير أن عدد السود قد تضاءل بشكل كبير وأنا متأكد أن ما خصصناه لهم سيكون كافيا لحاجاتهم. زد على ذلك أن المنطقتين لم تستكشفا بعد من أي مستعمرين بيض، وهذا ما يجعلهما مناسبتين للسود لكي يعيشوا دون أن يتدخل أحد في شؤونهم. وبهذه الطريقة يمكننا أن نضمن استمرار هذا العرق المهدد.

يسرني أن أحيطكم علما أن خطتي هذه قد بدأت تحقق نتائج جيدة، فقد هدأت نفوس المستعمرين إلى حد ملحوظ وتمكنا من

استعادة الكثير من الهيبة لحكومتنا ولي شخصيا. لا تزال هناك عقبات في طريقنا بالطبع، أولها صعوبة تبليغ إجراءاتنا للسكان الأصليين. نقوم حاليا بطباعة أعداد كبيرة من القرار وتوزيعها في أنحاء المستعمرة، وقد أصدرت تعليمات بتثبيتها على الأشجار أيضا. هناك على الأقل اثنان من الأصليين يعرفون القراءة إلى حد ما، ولا بد أن يخبرا الآخرين من أبناء جلدتهم بمحتوى القرار. وإن أصر بعض السود على البقاء في مناطق المستعمرين وعلى القيام بأعمال عدائية فلا مناص وقتها من فرض حالة الطوارئ وإجراء ما يلزم إلى أن يمتثلوا للأوامر.

لا شك أن الخطة تتطلب وقتا حتى تحقق نتائجها المرجوة، لكني على ثقة أنها ستثبت نجاعتها وستكون أحد أهم إنجازاتنا من أجل تحقيق السلام على هذه الجزيرة. إنها تغيير كبير، لكني متفائل أنها ستكون خطوة في الاتجاه الصحيح نحو تحقيق هدفنا المشترك الذي لطالما أكدته سيادتك؛ أن نحافظ على وجود أولئك السكان الأصليين البائسين.

بيفاي، 1829

استمر الطقس عاصفا، مطر غزير وريح عاتية، فلم نصادف في طريقنا أي رجل أبيض يمكن أن يهددنا بالقتل ونحن نرتحل بحثا عمن نحارب. وهكذا مضينا في التجوال هنا وهناك، نصطاد الطرائد ونمشي إلى أن دميت قدماي وتهالكت الكلاب التي معنا من التعب. تنقلنا في عالم الروينغين ثم اجتزناه إلى عالم التومجينر رغم أن معظم هؤلاء كانوا برفقتنا لأن البقية قتلوا، ثم اجتزنا الجبال في صباح أحد الأيام فسمعنا أصوات الببغاوات ورأينا على الطريق فضلات الومبت[4]. كان هذا إشارة تعني أننا على مشارف أراض خصبة. لكن ما إن قطعنا مسافة قصيرة حتى فوجئنا بلغز محير. رأينا على شجرة سنط رمحا صغيرا أُلصق بصمغها ويلتمع كأنه صنع من تلك المادة التي صنعت منها بندقية أمي وقد تدلى منه شيء في غاية الغرابة. قطعة جلد رقيقة تتمزق بسهولة وما إن تلفحها الريح حتى تهتز وتصدر صوت خشخشة مثل ورقة شجر ميتة. نظرنا إلى ذلك الشيء فوجدنا خطوطا سوداء كثيرة غطت سطحه، كانت أشكالا مختلفة لا تشبه أي رسوم نعرفها. «هذا مجرد هراء الرجال البيض»، قالت أمي كأنها تشبع

(4) حيوان أسترالي صغير يشبه الدب. (المترجم).

فضول رهط من الحمقى. أردنا أن نحرق ذاك الشيء، لكن أمي قالت: «لا هذا يعني أنهم قريبون من هنا، وإن أشعلنا نارا فسنرشدهم إلى مكاننا».

لم نجبها، فما من أحد منا يجرؤ على فعل ذلك، فنحن الآن أتباعها وهي تثير الرهبة فينا، عدا عن أنها كانت دائما على حق لأنها تعرف الرجال البيض جيدا. لذا تابعنا مسيرنا بحذر محاولين جهدنا أن نحافظ على هدوء الكلاب التي كانت دائما في حالة هياج. ثم وجدنا قطعة أخرى من ذلك الهراء، معلقة على شجرة كينا هذه المرة. تلا ذلك مساحة من الأشجار المقطوعة وممر عليه آثار أقدام لرجال بيض. ثم رأينا فسحة كبيرة وحائطا خشبيا وراءه حيوانات غريبة، قالت أمي إنها من حيوانات الرجل الأبيض وتسمى الأغنام. لم أكن قد رأيت مخلوقات مثلها من قبل. كم كانت غريبة، بدينة تتراكض مع بعضها هنا وهناك بغباء على قوائم قصيرة لا تقوى على تسلق الأشجار أو الصخور. لاحظت أيضا أن الرجل الأبيض جعلها بيضاء مثله تماما. أردنا رميهم بالرماح لأن ذلك كان أسهل من التبول على صخرة. لكن أمي قالت لا مرة أخرى، علينا أن نلزم الهدوء والحذر. ثم ما لبثنا أن رأينا بعد خطوات كوخ الرجل الأبيض.

كان ذلك مذهلا ومثيرا للفضول حقا، حتى أكثر من تلك الحيوانات الغبية. مسكن صنع من لحاء الشجر وفتحة في سقفه يتصاعد منها حبل من الدخان، كأنما بفعل قوة من السحر. بالطبع لم تعد تدهشني أشياء الرجل الأبيض وحيله الآن بعد أن خبرتها، فتلك الحفرة لم تكن في الحقيقة سوى مدخنة، تماما كما كانت الجلود التي علقت على الأشجار مجرد أوراق. والخطوط

السـوداء الغامضـة تلـك لم تكـن سـوى كتابـة بوسـعي قراءتهـا الآن بيسر كـما يعـرف الجميـع. لكـن المجهـول دائمـا يثـير الفضـول؛ والرجـل الأبيـض يحلـو لـه أن يفكـر أنـك غبـي عندمـا لا تتقـن أمـرا يعرفـه. في الحقيقـة ليـس ذلـك سـوى غبـاء منـه، فهـو لا يريـد أن يصـدق أننـا قـادرون عـلى تعلـم كل مـا يمكـن أن يخترعـه، وفي أعماقـه يريدنـا أن نكـون متخلفـين.

كنـت لا أزال أنظـر إلى تلـك الفتحـة وأفكـر كيـف يمكـن للدخـان أن يتصاعـد منهـا هكـذا عندمـا خـرج فجـأة رجـل أبيـض سـمين مـن الكـوخ وتوجـه إلى كومـة مـن الحطـب وتبـول فوقهـا. «رأيـت هـذا الرجـل مـن قبـل»، قـال أحـد التومجيـنر. «لقـد قتـل أختـي».

كانـت أمـي سـتقتل ذلـك الوغـد عـلى أيـة حـال لكـن كلـمات رجـل التومجيـنر زادت مـن تحفزنـا، وهـو أمـر مطلـوب في القتـال. وهكـذا كنـا عـلى أهبـة الاسـتعداد، وكنـت خائفـا لأنهـا المـرة الأولى التـي أشـارك فيهـا في معركـة مـع البيـض، أنـا الـذي كنـت لا أزال أكـثر قـصرا وضعفـا مـن أن أجـرح أحـدا، دع عنـك القتـل. لكنـي كنـت أتـوق لأن أظهـر بطـلا عظيـما في عينـي أمـي وأريهـا كيـف يمكـن أن أكـون أكـثر شـجاعة وقـوة مـن الملعـون تاياليـه بسـاقيه النحيلتـين. عـاد الرجـل بعـد لحظـات إلى كوخـه وذهبنـا نحـن إلى ناحيـة الأشـجار. لم يسـتغرق الأمـر طويـلا. تسـللت أمـي مـع لاكلاي إلى وراء الكـوخ بحـذر ووقفنـا نحـن ننتظـر. أوقـدا النـار مـن شـعلتين معهـما في لحـاء الكـوخ فاضطرمـت ألسـنة اللهـب في لمـح البـصر، وتعـالى الدخـان كثيفـا خـلال لحظـات، ومـا إن أدرك الرجـال البيـض داخـل الكـوخ مـا يجـري، حتـى اندفـع أحدهـم خارجـا وأطلـق النـار مـن بندقيتـه، وسـمعنا أمـي وقتهـا تخاطبهـم بكلـمات في لغتهـم.

«أخرجوا أيها السفلة، سنقتلكم».

أصابتهم كلماتها بالهلع فجمدوا في أمكنتهم تحت تهديدها، وهي تصوب البندقية نحوهم، حتى كادت النار تلتهم الكوخ كله واسودت وجوههم بهباب الدخان. عندها فقدوا القدرة على الاحتمال واندفعوا يركضون من الكوخ غير عابئين بشيء والرجل السمين يحاول تصويب بندقيته تجاهنا فسارعت أمي إلى إطلاق النار عليهم من بندقيتها وتبعها لاكلاي من بندقيته التي حصل عليها من أمي أيضا. لم يكن مهما أن يخطئا التصويب، فسرعان ما انهلنا عليهم نحن بوابل من رماحنا وسهامنا، ولم تصب أي من رماياتي، حتى تساقطوا الواحد تلو الآخر قتلى.

هكذا انتهى كل شيء. والمزعج حقا أني لم أنل أي مديح أو ثناء من أمي، بل كان كل ذلك من نصيب تاياليه على شجاعته وقوته رغم أنه لم يفعل شيئا سوى الاختباء بين الأشجار والتفرج علينا. كم كان ذلك قاسيا! إلا أننا وفّقنا في تلك المعركة على أية حال. قتلنا كل الرجال البيض دون أن يصاب أحد منا وغَنِمنا بندقية الرجل السمين رغم أن أخمصها الخشبي كان مكسورا. أجل، شعرنا بالغبطة وتركت لنا أمي أن نقتل حيوانات الرجال البيض فرحنا نفعل ذلك بسهولة ثم تركنا كل شيء وراءنا ومضينا بمرح إلى الغابة حيث أوقدنا بعض الحرائق الصغيرة ونحن نغني لندفع الطرائد إلى الخروج. وقد حظينا في النهاية بولبين.

عندما اقترب حلول الظلام خيمنا قرب أحد السواقي وشوينا الولبين. أكلنا حتى التخمة ثم رقصنا رقصة الرجل الأبيض، وهي من ابتكارنا وقد أصبحنا الآن قبيلة جديدة، قبيلة أمي. قلدنا برقصتنا كيف يخرج رجل أبيض من كوخه ليتبول دون أن يدري

أننا نرصده، ثم كيف تتسلل أمي ولاكلاي، ثم كيف نردي البيض برماحنا واحدا واحدا. كانت رقصة رائعة أعدناها مرة تلو أخرى إلى أن نال منا التعب في آخر الليل واستسلمنا للنوم.

عندما أفكر الآن بتلك الأيام البعيدة التي تبدو لي كأنها حلم أو حكاية لم تحدث أبدا أتذكر أني قد سمعتهم يأتون بالفعل. أجل، لقد سمعت شيئا، إذ إن الإثارة منعتني من النوم. ربما كان صوتا خافتا كتقصف غصن صغير أو نباح كلب، لكنه كان كافيا لتنبيهي، ولعله هو السبب في أني لا أزال حيا حتى الآن. تلا ذلك الصوت دوي رهيب خلت أنه أصابني بالصمم كأني أغرقت رأسي في الماء. بالطبع أنا أعرف هذا الصوت الآن وأستطيع تمييزه كما أميز صوت أمي ذاتها. تمنيت خلال لحظات الصمت التالية أن يكون ما سمعت مجرد خطأ ما أو حماقة في استخدام بنادقنا. لكن لا، فسرعان ما دوى صوت إطلاق النار مرة ثم مرات عديدة مترافقا بصراخ ونباح كلاب. كانت نارنا قد خبت، لكني استطعت تبين لاكلاي وقد أصيب بجراح بالغة هو وبعض الآخرين إلى جانبه، وتمكنت من رؤية الرجال البيض وهم يتجهون نحونا في حلقة متراصة، بعضهم يطلق النار والبعض يحشو البنادق بينما يحمل البقية العصي والسكاكين. أعتقد لو أنهم قتلوا أمي أولا لتمكنوا من القضاء علينا بسهولة، لكنهم ارتكبوا الخطأ الذي أنقذنا. أطلقوا النار على الرجال أولا معتقدين أن هؤلاء هم الأكثر خطورة، لكن ذلك لم يكن سوى حماقة وغباء. نظرت إلى أمي فوجدتها تحدق فيهم، وبالتحديد إلى أضخمهم جثة في وسط حلقتهم، ثم ما لبثت أن صوبت بندقيتها وأطلقت النار عليه فأردته

لم يكـن يحـدث في الواقـع. أتذكـر ذلـك، كيـف تحركـت سـاقاي ويـداي وبـدأت أتلمـس طريقـي دون أن أقـف مجتـازا لاكلاي ثـم الآخريـن مـن قتلانـا إلى أن انتصبـت ورحـت أركـض. سـمعت مـن يطـاردني لكنـي لم ألتفـت واندفعـت أجـري بسرعـة الريـح لا أبـالي بمـا أرتطـم بـه مـن أشجار أو أجـرح قدمـي بـه مـن صخـور وأشـواك. ركضـت بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة وقـد سـاعدتني قامتـي القصـيرة عـلى التملـص واجتيـاز العقبـات. ركضـت وركضـت إلى أقـصى مـا في جسـدي الصغـير مـن قـوى حتـى توقفـت في النهايـة وأنفـاسي تـكاد تنقطـع وأنصـتُّ لعـلّي أسـمع شـيئا ورائي فلـم أسـمع سـوى صـوت تنفـسي ولهـاثي. كمنـت بعـد أن تأكـدت مـن خلـو المـكان بـين الأشـجار واختبـأت صامتـا.

أربكتنـي أصـوات الغابـة، صـوت انكسـار غصـن أو حفيـف ورقـة شـجر تسـقط أو تطـير، وكان مـن الصعـب تمييـز فيـما إن كان ذلـك بفعـل حركـة مـن نجـا مـن قبيلتـي أو بفعـل البيـض أم مجـرد ولـب يجـري هنـا أو هنـاك. انتظـرت حتـى بـزغ ضـوء الفجـر ونظـرت حـولي فلـم أجـد مـا يثـير الريبـة. عندهـا خرجـت مـن مخبـئي ومضيـت أسـير بحـذر إلى أن رأيـت آثـار أقـدام تبـين لي أنهـا لجماعتـي. أراحنـي ذلـك فتتبعـت الأثـر بهـدوء صيـاد يقتفـي طريدتـه إلى أن وصلـت إلى المـكان الـذي بتنـا فيـه الليلـة الماضيـة. كـم تبـدو لي تلـك اللحظـة زمنـا غابـرا. كانـت النـار قـد خمـدت سـوى بعـض الجمـرات وشـممت رائحـة فظيعـة. أجـل، كان الآخـرون هنـاك يقفـون، بعضهـم ينتحـب والبعـض الآخـر ينظـر مفجوعـا، ولاحظـت أن عـدد جماعـة أمـي قـد انخفـض إلى النصـف الآن. يـا للكارثـة! كان نصفنـا الآخـر عـلى الأرض حـول النـار

قطعت أوصاله بالسكاكين والفؤوس. أما الأكثر فظاعة فكان مشهد جثث الأطفال المحترقة في النار.

عليكم هنا أن تعلموا حقيقة مريعة. لم يكن التفجع والرغبة بالعويل ما يعصف بي في تلك اللحظات فقط. لا، رافق ذلك شعور آخر من الغبطة. ستقولون إن هذا شنيع وإني إنسان وضيع. لكن لا، انتظروا رجاء وحاولوا النظر إلى أعماقي. أمي هي من جعلني أشعر بذلك. كانت هناك تبحث في رماد النار وبين الأشجار وهي تصرخ دون كلل بكلمة واحدة وتعيدها دون أن تتوقف كحيوان علق في فخ ولا يستطيع الخلاص.

«تاياليه... تاياليه... »

اختفى ذلك المخلوق القذر ولم يعثر عليه أحد.

الفصل الخامس
القبطان إيليام كويليان كيولي، يوليو 1857

أثار قراري بعض الهرج والمرج بين البحارة بعد أن علموا أنهم ليسوا في طريق العودة إلى جزيرتهم بل يبحرون مرغمين إلى أقاصي أستراليا. من لديه زوجة سليطة اللسان، وهم الغالبية لحسن الحظ، لم يستأ كثيرا، لكن البقية انخرطوا في موجة من السخط والوعيد بلغة جزيرتنا إلى أن اضطررت لإخبار ركابنا الإنجليز أنهم يطالبون بزيادة في أجورهم. ولا أخفي أني خشيت أن يتمردوا كليا فأجد نفسي في سفينة تائهة دون قبطان يقودها. لكن ما أسهل أن تخيف الرجال بالسجن. بعد يوم واحد فقط بدؤوا يعودون إلى هدوئهم ثم ما لبث تذمرهم أن تحول إلى مجرد عبوس دائم، وهو ما اعتادوا عليه في حياتهم اليومية على أية حال.

ثلاثة أيام من الإبحار وأصبحنا خارج مياه آيل أوف وايت. لم نر أثرا لصديقنا الكابتن كلارك قائد الدلفين، سفينة الاعتراض التابعة لحرس سواحل جلالة الملك ولا لأي كلاب بوليسية تنقض علينا من المحيط بحثا عن مسروقات مالدون. الريح نشطة ولو استمرت كذلك فلن يطول بنا الوقت لنصل سيليس ونغادر بعدها كليا كل ما له علاقة بالإنجليز، عدا أولئك الذين على متن

سفينتنا بالطبع. كم من المثير أن أتجول هكذا على متن سفينتي وأنا أتخيل كيف ستتمايل قريبا بين الأمواج تحت سماء خط الاستواء، أمر لم نكن لنتخيله أو نريده يوما. لم يكن يقلقني سوى إيليساد. ألم أعدها بالعودة إليها في غضون شهر، ومعي ما يكفي من النقود لأدللها كأنها الملكة فيكتوريا؟! لن أتمكن من إرسال رسالة لها قبل أسابيع لأخبرها أني سأتأخر سنة كاملة فقط. لن تغفر لي ذلك بسهولة. لكن ماذا بوسعي فعله الآن؟ الأفضل لي أن أنسى هذا الموضوع وأشغل نفسي بمتابعة أمور السفينة التي لم تكن قليلة على أية حال. ولحسن الحظ كانت الإخلاص في حالة جيدة، إذ إنها نالت الكثير من التحضير والإصلاحات وزودت بقطع غيار وتجهيزات تكفي لإعصارين أو ثلاثة. حتى إنها جهزت بطبقة إضافية في هيكلها لتسهيل طفوها، وبفضل صديقنا النقاق فيكار لدينا ما يكفي من ماء الشرب والطعام ووثائق حقيقية أيضا. لم أتذكر ما كان ينقصنا إلا بعد أن أصبحنا في عرض البحر حين جلست لإعداد مسار لرحلتنا، الخرائط. ألقيت باللوم على الكاهن. جعلنا ذلك العجوز السخيف نقطع لندن كلها ونحن نبتاع كل ما يخطر على البال من الحاجيات. فلماذا لم يرسلني إلى أحد متاجر الخرائط لننهي عملنا على أكمل وجه؟! يحتاج قبطان سفينة تبحر حول العالم إلى خرائط كما يحتاج المحامون إلى جرائم، والإبحار دونها ليس سوى العودة إلى كريستوفر كولومبس الذي أخطأ بين الهند وأمريكا. حتى رئيس البحارة برو الذي كان يستطيع الابتسام في جنازته أصابه الغم لهذه المشكلة.

«لا بد أن نحصل عليها من مكان ما»، قال مكشرا. «بورتسماوث ليست بعيدة».

لكن لم يكن ذلك سهلا، فبورتسماوث تعج برجال الجمارك، كما أن ركابنا سيعثرون فيها لا شك على جرائد.

«دعنا نلقي نظرة على خزانة الخرائط»، قلت له، «من يدري؟ قد يحالفنا الحظ».

لم أتفحص تلك البقعة بعناية من قبل، وكل ما فعلته أني ألقيت على عجل ببعض الخرائط للبحر الأيرلندي والقنال الإنجليزي فوق ما كان فيها. عندما نظرت فيها وجدت أنها مليئة بالفوضى كأنها لم ترتب منذ نصف دزينة من القباطنة. وجدت أولا كدسة من رسومات ركيكة بقلم رصاص كلها لوجه قطة، وخلت أنها مجرد خربشات من وحي دوار البحر. بعد ذلك عثرت على عدة صفحات رُسم عليها أشكال غامضة وورقة توثق ضياع بعض النقود من بحار مجهول. وأخيرا تحت كل ذلك عثرت على بضع خرائط لفتت إحداها نظري على الفور. لم تكن سوى رسم لمستعمرة الكاب التي من المفترض أن نصل إليها بعد شهرين، والتي يمكن لنا أن نبيع فيها للأفارقة ما يحلو لهم من حمولتنا. صحيح أنها لم تكن حديثة، إذ إن موقع المستعمرة أشير إليه باسم هولندا، وقال برو إن ذلك يعيدنا إلى زمن نابليون نفسه، وصحيح أنها لم تكن نظيفة أيضا، إذ بدا وكأن صاحبها قد استعملها كطبق طعام مرة أو مرتين، إلا أنها مع كل ذلك خريطة.

كان علينا أن نتوجه إلى عرض المحيط الأطلسي، لنتبع الريح التي ستقودنا جنوبا إلى المستعمرة الأفريقية حسب اتفاقنا مع الركاب الإنجليز. اتفاق لم أعره في الحقيقة أي اهتمام حتى تلك اللحظة، باعتبار أن خطتنا الأساسية لم تكن سوى الإبحار إلى إيسيكس. أما وقد تغيرت الخطط وعلينا الآن التوقف في جامايكا فقد بدت لي

الخريطـة في غايـة الغرابـة. بـدت النرويـج ضمـن خريطـة العـالم تلـك ممتـدة بطـول ذراعـي، بينـما لم تتجـاوز جـزر الكاريبـي في مسـاحتها اتسـاع قطعتـي نقـود صغيرتـين مـن فئـة البنـس.

«لـن نجـد طريقنـا إلى مينـاء كينغسـتون بهـذه الخريطـة»، قـال بـرو مقطبـا حاجبيـه.

«لدي فكرة... ربما لن نحتاج إلى ذلك».

الكاهن جيفري ويلسون، يوليو - أغسطس 1857

بعد ثلاثة أيام من بداية رحلتنا اقتحم القبطان كيولي ورئيس بحارته برو قمرتي دون أن يكلفا نفسيهما الحد الأدنى مما تقتضيه اللياقة، أن يقرعا الباب. وحتى قبل أن أعبر عن استيائي من هذا التجاوز الفظ لخصوصيتي بدأ الكابتن حديثه لإقناعي بأن نغير خطتنا وأن لا نرسو في جامايكا كما كان مقررا.

«لا أرى أننا بحاجة للتوقف في جامايكا يا فيكار. فأنا أعلم كم يهمكم الوصول إلى تاسمانيا وجهتنا الأصلية. ونحن لدينا ما يكفي من التموين لنصل إلى أفريقيا، ولا حاجة للتوقف في أي مكان قبل ذلك».

على الرغم من أني أعتبر نفسي رجلا منفتحا على آراء الآخرين ومرنا في تقبل التغيير، إلا أن اقتراحه لم يعجبني في الحقيقة. أولا لأنه يجب الالتزام بأي اتفاق من قبل الطرفين، كمسألة مبدأ على الأقل، ونحن اتفقنا على الرسو في ميناء كينغستون. وثانيا، لا أخفي أنه منذ أن أبحرت الإخلاص ووصلت إلى عرض البحر لم يكف خاطر رسونا الأول على اليابسة عن مداعبة مخيلتي بإلحاح، بل وبكثير من التلهف أيضا. لهذا لم أتمكن من تقبل فكرة أن نؤجل رسونا وأن أبقى على متن السفينة لشهرين إضافيين.

«أعتقد أن علينا أن نحافظ على مسارنا كما سبق أن اتفقنا»، قلت للقبطان بحزم.

«هذا لمصلحتكم»، قال كيولي مصرا.

أتتني المساندة من حيث لم أتوقع. مد بوتر طبيب البعثة رأسه من سريره العلوي وقال باقتضاب وبساطة: «لكن يجب علينا أن نتوقف في جامايكا».

أعترف أن سلوك الطبيب وتصرفاته لم تكن ملائمة دائما، أمر سأعود إليه بالتفصيل لاحقا، لكن - والحق يقال - تدخله هذا كان مفيدا وفي وقته. حاول كيولي إخافتنا بأمور تقنية تتعلق بالبحر وبالسفينة، لكني عندما حذرته من أني سأعيد النظر في الأجرة التي اتفقنا عليها تجهم وجهه الذي لم تكن تفارقه ابتسامة الخبث والدهاء.

«سأرى ما بوسعي فعله»، رد بحدة ثم غادر مع برو وهما يربران بلغتهما المثيرة للأعصاب.

لست من أولئك الذين يشكون ويتذمرون لاستثارة عطف الآخرين، وبصراحة أنا أعتبر هذا نقيصة في الرجال لا تقل عن الإدمان على الكحول. لكني أعترف أن الأيام الأولى التي تلت إبحارنا لم تكن الأفضل في حياتي. أظن أن متاعبي بدأت في تلك الليلة التي تناولنا فيها عشاءنا الأول على متن الإخلاص، وقد كان دسما للغاية. ومما زاد الأمر سوءا أنني عندما ذهبت إلى قمرتي لأخلد للنوم وجدتها تفوح برائحة كريهة وكأنها مستنقع قذر من الغازات. يعود ذلك كما علمت لاحقا إلى تمايل السفينة واهتزازها مع الأمواج مما يؤدي إلى تعكير المياه الآسنة في جوفها. كانت الإخلاص بالفعل تهتز وتتمايل بعنف مع الريح التي كادت تصل

حـد عاصفـة حقيقيـة. شـعرت فجـأة بالـدوار والإعيـاء ووجـدت نفسي أتسـلق الأدراج إلى سـطح السـفينة بـرداء نومـي والمعطـف فوقـه وأنـا أرتجـف متمسـكا بالدرابزيـن.

لم تكـن المـرة الوحيـدة للأسـف، بـل تلتهـا جـولات عديـدة. ازداد حـال الطقـس اضطرابـا مـع مـرور السـاعات بـدل أن يتحسـن، وازداد عصـف الريـاح، ومـع الصبـاح كانـت الأمـواج ترتطـم بهيـكل السـفينة بعنـف يزلـزل أركانهـا ويجعلهـا ترتجـف حتـى ليخـال أي رجـل أقـل شـجاعة منـي أن السـفينة سـتتحطم إلى شـظايا. ومـا فاجـأني أن رفيقـيّ الآخرَيـن لم تظهـر عليهـما أي مـن علامـات التأثـر بذلـك العشـاء الدسـم، بـل اسـتمرا بالتوافـد عـلى غرفـة الطعـام بنهـم لا يخفـى عـلى أحـد. سررت مـن أجلهـما بطبيعـة الحـال، لكنـي لا أسـتطيع إخفـاء عـدم ارتياحـي مـن سـلوك بوتـر الـذي كان يـصر عـلى وصـف مـا تنـاول مـن وجبـات أمامـي بالتفصيـل رغـم معرفتـه بحـرج حالتـي الصحيـة.

عـدا عـن الـدوار والغثيـان كان النـوم مشـكلتي الكـبرى، أو لنقـل عـدم تمكنـي مـن النـوم. أعتقـد أن أسـوأ مـكان للخلـود إلى النـوم بعـد سـاحة المعركـة هـو سـفينة تمخـر عبـاب البحـر. كنـت في كل ليلـة عندمـا أكاد أغفـو وأدخـل عـالم أحلامـي المفتقـد أسـمع صياحـا بلغـة جزيـرة مـان ثـم مـا يلبـث أن يرتـج السـقف بعنـف بفعـل خبـط أقدام البحـارة وكأنهـم ينتقمـون مـن مخلوقـات زاحفـة بسـحقها. اعتـادوا بعـد ذلـك أن ينصرفـوا إلى أعـمال متنوعـة في صيانـة أو توجيـه السـفينة كأن يعدلـوا مـن وضـع الأشرعـة برفعهـا أو إنزالهـا أو حرفهـا لتحويـل الاتجـاه، وغالبـا مـا يتـم فعـل ذلـك عـدة مـرات في ليلـة واحـدة. ألـواح الخشـب تصـل والحبـال والعقـد تئـز، والأحذيـة تخبـط، بينـما طاقـم

البحـارة كلهـم يغنـون بأعـلى أصواتهـم، كأنهـم لا يسـتطيعون ربـط الحبـال أو شـدها دون ترديـد تلـك الأغـاني السـوقية.

حاولـت جهـدي أن ألفـت أنظـار بحـارة جزيـرة مـان أولئـك إلى مـا يسـببونه مـن الإزعـاج، لكـن دون جـدوى. أطـرق عـلى سـقف قمـرتي بالعصـا لأنبههـم فيدعـون أنهـم لم يسـمعوا. أطلـب مـن الكابـتن كيـولي بـكل لباقـة أن يطلـب مـن بحارتـه القيـام بأعمالهـم بصخـب أقـل فينظـر إلي نظـرة تخلـو مـن التحـضر. حتـى رفيقـا سـفري لم يفعـلا مـا يمكـن أن يسـاعد في حـل المشـكلة. لا أميـل في طبعـي إلى القسـوة في الحكـم عـلى الآخريـن، بـل إننـي دائمـا أحـاول أن أرى مـا هـو جيـد في أي إنسـان وتحفيـز الخـير فيـه، ومـع هـذا لم أتمالـك نفسي وكاد صبري بالفعـل ينفـد. فعـلى الرغـم مـن أن رينشـو لديـه قمـرة خاصـة بـه وحـده فـإن الحاجـز الخشـبي بينهـا وبـين قمرتنـا كان مـن الهشاشـة بحيـث كنـت أسـمع أي حركـة تصـدر عنـه بوضـوح، وكثـيرا مـا أقلـق راحتـي في الليـل بأصـوات تقلبـه ورعاشـه بتلـك الطريقـة الغريبـة، تمامـا كانـه مريـض بعلـة غامضـة. أمـا الدكتـور بوتـر فـكان أكـثر إزعاجـا إذ كان يـصر أن يبقـي المصبـاح مضـاء معظـم الليـل وهـو يكتـب ملاحظـات في دفـتره مصـدرا صـوت خربشـة مثـيرة للأعصـاب. «لحظـة واحـدة يـا فيـكار»، هـذا كل مـا يقولـه ويكـرره طـوال الليـل كلـما طلبـت منـه بـكل مـا أوتيـت مـن كياسـة أن يكـف عـن إزعاجـي بخربشـاته المقيتـة.

بذلـت كل مـا بوسـعي لأعامـل الرجـل بحلـم ورويـة حتـى عندمـا تجـاوز كل حـدود اللياقـة بنـشر غسـيله عـلى حافـة سريـره العلـوي، تمامـا فوقـي، فيقطـر المـاء فـوق سريـري مخلفـا بقعـا رطبـة. قلـت في نفـسي إن تصرفاتـه تلـك ليسـت ناجمـة عـن سـوء طباعـه، بـل

عن افتقاره للتربية وآداب السلوك. جعلني ذلك أفكر في تهذيب أسلوبه وتعليمه أصول اللباقة الاجتماعية فكتبت عدة تعاليم على قصاصات ألصقتها قرب سريره ليراها بسهولة. فماذا فعل؟ هل استجاب لها كما هو جدير بأي إنسان سوي؟ لا، تجاهلها بصلافة لا تطاق، بل وزاد من استفزازه بالإشارة إليها بصوته الساخر بالتعاليم الكهنوتية.

كان حريا بأي إنسان آخر في مكاني أن يرد على تصرفاته بالغضب، لكني آثرت طريق الصبر والإيمان. كانت أيام صلاة وتعبد بالنسبة لي، وكنت أسأل الرب العون في إصلاح رفيقي سفري، وغالبا ما فعلت ذلك بحضورهما على أمل أن يستجاب إلى صلواتي بتنمية الخير الكامن في وجدانيهما. صليت من أجل بوتر، أن يجد في قلبه ما يحتاج من تواضع ولطف في التعامل مع الآخرين، ومن أجل رينشو، أن ينام بهدوء دون أن يزعج غيره. كم تمنيت أن يثمر جهدي المتواضع في إصلاحهما وفي إرشادهما إلى اكتشاف الخير في قلبيهما، بل وكثيرا ما أملت أن ينضما إلي في طقوس صلاتي. للأسف لم تتحقق أي من آمالي، فقد تجاهلا كل ما فعلته من أجلهما، وكأنهما لم يسمعا شيئا.

لكن جهودي لم تذهب سدى على أية حال. فليس محض مصادفة أني وبفضل صلواتي كل يوم بدأت أشعر بالتحسن وبأن حياتي أقل صعوبة على متن السفينة. بدأ الغثيان يزول رويدا رويدا حتى أتت تلك الليلة العظيمة حين وجدت نفسي أدخل قاعة الطعام للمرة الأولى منذ غادرنا إيسيكس حيث لوحات الملكة والأمراء المبهجة. أصبح ارتجاج السفينة أقل إزعاجا لي وبدأت أتنقل بين مكان وآخر بخفة دون أن أتمسك فجأة بأي شيء قربي

حتى لا أفقد توازني. وحتى صخب العمل والحركة فوقي بدأت أعتاد عليهما ولم يعد يقلقني ذلك أكثر من زقزقة العصافير. ومع الوقت أصبحت فكرة العيش لشهور عديدة قادمة ولمسافات شاسعة في عرض المحيط أكثر ألفة، ولم أعد أنظر إلى السفينة على أنها مجرد وسيلة نقل، بل كبيت لي.

بدأ تقدمنا الحثيث جنوبا يترافق مع تغيرات غير مألوفة في الطقس. تغيرات تشبه اختلاط الفصول، وكأننا نعيش مايو وسبتمبر في وقت واحد. ومع ارتفاع حدة أشعة الشمس إلى حد توجب فيه الحذر من حروق تخلف بقعا وردية على البشرة تقلصت ساعات النهار باضطراد. بدا الوقت ذاته كأنه سائل يتدفق في خضم ذلك الامتداد المائي غير المتناهي. كل ظهيرة كانوا يؤدون طقسا غريبا، حيث يقف القبطان مع مساعديه، اللطيف برو والمحتد كينفيغ، ويصوبون أجهزة التوجيه باتجاه الجنوب. وما إن ينزلوا أيديهم حتى يصيح القبطان: «حان منتصف النهار». عندها يقرع الجرس ثماني مرات، وتقلب الساعات الرملية معلنة بداية يوم جديد على متن السفينة. وعلى الدوام كانت عقارب ساعتي بحاجة لتحريكها دقيقة أو اثنتين للتوافق مع توقيت السفينة.

أثارت حياة السفينة وأساليب العمل على متنها عجبي وفضولي. تمنيت لو أني أستطيع فهم لغة البحارة الخاصة التي يرطنون بها غالبا بمرح يتخلله ضحك كنت على استعداد لدفع المال فقط لكي أعرف سببه. لاحظت أن لديهم تقاليد عريقة رغم غرابتها؛ على سبيل المثال لديهم تقليد صارم يقضي بعدم تسمية الخنزير باسمه الحقيقي بل الإشارة إليه بدلا من ذلك بكلمة «سويني»، كأنما يلتزمون ببروتوكول بحري لا يصح خرقه.

لكني وجدت ذلك في غاية السخافة، بل وتساءلت فيما إن كانوا يسخرون منا نحن الركاب الإنجليز. ومما لاحظت أيضا أن الإخلاص لم تكن تفتقر إلى التنظيم وتقاليد العمل الرسمية. كل من على متنها لديه مهمة محددة، تماما كما في أي محكمة أو مؤسسة قانونية. يقف القبطان ومساعده برو في المؤخرة، ويحرص كيولي على اختيار جهة الريح ليقف ويراقب كل شيء بينما تخفق الأشرعة العظيمة عاليا. وما إن يبرح القبطان مكانه لسبب ما حتى يسارع مساعده للوقوف محله.

إلى الأمام من سطح المؤخرة كان المساعد الثاني كينفيغ يصدر أوامره بغضب إلى طاقمه الذي كان بدوره ساخطا على برو الذي لا يبارح موقعه المريح في المؤخرة بينما عليهم هم أن يتسلقوا حبال الصواري. بعد ذلك يمكن رؤية ذلك المكان الذي يسمونه مطبخ السفينة، وهو شيء يشبه كوخا بدائيا يعمل فيه الطباخ كوايل، رجل ذو روح متمردة لا يأنس سوى إلى الحيوانات. وفي الحقيقة كان على السفينة أعداد كبيرة من الماشية، خصوصا في بداية الرحلة، كلها موزعة على قوارب النجاة حول السفينة. وبصراحة لم أرتح لهذا الترتيب، إذ إني تخيلت أن تتعرض الإخلاص لكارثة ما في عرض البحر. كم سيصعب علينا حينها أن نلجأ إلى تلك القوارب!

الوقاية خير من العلاج كما يقولون، ولقد أدهشني بالفعل كم من الجهد والوقت يصرفه الطاقم على أعمال صيانة السفينة والعناية بها حتى إني لا أتردد في القول إن تلك الأعمال كانت تستنفد جل وقتهم. لاحظت أن أرضيات السفينة تمسح وتكشط كلها ثلاث مرات في اليوم، أمر رأيت أنه إسراف في وسواس النظافة، حتى علمت أنهم يفعلون ذلك للحيلولة دون تشقق

ألـواح الخشـب في الأرضيـات فيتـسرب المـاء إلى السـفينة. كان البحارة أيضـا يدقـون قطعـا مـن الحبـال في كل مـا يعـثرون عليـه مـن شـقوق ثـم يسـكبون عليهـا الزفـت السـاخن لسـدها بإحـكام. كل حبـل مـن حبـال الأشرعـة والصـواري يخضـع لفحـص يومـي للتأكـد مـن أنـه مشـدود ومتـين بمـا يكفـي وأحيانـا يطـلى بالقـار، ويسـتغرق هـذا العمـل الكثـير مـن الجهـد ويتطلـب دقـة عاليـة، إذ إن الحبـال مترابطـة فيـما بينهـا وأي تعديـل مهـما كان طفيفـا في شـدة توتـر أي حبـل يسـتدعي تعديـلات أخـرى في غـيره. وبـين وقـت وآخـر يقـوم البحـارة أيضـا بتزييـت العقـد والمفاصـل التـي تمـر الحبـال خلالهـا وبحـف أو إعـادة طـلاء التجهيـزات المعدنيـة، ولا تـكاد دورة العمـل المضنيـة هـذه تنتهـي حتـى تبـدأ دورة جديـدة.

في الأوقـات التـي يفـرغ فيهـا البحـارة مـن تلـك الأعـمال الشـاقة يسـترخون في الشـمس ويستسـلمون لنعاسـهم، أو يتسـلق بعضهـم الحبـال ليشـارك في ألعـاب لا تشـبه إلا مـا يفعلـه البهلوانـات في السـيرك. يمكـن لهـم أن يتسـلقوا الصـواري إلى ارتفـاع مـدوخ فـوق سـطح السـفينة في لحظـات قليلـة، وقـد أذهلنـي بالفعـل كيـف لهـم أن يرتقـوا إلى علـو شـاهق كهـذا. وحـدث مـرة أن عصفـت بنـا ريـح مفاجئـة وراحـت السـفينة تتقافـز بـين الأمـواج بعنـف وتتمايـل دون أن يـترك أحـد منهـم مكانـه، بـل اسـتمروا فيـما يفعلـون كأن شـيئا لم يحـدث. أحدهـم كان حينهـا في أعـلى الصـاري الكبـير فقذفتـه الريـح مـع ميـلان السـفينة بشـدة إلى البحـر، ولا أحـد يعـرف كيـف قذفـه المـوج ثانيـة إلى الأعـلى لينجـو بنفسـه مـرة أخـرى والسـفينة تقفـز وتهـوي تحتـه. حـدث ذلـك بينـما كان بقيـة الرجـال منخرطـين في أعمالهـم، وقـد جـال في ذهنـي وأنـا أنظـر إليهـم يكدحـون أن حيـاة

البشر لا تكتمل إلا بوجود ذلك النشاط الذي يحفزهم على العيش. قد يكون ذلك النشاط بالنسبة للبعض المغامرة والترحال أو جني الثروات. وقد يكون بالنسبة للبعض الآخر العائلة وتربية الأطفال أو الاستسلام لروتين الحياة اليومية. بالنسبة لي على الأقل ليس هناك أكثر إثارة للبهجة من العمل المخلص الذي يجلب السعادة والرخاء للآخرين.

لم أتردد في إخبار القبطان كيولي بما جال في خاطري في تلك الظهيرة. لكن إقناع القبطان بأي شيء لم يكن سهلا، فهو كما رفاقه متحفظ وكثيرا ما يتشكك تجاه ما يثير حماس وشغف الآخرين. ولدى رجال أيل أوف مان كلمة مفضلة هي الوسطية، وتعني بالنسبة لهم غياب الاهتمام بأي شيء محدد. فإن واجهوا إعصارا يهدد السفينة بالغرق لا يتجاوز رد فعلهم سوى القول بشيء من عدم الاكتراث: يبدو أن الطقس سيئ والرياح نشطة. وحتى لو جاءت شياطين الخراب ذاتها وهددت بتدمير الجبال كما تسحق كعكة فلا أظن أن رجلا من أيل أوف مان سيقول عن ذلك أكثر من أنها متاعب عابرة. ولهذا كله ربما لم يكن علي أن أتفاجأ برد القبطان على اقتراحي.

«موعظة الأحد؟ مممم؟»

«أعتقد أن هذا أقل ما يفرضه علي واجبي»، قلت موضحا. «هؤلاء الرجال الذين يواجهون الخطر في كل لحظة لا بد أن يجدوا بعض الطمأنينة في ما يقربهم من الرب».

قطب كيولي وجهه وقال: «لا أرى ضررا في ذلك».

لم يكن في جوابه أي ممانعة على الأقل، وهذا كان كافيا لغرضي، فانطلقت على الفور لأباشر عملي بحماس وتفاؤل. لكن قبل أن

أباشر في التحضير للموعظة ذاتها كان علي أن أقوم ببعض الأمور الأخرى. على سبيل المثال لا بد لي من تأمين بعض الرفوف التي يمكن أن أضع فيها كتبي وأوراقي وأدوات الكتابة. وفكرت أني بحاجة إلى طاولة صغيرة أضعها بمحاذاة الحائط في قاعة الطعام بما أن المائدة الكبيرة كانت على الدوام غير نظيفة وملطخة ببقايا الطعام. تململ القبطان بداية الأمر من طلبي هذا لكنه في النهاية وافق وطلب من النجار تنفيذه، وسرعان ما خطر لي بعدها كم سيكون رائعا أن نبني منصة خشبية صغيرة على سطح السفينة تصلح كمنبر للوعظ، وربما نثبت مسندا خاصا للكتاب المقدس. وأكثر من ذلك بدا لي أنه بعد إنجاز كل ذلك سيكون من الملائم وضع بعض المقاعد ليتمكن البحارة من الإصغاء لموعظتي بشيء من الراحة. لكن القبطان رفض ذلك ولم يبد أي تعاون.

«لن أقبل أن تتحول سفينتي إلى كنيسة عائمة». كانت لهجته حادة، ويؤسفني القول إنها كانت تفتقر إلى التهذيب. «هذه سفينة وليست دارا للتبشير».

لم يكن القبطان وحده من لم يُبد القدر الكافي من التعاون في الإعداد لمهمتي. فبوتر أيضا تجهم وتذمر عندما وُضع مكتبي الصغير بجانب الحائط، وصادف أنه كان وراء طاولة الطعام الصغيرة مما أعطاه سببا إضافيا للتذمر. ولم تفلح محاولاتي في التفريج عنه والتخفيف من تكدره بجلوسي إلى جانبه وتلاوة الصلوات والأدعية أن يساعدنا الرب في العثور على نقطة الضوء والخير في داخل كل إنسان، بل إنها في الحقيقة زادت من حالته سوءا. وهنا بدأت أفكر أنه قد لا يكون الرجل المناسب ليرافقنا في بعثة مهمة ومقدسة كهذه.

الدكتور توماس بوتر، أغسطس 1857

النموذج الكلتي

مثـال (جزيـرة آيـل أوف مـان). هـذا الصنـف مـن البشر أدنى مـن الناحيـة الفيزيولوجيـة مـن الشعوب الساكسـونية، إذ إن حجمهـم أصغر وبشرتهـم داكنـة ويفتقـرون إلى القـوة. عمومـا يمتـاز هـذا النمـوذج بجبهـة مائلـة تـدل عـلى أصـل الخطـم في الوجـه، وهـذا حسـب بيرسـون دليـل عـلى دونيـة عقليـة. ويمكـن ملاحظـة محاجـر العيـون العميقـة في الجمجمـة مـما يـدل عـلى ميـول أصيلـة نحـو العبوديـة.

ويمكـن إجـمال الخصائـص العامـة للكلتـي بأنـه يفتقـر إلى الابتـكار والسـمو الروحـي مقارنـة مـع جـاره الساكسـوني. يُفضـل أن ينتظـر الوقائـع والأحـداث بـدلا مـن المشـاركة بهـا وصناعتهـا، وهـو لذلـك لديـه مفهـوم قـدري للصـبر يجعلـه قـادرا عـلى انتظـار الحـظ. وفي أفضـل الأحـوال يمكـن القـول إن الكلتـي لديـه حـس خـام وبـدائي بالإبـداع، أي في الأغـاني والقصـص. ويتمتـع أيضـا بشـجاعة فطريـة جعلتـه مناسـبا ليلعـب دور جنـدي المشـاة في الجيـوش الساكسـونية.

أمـا المسـتوى الأخلاقـي لـدى الكلتـي فهـو وضيـع ويسـيطر عليـه الخمـول والكسـل. متعصـب لبنـي قومـه مـع الأجانـب، ويفضـل الحديث بلغتـه الخاصـة حتـى ولـو أتقـن الإنجليزيـة (مثـال جزيـرة مـان).

وخلاصة القول أن الكلتي يحتل موقعا متدنيا بين شعوب أوروبا، ليس لأسباب أخلاقية وفيزيولوجية فقط، بل وبسبب تاريخه القاتم الذي لا يحوي سوى التشرذم والفوضى والتراجع. ويمكن الاستخلاص مما سبق أن الجنين الكلتي يكتمل تطوره بعد فترة لا تتجاوز ستة وثلاثين أسبوعا، أي أقل من الجنين الساكسوني بثلاثة أسابيع على الأقل.

النموذج النورماندي

مثال: رجال الكهنوت والأرستقراطية والعائلة المالكة في إنجلترا.

النورماندي عموما يشبه الساكسوني من الناحية الفيزيولوجية، لكن يمكن لأي فحص دقيق أن يلاحظ أنه أصغر قليلا ويفتقر إلى الصلابة والقوة لدى الساكسوني. بشرته باهتة ويميل شعره إلى الاحمرار، بينما يتميز وجهه بالطول والضيق مما يدل على الغرور. يعاني هذا النموذج من التراجع لأنه اعتمد عبر تاريخه على أمجاده المتوارثة فافتقر إلى الاجتهاد والتجديد وتأصلت فيه سمات ضعف لم يكن لصنف آخر أكثر استقرارا أن يعاني منها، مثل دوار البحر. أخلاقيا النورماندي فقير ويعاني من سيطرة الأنانية على طباعه. أما أكثر سماته تأصلا فهو المكر، وهو يعتمد دائما على الاحتيال والانتهازية للارتقاء الاجتماعي ضمن بني قومه، ولا يمكن أن يبدي أي اعتبار أخلاقي إلا على سبيل التصنع والنفاق.

خلاصة القول أن النورماندي لا يرتقي في تراتبية الشعوب الأوروبية عن مستوى الكلتي كثيرا، ويمكن الاستنتاج من ذلك أن جنينه يكتمل تطوره في الرحم خلال سبعة وثلاثين أسبوعا، أي أقل بأسبوعين من الجنين الساكسوني.

تيموثي رينشو، أغسطس 1857

ها نحن نقف على سطح السفينة تحت الشمس الحارقة ننتظر تلك المتعة العجيبة في موعظة ويلسون. عزائي الوحيد أني لن أعدم شيئا تنشغل به عيناي بينما يبربر ذلك الماعز العجوز. أذاع المنادي الخبر قبل ساعة أو ساعتين بكثير من صيحات «اليابسة»، وكان من الصعب رؤية ما يصيح بشأنه في يوم ضبابي كهذا. عركت عيوني وأنا أحاول النظر إلى الأفق ولم أرَ غير خط غامض المعالم في النقطة التي يفترض أن تشرق الشمس منها. وبعد وقت استطعت أن أميز بالتدريج ما تكشف لنا دفعة واحدة، قطعة كبيرة من اليابسة مع تلالها وكهوفها، ولم تكن بعيدة كما توهمنا البتة.

ربما لا يبدو ذلك حدثا ذا شأن بالنسبة لمن ينعم بالعيش على اليابسة. أما بالنسبة لي وبعد كل تلك الأسابيع التي لم أتمكن فيها من النظر إلى أي شيء غير البحر وطيوره فلم يكن هناك ما أنتظره بلهفة أكثر. قد يحلو للبعض البقاء لأشهر طويلة على متن سفينة في عرض البحر، لكن لا، لست من هذا النوع. كم يحلو لي الآن أن أجد بعض المتع الصغيرة في سوق مزدحم، ككأس من الشراب الجيد أو ربما صحبة سريعة مع إحدى الغانيات.

في الحقيقـة لا أعتقـد أن رفاقـي كانـوا يختلفـون كثـيرا عنـي. لا أدري أي قـدر هـذا في أن أكـون محاطا أنى ذهبـت بأنـاس يعتقـدون أن لديهـم إجابـات عـلى كل الأسـئلة. أبي وأمـي، وأخـي جيرمـي أيضـا، كانـوا سـيتحفونني بكثـير مـن المواعـظ والمحـاضرات عـن ضرورة الجـد في العمـل وعـن واجبـي في تطويـر نفـسي. رفاق سـفري هنـا لا يتورعون عـن فعـل الـشيء ذاتـه أيضـا. كل مـا يتفـق عليـه هـؤلاء أمـر واحـد، أني كسـول وأحمـق وأنـه يجـب معاملتـي كشـخص غـير راشـد. ويلسـون هـو الأسـوأ، حيـث لم يـتردد يومـا في تقريعـي بملاحظاتـه اللئيمـة حـول تأخـري في النـوم وتكاسـلي في النهـوض مـن فـراشي سـاعة الفجـر. كأني لم أكابـد عنـاء القيـام بهـذه الرحلـة مثلهـم!

«بعـض المعانـاة سـتتكفل بتعليمـك». كأن يقـول والـدي بـشيء مـن الحنو.

«ونأمـل أيضـا أن تمنحـك هـذه المغامـرة بعضـا مـن السـمو الروحـي»، قالـت أمـي وهـي ترفـض الاستسـلام ليأسـها منـي.

وكل مـا جنيتـه مـن هـذه الرحلـة حتـى الآن التعـب والضجـر. منـذ أسـابيع سـتة ونحـن نبحـر ولم نتجـاوز البدايـة فقـط. قـرأت كل مـا أحضرتـه معـي مـن كتـب. كنـت أنـوي أن أسـتعير مـن ويلسـون، لكـن كل مـا لديـه مـن كتـب مضجـر وجـاف، إمـا جيولوجيـا أو منطـق. أمـا بوتـر فلـم يحـضر كتبـا عـلى الإطـلاق، ويبـدو مكتفيـا بخربشـة ملاحظاتـه الخاصـة التـي لا تنتهـي. حتـى إني حاولـت التقـرب مـن رجـال أيـل أوف مـان ومصادقتهـم، لكـن دون جـدوى. كانـوا ينضمـون إلي لتدخـين غليـون أو اثنـين، لكـن دائمـا يحافظـون عـلى مسـافة منـي وسرعـان مـا يتحدثـون بلغتهـم الخاصـة كي لا يشـجعوني عـلى ملازمتهـم لوقـت أطـول ممـا ينبغـي. أراحنـي مشـهد اليابسـة عـلى أيـة حـال،

وفكرت وأنا أنظر إلى تلك الأرض كم سيمضي من الوقت قبل أن نصل إلى ميناء كينغستون وأتمشى بعيدا عن ثقل ظل رفاقي.

«أي من جزر الكاريبي هذه؟» سألت القبطان وأنا أتأمل الشاطئ متمنيا أن تكون جامايكا ذاتها.

«واحدة منها. لا أدري». فوجئت بلامبالاة كيولي.

«هل تظن أننا سنرسو هنا اليوم؟» سأل فيكار.

«أشك في ذلك».

بدا على فيكار السرور، ربما لأنه تأكد أنه ما من شيء سيقاطع انهماكه في مواعظه. كان لا يكف طوال النهار عن محاولة اكتشاف طرق جديدة تجعله يبدو أكثر إزعاجا بنقيقه وثرثرته. لم يبارحه همه الأكبر في بناء منبر على سطح السفينة ليلعب دور القس العملاق، كان كل ما كان يفعله لا يكفي إزعاجا وسماجة.

«ما يشغلني حقا يا كابتن.. » يقول وهو يفرك يديه ثم يعصرهما كأنه ينتظر خروج نوع من العصير من بينهما. «قد يصعب على الرجال أن يسمعوني جيدا وأنا أتكلم».

لم يكن القبطان والحق يقال يتقاعس عن الرد عليه. «لكنهم يسمعونني جيدا وبوضوح».

«لكن من الصعب التعامل مع كلمات الرب كما نتعامل مع أوامر يتلقاها البحارة»، رد ويلسون مقهقها على ما اعتقد أنها طرفته. «بالتأكيد لا بد من وسيلة تمكننا من إعداد ترتيب مؤقت. كأن نستخدم ما لديكم من صناديق المؤونة الفارغة»، قال ويلسون ثم كشر عن أسنانه في ابتسامة تعني من خلال خبرتي أنه جاهز الآن ليطعن. ولم أكن مخطئا. «إلا إن كنت ترى أنه لا فائدة من صلواتنا المسيحية».

فعلها فيكار، وها هو الكابتن كيولي يقف في حرج وينظر إلى البحر بوجه عابس. لم يكن بوسعه الاستمرار في معارضته دون أن يبدو في موقع من يقف ضد المسيح.

أشرق وجه ويلسون: «أحتاج إلى أربعة من رجالك فقط، ولن يستغرق الأمر أكثر من لحظات».

كان بوتر يجلس على كومة حبال في ركن من سطح السفينة يصعب على فيكار أن يراه من منبره المؤقت. لا بد أنه سيبقى هناك في المكان ذاته مستغرقا في كتابة ملاحظاته العجيبة، إذ إنه سيأمن شر ويلسون واتهاماته بأنه يتشاغل عن الحضور ولا يصغي إلى تعاليمه وموعظته. فوجئت بتنازل بوتر هذا رغم علمي إلى أي درجة من السوء وصلت العلاقة بينهما. تمنيت في بعض المناسبات أن يتطور ما بينهما إلى عراك أتفرج عليه، خصوصا في ذلك اليوم، الذي جلس فيه ويلسون إلى جانب بوتر في قاعة الطعام. بدأ ويلسون يصلي بأن يتخفف الرجال من أحقادهم الوضيعة، وأن يفتح الله بصيرتهم على ما في قلوب إخوتهم في الإنسانية من خير ومحبة. تذكروا أن فيكار قد نال نصيبه من بوتر عندما كان يعاني من دوار البحر وأن الأخير أشبعه همزا ولمزا في تلك الفترة. ومع ذلك احتقن وجهه غضبا وهو يسمع تمتمات الكاهن في صلاته تلك. هذا هو بوتر على حقيقته. فإن كان ويلسون قادرا على أن يقتلك غما بنقيقه وإلحاحه فإن بوتر خطير بصمته.

«أوه، لا... أخشى أن هذا لا ينفع على الإطلاق. ما رأيكم بصندوق شمبانيا آخر»، قال ويلسون بحزن كأنه هو من سيتجشم عناء نقل الصناديق من قاع السفينة. وعندما أحضر الصندوق ووضع إلى جانب الصناديق الأخرى لم يبدُ عليه الرضى، بل وقف عابسا

وهو يعيد النظر إليها من زوايا مختلفة. «ماذا لو أحضرنا أحد صناديق أواني الطبخ؟». ثم بعد وقت لم يطل كثيرا عجز عن إيجاد سبب آخر للتذمر والشكوى أعلن فجأة أن منبره قد أصبح جاهزا.

انقسم البحارة بشأن موضوع الموعظة. بعضهم لم يكن راضيا، ومن بينهم القبطان، ورأوا في ذلك تدخلا في يومياتهم وتعكيرا لصفو يوم الأحد الذي اعتادوا فيه أن يخلدوا إلى الراحة أو يقضوا الوقت في تدخين الغليون. لكن البعض الآخر كان راضيا بما يكفي، بل وتجمعوا على السطح ينتظرون بعيون مترقبة. لم يسبق لي أن رأيت ويلسون وهو يؤدي عمله، وفوجئت حقا أنه يؤدي دوره بمهارة مسرحية. بدأ برفع يده في إشارة للحضور أن يصمتوا. وعندما عم الصمت ولم يبق سوى أصوات الريح والطيور وخفقان الأشرعة الخفيف غير رأيه وهز رأسه ثم نزل من منبره. توجه إلى حافة السفينة واستند على متكأ الدرابزين، ثم أمسك ذقنه بيده وراح ينظر إلى البحر بطريقة نتمكن بها من رؤيته وهو مستغرق في حالة من التأمل. وعندما بدأ بعض التململ بين الحضور صفق بيديه فجأة كأنه وجد الجواب على سؤال كان يقلقه وقفز عائدا إلى منبره.

«كما تعلمون ليس هناك سر أعظم من البحر»، قال وهو ينحني على صندوق معلبات حساء وُضع أمامه ليكون مسند القراءة. «البحر! البحر! البحر! تلك المعجزة الغامضة التي... » كان حظه من السوء بحيث لم يكد يستغرق في لحظة الإلهام التي واتته أخيرا حتى تردد صوت صراخ آتٍ من أعلى الصاري. «شراع... شراع... في جهة الشمال الغربي». انفرجت أسارير القبطان وبدا أنه تنفس الصعداء لهذه الفرصة السانحة بقليل من اللهو، وما كان منه إلا أن توجه إلى منبر الكاهن وأزاحه جانبا.

«آير، أحضر لي منظاري». كان على ويلسون أن يضحك كأنه لا يمانع ما يجري.

بدا لنا أن تلك السفينة انبثقت من وراء أحد تلال الجزيرة التي كانت تحجبها عن أنظارنا، ولم تكن بعيدة. كانت مركبا شراعيا كبيرا بشراعين مثلثين كلاهما رمادي اللون. أما عن وجهتها فكانت تتبع مسارا موازيا لمسارنا. تقدم القبطان نحو مكان آخر في السفينة ليتمكن من الرؤية بشكل أفضل.

لم يزعجنا ويلسون هذه المرة بفصل جديد من تأملاته، بل انحنى قليلا على مسند القراءة أمامه. «كما تعلمون ليس هناك سر أعظم من البحر. البحر! البحر! تلك المعجزة التي تحتوي على... » لكن لم يكن ذاك يومه، فقد اندفع القبطان فجأة نحو المنبر وهو يتميز غضبا، ودون استئذان أو مقدمات صاح موجها أوامره إلى البحارة بلغة آيل أوف مان. مهما كانت تلك الأوامر فلم يكن هناك أسرع منها في إنهاء مراسم الموعظة، وخلال لحظات تفرق كل الحضور وانطلق البحارة كل في جهة، بعضهم يتسلق حبال الصواري وآخرون يجتمعون عند قاعدة الصاري يحلون عقد الحبال الضخمة. لكني في الحقيقة لم أتمكن من إبعاد فكرة أن يكون كل ذلك متعمدا لإفساد الموعظة، شك بدا أنه راود ويلسون أيضا.

«هل حقا هذا ضروري يا قبطان؟».

«قد يكون ضروريا، وقد لا يكون. لكني لا أستطيع سوى أن أتخذ كل الاحتياطات إزاء سفينة كهذه»، ومع هذه الكلمات الملغزة أعطى التليسكوب لفيكار.

«تبدو لي سفينة عادية».

«ربما ستكون عادية لو أنها رفعت علما ما على صاريتها، أو على الأقل نقشت اسما ما أو تبعية لمرفأ على مقدمتها».

ظللت عيني بيدي وتمكنت من أن أرى خلو صاري السفينة من أي علم بالفعل وعدم وجود أي اسم عليها. لكن ويلسون لم يقتنع. «لا بد أن هناك تفسيرا ما لذلك».

«لنأمل ذلك»، قال كيولي وهو يهز بكتفيه.

عمل البحارة في تلك الأثناء بدأب، بعضهم يشد الحبال لرفع الأشرعة بينما شاينا يدير الدفة ليوجه السفينة في اتجاه بعيد عن السفينة الغريبة. ظلت العيون معلقة بمؤخرة السفينة إلى أن بدأ كل شيء يبدو على ما يرام. لكن فجأة لاحظنا أن الأشرعة على السفينة الغريبة تغير من زاوية ميلانها ثم تغير اتجاهها، ولم يمض وقت طويل حتى كانت من جديد قريبة منا وفي محاذاة خط سيرنا. جمدنا صامتين لثانية أو اثنتين ثم انطلق برو في توجيه أوامر أسرع البحارة على إثرها في كل اتجاه، بعضهم يرفع مزيدا من الشرعة والبعض الآخر يعد مزيدا من الحبال.

«تبدو سفينة فقيرة. سنتمكن من سبقها بسهولة»، قال برو بنبرة لا تخلو من مشاكسة.

فكرة مريحة. لكن ما حدث أني رأيت تلك السفينة تتفوق علينا وتكاد تدركنا رغم الريح الخفيفة. أي شعور غريب ذاك الذي تملكني وأنا أقف على الحافة أتنشق روائح الخشب والحبال والرطوبة التي أصبحت جزءا مألوفا من حياتي وأنظر إلى تلك السفينة على بعد ميل واحد وهي مليئة برجال غرباء يسعون لسلبنا أو ربما لقتلنا كلنا. لم أتوقع الكوارث، ورغم أني تخوفت من العواصف ومن حطام السفن، إلا أني لم أتخيل أن

نجد أنفسنا مطاردين من قبل قراصنة. شعرت بخفقان قلبي يتسارع، ومع ذلك بقيت ساكنا حتى خلت نفسي مخدرا أو أني لا أبالي بأي مصير قد يكون في انتظارنا. بدا الوجوم على بوتر أيضا وأخذ يضرب بكفه على حافة الدرابزين. وحده ويلسون لم يفقد حيويته.

«لا تخافوا. لا تجزعوا»، أخذ ينادي كل من يمكن أن ينصت له على السفينة. «سأفعل كل ما يمكن لكي أشفع لكم عندهم. سأتوسل إليهم أن يعاملونا برفق. سأخبرهم عن رسالة المسيحية. سيساعدنا الرب».

لم أكن بالطبع أبالي بما يقول أو أتوقع أن توسلاته ستفيدنا بأي شيء. انخرط القبطان كيولي وقتها بشؤون أكثر عملية. وقف مع البحارة وقد شكلوا ما يشبه سلسلة بشرية حوله، يدلون الدلاء من حافة السفينة ثم يرفعونها ويسحبونها باتجاه الصاري ويرشقون الأشرعة بها. «هذا يجعل الأشرعة تمسك بالريح أكثر»، قال برو موضحا. «مع ريح خفيفة كهذه يفيدنا هذا». لكننا مع الأسف لم يتسنَّ لنا أن نكتشف مقدار الفائدة من ذلك، فما هي إلا لحظات حتى رأينا مطاردينا يفعلون الشيء نفسه. بدا لنا في تلك اللحظة أنهم سيلحقون بنا لا محالة. واستطعت تبين بعض التفاصيل في سفينتهم بالاستعانة بمنظار القبطان، سطحها يعج برجال يبدون من بعيد كأجسام سوداء صغيرة. ما فاجأني أنهم كانوا هادئين تماما، من دون أية علامات اضطراب أو حركة، يقفون هناك ببرودة أعصاب وخطوط صغيرة من بريق معادن تتناثر بينهم تحت أشعة الشمس. ما هذا؟ سيوف؟

«أتظن أنهم عبيد محررون؟» تساءلت.

«لا، لا يمكن أن يكونوا كذلك»، قال بوتر وقد تحمس فجأة. «العبيد لا يمكن أن يبدر منهم كل تلك القوة والعزيمة».

تجهم وجه القبطان كيولي وقال: «لا أرى فارقا مهما كانت مهنتهم أو أصلهم».

«ربما علينا أن ننزل القوارب الصغيرة ونفر بها يا قبطان»، قال رئيس البحارة برو.

هز القبطان رأسه: «سيتمكنون من الانقضاض علينا قبل أن نغادر. إضافة إلى أن الريح بدأت تنشط من جديد». كان على حق، فمع كلامه شعرنا بهبة ريح قوية أعادت الخفقان إلى الأشرعة ودفعت بها بهمة.

قطب كيولي جبينه: «هل بوسعنا استخدام هذا المدفع؟».

«ما من ذخيرة لدينا»، قال بروم مكفهر الوجه.

«وماذا عن البنادق؟»

«لدينا بندقيتان قديمتان في المستودع، لكني لا أعلم إن كانتا تعملان».

صدمني أنه ما من أحد منا فكر بالبنادق الجديدة التي أحضرناها معنا حتى تلك اللحظة. يبدو أن انشغالنا بمحاولة الهرب منعنا من التفكير بأي شيء آخر. «ماذا عن بنادقنا؟» سألت.

وفجأة وجدنا أنفسنا نركض. لم أكن قد شعرت بالارتباك حتى تلك اللحظة التي بدا لنا فيها لأول مرة أننا نستطيع فعل شيء ما. لا أدري كيف شعرت بنفسي في لحظة أني رهين حالة غريبة من الخَرَق، وأنا أتخبط على درجات السلم هابطا مثل سكير ثمل. كان الصندوق ثقيلا كتابوت، لكني مع بوتر واثنين من البحارة تمكنت من إخراجه إلى سطح السفينة. مزق مساعد رئيس البحارة

كينفيغ الغطاء بخطاف فوجدنا أنفسنا نحدق في ست بنادق لامعة ومسدس ببكرة.

انشغل بوتر بعلبة لاحظت أنها ترتعش بين أصابعه. «أعتقد أنه لا بد من طريقة خاصة لفتح هذه. دعني أرَ». مزق الغطاء الورقي بأسنانه فانسكب مسحوق أسود. مزقه أكثر فانكشف رأس طلقة رمادي. «لكن لا بد من خطأ في هذا. الطلقة لا يمكن أن تكون بلا ملقم».

«ربما هناك خطأ ما في تصنيعها»، تساءلت ثم فتحت مخزنا آخر. لكن المشكلة ذاتها أيضا. تفتحه فينسكب البارود ثم تبقى الطلقة مصوبة نحو الاتجاه الآخر، وهذا لا يمكن أن يكون صحيحا. ليس هناك أسوأ من لحظة تجد فيها نفسك مطالبا بالتفكير وحل الألغاز بينما ينفد الوقت أمامك وتسيطر عليك حالة من الهلع والتوتر من خطر القتل الذي يهددك. ما أسهل أن تشعر عندئذ باليأس وتستسلم لفكرة أنك لا تستطيع فعل شيء. نظرت إلى الوراء فرأيت السفينة التي تطاردنا واستطعت تمييز الرجال على سطحها يقفون بهدوء، معظمهم يحمل سيوفا وبعضهم يحمل خطافات.

لم يكن سوى ويلسون من بيننا كلنا من كان لديه الجواب. «ألا يجب إفراغ البارود أولا ثم حشو الطلقة بالجهة المعاكسة؟» وبالفعل، أفرغ بوتر البارود في سبطانة بندقيته ثم قام بحشو الطلقة بواسطة قضيب طويل فانزلقت بسهولة في مكانها. رفع البندقية بعدها وسدد لسبب ما، باتجاه الصاري الخلفي ثم أطلق. دوى الصوت عاليا فعلت أصوات الخنازير والأغنام المذعورة وتصاعد الدخان.

صوب القبطان كيولي نحوه نظرة غاضبة. «اعتقدت أننا نطلق النار على سفينتهم؟»

«على الأقل تأكدنا أنها تعمل، وبشكل جيد أيضا»، قال بوتر وهو ينظر إلى الخلف ثم ما لبثت أن علت الخيبة وجهه. «لقد انبطحوا... جبناء! ». اختفى أعداؤنا ولم نعد نرى أحدا منهم، لكن سفينتهم كانت تقترب باضطراد. بعد لحظات سمعنا دوي إطلاق نار وأزيز طلقة تمر فوق رؤوسنا فوجدنا أنفسنا نرتمي على سطح السفينة أيضا. «منبر الوعظ»، صاح برو. لم يكن في الحقيقة أفضل من ذلك المنبر لنختبئ وراءه. ركضنا كلنا ومكثنا وراءه ونحن لا ندري ماذا علينا أن نفعل.

«ربما علينا فقط أن نطلق النار باتجاه سفينتهم. لا بد أن تُحدث الطلقات أضرارا كبيرة»، قال بوتر.

«ربما لن يزيدهم ذلك سوى عنف ضدنا»، قال ويلسون الذي بدا أنه يتطلع إلى إلقاء المحاضرات عليهم عن الرحمة.

صمت القبطان متفكرا للحظات ثم قال: «أعتقد أن علينا أن نصوب على دفة قيادة سفينتهم». كانت الدفة ظاهرة للعيان بشكل واضح رغم أن البحار الذي يوجهها قد اختفى، ربما لأنه يمسك بها من الأسفل اتقاء لأي رصاص قد نطلقه كما تخيلت. عارض ويلسون ورفض المشاركة قائلا إن ذلك ليس من مهمات رجل الدين، بينما أمسكت أنا ببندقية كما فعل القبطان وبوتر وثلاثة رجال آخرين من جزيرة مان وأمسك كينفيغ بالمسدس. لم أكن قد أطلقت النار من قبل في حياتي، لكني أعترف أني وجدت متعة في الأمر. أولا عليك أن تمزق غطاء المخزن بأسنانك مما قد يلطخ فمك، ثم تقوم بحشوه في السبطانة. بعد ذلك تأتي عملية دفع البارود بقضيب الحشو الطويل ودفع الطلقة الثقيلة. التسديد بعد ذلك ليس سهلا،

لأن السفينة المستهدفة تتحرك، ولأننا كنا نخاف أن نخطئ ونصيب موجه دفتنا المسكين كلوكاس الذي انبطح وكمن تحت الدفة أيضا. وأخيرا عند إطلاق النار ترتج كتفك بعنف هائل، تصفر أذناك وتفوح رائحة البارود الخانقة ويتصاعد الدخان. لكن كل ذلك كان بالتأكيد أفضل من أن نتعرض للسلب أو نقتل، ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا وكأننا في حقل رماية حقيقي. أما البنادق فقد كانت قوية وفتاكة بالفعل كما وعدنا جوناه تشايلدز، وكلما انقشع الدخان قليلا رأينا كم من الأذى قد لحق بالهيكل الخشبي حول دفة القيادة على السفينة المستهدفة. وهكذا تابعنا إطلاق الرصاص عليهم حتى كاد صندوق الذخيرة الأول ينفد، لكنهم مع ذلك كانوا يتقدمون منا باضطراد وقد نشطت الريح أكثر. ثم وفي اللحظة التي اعتقدت أنه علينا أن نصوب باتجاههم مباشرة قبل أن نراهم يقفزون على سطح سفينتنا سمعنا صرخة قوية من رئيس البحارة برو.

«بعضهم يقف».

نظرت فرأيت أن البعض منهم قد وقف بالفعل بينما اندفع البعض يعملون على روافع وحبال الأشرعة المثلثة.

«لنقضي عليهم»، صاح بوتر وهو يتناول مخزن بارود جديدا. «سننال منهم بسهولة الآن».

«وما حاجتنا إلى ذلك؟»، رد عليه القبطان. «يبدو أننا أخفناهم بالفعل وهاهم يفرون».

كان على حق فلم يمض وقت طويل حتى رأينا السفينة التي كانت تطاردنا تبتعد بالتدريج عنا وقد غيرت مسارها بعد أن

حول بحارتها جهة أشرعتها. تعالت صياحات البحارة على سفينتنا وما لبثنا أن انخرطنا جميعا في التهليل فرحا.

«قد لا يكون هذا سوى فخ»، قال بوتر مصرا. «وهم لا يزالون قريبين. أرى أن نطلق عليهم النار مرة أخرى، فقط لنتأكد».

«نعم، أعتقد أنه علينا أن نطلق النار»، وافقه كينفيغ الذي ظهرت عليه علائم الإثارة والحماس.

وهكذا مستسلمين لرغبة الاعتياد أكثر مما تدفعنا الضرورة حشونا بنادقنا من جديد.

«نار»، صاح الدكتور.

أطلقنا جميعا في اللحظة ذاتها، كأننا فرقة تنفيذ حكم إعدام. عندها حدث أمر مذهل. هوت صارية الشراع الخلفي في السفينة المعادية، وسقط بعنف وسرعة مطيحا باثنين من البحارة الذين كانوا إلى جانبه من حافة السفينة، ثم ما لبث أن مال ثانية إلى الخلف محدثا مع اصطفاق الشراع بقوة صوتا هادرا. عمت الفوضى على سطح السفينة وساد هرج ومرج والبحارة يحاولون الإمساك بحبال الصاري، لكنهم كلما حاولوا التشبث عادوا وسقطوا من جديد.

«أظن أن أحدنا قد أصاب قاعدة الصاري»، قال كيولي بهدوء.

أحسست بقواي تخور فجأة بفعل شيء ما انداح داخلي. كأنه خوف قديم مكبوت انفلت وتحرر في داخلي مترافقا مع شعور بالغثيان من كل الأذى والدمار الذي تسببنا به، وما زاد ضيقي أني لم أستطع إبعاد فكرة أنني قد أكون قد قتلت أحدا ما خلال الدقائق الماضية.

«لقد قضينا عليهم»، قال الدكتور بوتر بزهو المنتصرين ولم يبدُ عليه أنه معني بأي من هواجسي المقلقة.

كان على ويلسون أن يتحداه بالطبع. «لقد نجونا»، قال بصوت واثق كمن يصحح خطأ غيره. «أعتقد أن من واجبنا أن نصلي لنشكر الرب».

وقبل أن يضيف أي كلمة أخرى قاطعه كيولي ملوحا بيده. «لكن أخبرني، هل أتابع باتجاه مستعمرة كايب؟ لا أظن أنه من الحكمة البقاء في هذه المياه التي تعج بالقراصنة».

فتح بوتر فمه وأوشك أن يقول شيئا، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة. اكتفى ويلسون بهز كتفيه حائرا. أما أنا فلم تدع الصدمة ما يعينني على الكلام. وهكذا، كحاوٍ يخرج أرانب بيضاء من قبعته، ألقى القبطان أوامره على البحارة ليحولوا مسار السفينة بعيدا عما كان ينتظرنا من مسارات صنعتها أحلامنا في جامايكا باتجاه الجنوب، إلى أفريقيا.

الفصل السادس
جون هاريس - مستوطن وملّاك أراضٍ في تاسمانيا 1829

كنت أجلس على الشرفة في إحدى أماسي الصيف البديعة وأنا أستمتع بتدخين غليوني بعد يوم عمل طويل عندما سمعت فجأة صوت زعيق غريبا، ثم فجأة رأيت الطباخ بيترس يدخل جارّا وراءه طفلا أسود.

«وجدته في مستودع التبريد مختبئا وراء السلال وكان يأكل قطعة لحم سرقها، لكنها كانت نيئة»، قال بيترس موضحا.

لم يكن صعبا أن أتكهن من أين أتى ذلك المخلوق الصغير. فقبل بضعة أيام قامت عصابة من أبناء جلدته بقتل رجلين من حراس المستودعات في منطقة قريبة. قام هيثكوت وقتها بملاحقة أولئك الأوغاد مع بعض الرجال وتمكنوا من القبض عليهم وإنزال ما يستحقون من العقاب بهم، لكن سمعت أن بعضهم تمكن من الهرب.

«هل لاحظت أحدا غيره؟» سألت.

«لا، هذا فقط».

لم يكن قد سبق لي رؤية أحدهم عن قرب، وكم بدا لي ذلك المخلوق قبيحا بالفعل. لكن لم يكن لدي وقت أضيعه

مع اللصوص، ولا مع الهمج أيضا، وكنت على وشك أن أنادي أحد الخدم ليلقي به خارج أرضي عندما فُتح الباب الذي خلفي ودخلت لوسي. كثيرا ما أفكر أنه ما من حدود لحماقة النساء، فما إن وقعت عينا لوسي على ذلك الكائن المتوحش حتى اقتربت منه وجثت على ركبتيها إلى جانبه وهي تداعبه وتناديه «يا طفلي الصغير»، رغم أنه قد تجاوز السابعة بالتأكيد. «أي جوع تقاسيه بهاتين الساقين النحيلتين؟! يجب أن تستحم يا صغيري المسكين». وعندما حاولت أن أثنيها عما تفعل تحولت فجأة إلى أنثى شرسة وغاضبة، كما يجدر بابنة بارون ثم أمسكته من يده وقادته نحو الداخل. تمنيت لو أنه عضها، لكنه لم يفعل بسبب خوفه ربما. عادت بعد ساعة وقد ألبسته بعض ثياب تشارلي القديمة التي بدت عليه مضحكة للغاية ثم جلست وأطعمته ما يقارب نصف حصة كاملة من اللحم. توقعت أن يفر ما إن يملأ معدته بالطعام، لكن لا، بدا عليه أنه اعتاد على لوسي كما اعتادت هي عليه، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت تطالب أن نحتفظ بذلك العفريت.

هنا كان علي أن أضع حدا لتماديها. لم تكن لوسي سهلة والخلاف معها يعني معركة حقيقية، تبدأ بالدموع ولا تنتهي عند ديوني لأبيها، إلا أني صممت على رأيي. قلت لها بوضوح إني لا يمكن أن أوافق على ذلك إلا إن تم بالطريقة الصحيحة. كنت أعني بذلك إن كان علينا الاحتفاظ به فيجب أن يكون مفيدا، أي أن يتعلم. ولم أكن في الحقيقة أهدف إلا إلى إبعاده لأني تخيلت أنها ستنساه بمجرد ذهابه، ولم يخطر في بالي أكثر من مدرسة هوبارت للأيتام. لكن لوسي لم تقتنع بالمكان وقالت إنه لن يصمد لأكثر من أسبوع

هناك، وكانت على حق في هذا. صدعت رأسي بعد ذلك بموجة من النحيب والإلحاح فما كان مني إلا أن استسلمت في النهاية مقترحا إرساله إلى السيد غريغسون في بريستول. غريغسون يدين لي بالكثير بعد كل ما جلبته له من تجارة وصفقات، وليس كثيرا أن أطلب منه أن يكلف نفسه عناء يوم إجازة أو اثنين ليبحث عن مدرس مناسب للصبي.

بعد تسوية الأمر قلت للوسي إنه لا بد للصبي من اسم. قالت إنه يطلق على نفسه اسم تاياليه أو شيء من هذا القبيل. لكن لم يكن ذلك اسما فأطلقت عليه جورج على اسم الملك، ثم فان ديمن مكان ولادته اسما ثانيا. جورج فان ديمن، اسم عظيم. بعد ذلك كان علي البحث عن سفينة تبحر إلى إنجلترا ومراسلة السيد غريغسون شارحا له الأمر ومؤكدا له أن الصبي لا يعض، وانتهزت الفرصة لأطلب محراثا جديدا بدلا من الذي كُسر قبيل عيد الميلاد. أرسلت مع خطابي عشرة جنيهات، ما يكفي لتغطية تكاليف التعليم والإقامة لسنتين، فقد شرحت للسيد غريغسون أن الصبي لا يحتاج سوى إلى تعلم القراءة والكتابة وأن أي كماليات فوق ذلك لا داعي لها لأنه ببساطة لن يفهمها.

حان موعد رحيله أخيرا وأتى اليوم الذي وضع فيه على مقعد العربة ليتم نقله إلى هوبارت. لم تكف لوسي عن البكاء وهي تتحدث بكلمات إنجليزية علمته إياها حتى رفع الحوذي سوطه وانطلق الحصان يجر العربة. سيطرت عليها في الأيام التالية حالة من الكآبة ما لبثت أن تلاشت تدريجيا بعد أيام واستعادت حيويتها. أي حماقة في تبذير عشرة جنيهات على فعلة كهذه! لكن التخلص من ذلك الكائن الهمجي يستحق العناء على أي حال.

ترى ما الذي بوسع بضعة معلمين مساكين فعله في بريستول مع مخلوقات مستعمرتنا الهمجية.

جورج أولدر، حاكم أرض فان ديمن إلى السيد سميثسون في لجنة السجون، جمعية الأصدقاء، لندن، 1829

تلقيت خطابكم الخاص بالاستفسار عن نظام العقوبات في مستعمرتنا ببالغ السعادة، وكلي أمل أن تكون تجربتنا هنا نموذجا تدرسه الحضارة الإنسانية، ليس في إنجلترا وحدها، بل في بقية أنحاء العالم أيضا. فمنذ الأزل شغل عقل الفلاسفة سؤال كبير: لماذا يتحول البشر إلى مذنبين يغرقون في الرذيلة وكيف يمكن إصلاحهم؟ أعتقد أن مستعمرتنا هي النموذج الأفضل لمواجهة هذا التحدي وفق أسس علمية، إذ إنها أرض مسكونة بمخلوقات ذات طبع شرير وهمجي، وهذا يتيح لنا تطبيق معارفنا والتجريب في تطوير أدواتنا العلمية. هذا ما تصدر أولويات اهتماماتي منذ أن توليت منصبي كحاكم قبل خمس سنوات، ولم أدخر جهدا في ابتكار أساليب ووسائل مناسبة لتطوير الإنسان على هذه الجزيرة وإيجاد آلية فعالة لإصلاح أولئك الذين حادوا عن جادة الصواب.

لقد حققنا الكثير من طموحاتنا في هذا الشأن، ولن يطول الوقت بأي محكوم يصل إلى هنا ليدرك أنه إنما وصل إلى ما أسميه رقعة شطرنج أخلاقية، حيث كل إنسان يتاح له أن يختار ما ينفعه. إن كان صادقا ومخلصا سيرتقي وستتحسن ظروفه الصعبة ببطء ولكن باضطراد حتى يجد نفسه في النهاية في أعلى طبقات العقوبة السبع التي ستعده للحصول على تذكرة الخروج، وبهذا يصبح جديرا بتجربة الحرية في هذه المستعمرة. أما إذا أخطأ، فسيعرف ما ارتكب سريعا. سينحدر ويهوي بسرعة مع كل

ذنب أو خطيئة يقترفها. سيحرم أولا من تذكرة الخروج الخاصة به وسيعمل في الزراعة. عقوبته التالية ستكون أن يكلف أشغالا شاقة في المشاريع العامة، من شق الطرق والبناء إلى الأسر في السلاسل تحت حر الشمس وفي البرد. أما إن تمادى أكثر فسيهوي إلى البؤس الشامل في مستعمرات اعتقال خاصة كتلك التي في ميناء ماكواري في أقصى الساحل الغربي، حيث يكابد مغمورا حتى خصره بماء البحر البارد مثقلا بالسلاسل في أطرافه وعنقه وهو يجر جذوع أشجار عملاقة، وما إن يتراخَ للحظة واحدة حتى تنهال السياط على ظهره. وهنا يكون قد وصل إلى أدنى طبقات العقوبة السبع، حيث ما من خلاص سوى أن يشنق. بهذا فقط يكون قد واجه أخيرا العدالة المطلقة، عدالة الرب. هل تغلق أبواب الرحمة هنا؟ لا بالطبع، فالمحكوم قد يتمكن من النجاة إن تعلم من تجربته. إذا استطاع أن يبدي تحسنا في سلوكه وأخلاقه قد يرتقي من جديد إلى طبقات أعلى، لكن ذلك سيتطلب وقتا طويلا إذ عليه أن يعيد التسلسل من جديد من أدنى الطبقات إلى أعلاها. عندها يمكن له أن يحصل على فرصته في الحرية في هذه المستعمرة. في حالات نادرة قد يتخطى المحكوم عدة طبقات دفعة واحدة إذا ما فعل أمرا استثنائيا يثبت صلاحه.

قد يبدو نظام العقوبات هذا قاسيا للوهلة الأولى، لكنه ليس كذلك في واقع الأمر. إنه لا يختلف في العمق عن قاعة صف في مدرسة لكونه وسيلة لتنوير العقول وإصلاح الإنسان ومؤسسة عظيمة لتطوير المجتمع وتحقيق العدالة والسعادة. وبالطبع لا بد لنظام كهذا كي يحقق الغرض منه أن يحظى على إجماع أنه عادل. لهذا بذلت جهودا كبيرة كي أمنع أي استغلال لأي محكوم

من قبل الموظفين أو الوافدين، وعملت بالمثل على الحيلولة دون ممارسة أي شكل من أشكال التمييز مع المحكومين. فكما تعلم، فإن أحد وظائف هذه المستعمرة أن تحافظ على سمعة رهيبة تثير الذعر في أصقاع نائية كلندن وغلاسكو لكي يرتدع الحمقى عن ارتكاب المعاصي. ومن المهم أيضا التأكيد على أنه لا يمكن الإفلات من نظام العقوبات هنا كي لا يبني أي محكوم أحلاما على أوهام فارغة. ولتحقيق هذا الهدف كان لا بد لي من تطوير آليات رقابة صارمة كالتدقيق في ثبوتيات الهوية وتصريحات السفر في كل أنحاء المستعمرة. وقمت أيضا بتأسيس ما أعتقد أنه أكثر الأنظمة فعالية ودقة في جمع وتصنيف المعلومات حيث يتم جمع بيانات دقيقة وتفصيلية عن كل رجل يقطن المستعمرة، حرا كان أم محكوما، وتتم أرشفتها في مجلدات ضخمة تسمى السجلات السوداء. تتضمن هذه البيانات كل شيء من التوصيف الفيزيولوجي إلى رصد التطور الأخلاقي. نقوم بمراجعة دورية لبنك المعلومات الهائل هذا، ونضيف ونصحح ما تقتضيه الضرورة والمستجدات، كما أننا نشجع المحكومين والمستوطنين على حدٍّ سواء بإبلاغنا أي شيء يثير الريبة في سلوك جيرانهم ومعارفهم بغية تطوير ما لدينا وإغنائه باستمرار. وفي الحقيقة لو كان كل مواطن مستعدا ليكون مخبرا لصالح إدارة المستعمرة، لارتدع أكثر الأشقياء ضراوة ولعمّت الاستقامة والصلاح في كل مكان.

لا أنكر أن تدابيري تلك كانت تواجه عوائق وصعوبات في تطبيقها. فالمستوطنون الأحرار أبدوا استياءهم من معاملتهم معاملة تشبه معاملة المجرمين، والأغنياء منهم أعمت الثروة قلوبهم غرورا وعجرفة فتكتلوا ضدي. لم أجد مبررا لاعتراضهم،

فمن الضروري حفظ بيانات المستوطنين كي نمنع أيا من العصاة من انتحال هوية غيره. وبالإضافة إلى ذلك لا يمكن إنكار كم من المفيد أن نتعلم من تاريخ وتجارب كل من يقطن المستعمرة. حدث بالفعل أن عدة رجال وصلوا إلى هنا باعتبارهم مستوطنين أحرارا، لكنهم سرعان ما أفصحوا عن الشر في دواخلهم وانتهى بهم الأمر سجناء في مستعمرة ماكواري. لذلك لا أرى في إصرار المستوطنين على اعتبار أنفسهم أبرياء بالمطلق سوى غرور صرف. فمن يستطيع بعد آدم وحواء أن يدعي براءته من الخطيئة؟!

كثيرا ما وجدت نفسي أتخيل نظام عقوبات عظيما كهذا يعم تطبيقه في كل مكان ليشمل حتى المجتمعات الحرة فيسود العدل بعد أن يخضع كل إنسان لمبدأ تقويم السلوك والردع عن المعاصي، وبهذا لا يجني الفرد سوى ما يستحقه من مكافأة أو من عقوبة. وإذا ما أمكن تطبيق نظام لجمع المعلومات على ذات المستوى من الكفاءة والعبقرية فعندها سيكون من المتاح لنا أن نسيطر على سلوك الفرد عبر رصد وتقويم مساره الأخلاقي بشكل مستمر. ما أروع أن يكافأ المرء على نجاحه واستقامته، لا على ضلاله وفسقه. لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال نظام يتيح معاقبة حتى أولئك الذين لم يقترفوا الجرائم بعد، الكذابين والمخادعين والمتواطئين.

لا تزال هذه الأفكار مجرد أحلام بالطبع، فمن المبكر التنبؤ حتى بالنجاح الكلي لنظام العقوبات الحالي. لكني أستطيع القول إن النتائج مبشرة وتدعو للتفاؤل، وأنا آمل فعلا أن تتحول تجربتنا على هذه المستعمرة النائية إلى نموذج يحتذى به في كل مكان في بناء المستقبل وكنظام يمكنه إصلاح الإنسانية والقضاء على الشر والإجرام نهائيا.

جاك هارب، 1824 - 1830

بعد أن تم القبض علي في جورج تاون وجدت نفسي أشقى وأكدح في زي السجناء النتن على الطرقات وفي مستودعات هوبارت. أوقفني ضابط بعد أربع سنوات من اعتقالي وأخبرني أني تطورت. ولهذا تم ترحيلي للعمل في أحد الحقول قرب لونسيستون مع الأبقار الحلوبة والأغنام الوديعة. كنت محظوظا بذلك إذ إن المالك كان لينا ومتساهلا. في عيد الميلاد أعطانا بعض الحلوى، بل وجلس معنا ليأكل، وكان هذا ما أدى للمتاعب لاحقا كما سمعت. لا بد أن بعض البلهاء أفشوا أننا نعامل برفق، فلم يمض شهر حتى طردنا ورحّلنا للعمل في حقول أخرى. لم تكن المزرعة التي رُحّلت إليها بالغة السوء لولا أن المعتوه صاحبها وضع فكرة خرقاء في رأسه مفادها أنه لا يمكن لرجل أن يقترب من بيته، من دون أن يأتي الفاحشة مع زوجته، ولم يكن في الحقيقة ما يبرر تخريفه إذ إن امرأته لم تكن سوى عجوز قبيحة. وجد الرجل في وساوسه ذريعة ليوسعنا ضربا متى يشاء. يكفي أن تبدر عنك لحظة تعب أو تراخٍ أو تصدر عنك ضحكة لم يفهم سببها حتى ينهال عليك بالسوط. احتملت ذلك لفترة ليست بالقصيرة حتى أتى يوم اندفع فيه نحوي هائجا يتهمني أني حلبت البقرة بطريقة غير ملائمة

مـما سـبب لهـا المـرض. لم يكـن ذلـك سـوى محـض افـتراء، وبـدل أن أنتظـر دوري في الجلـد هـذه المـرة قـررت أن أسـبقه قبـل أن ينـال منـي فهجمـت عليـه ولقنتـه درسـا قاسـيا لـن ينسـاه. وهكـذا بـدا لهـم أني لم أتطـور، بـل إن حالتـي سـاءت كـما قالـوا، ورُحّلـت عـلى إثرهـا للعمـل في أحـد الجسـور.

كان ذلـك الجـسر الأسـوأ مـن كل مـا مـر عـلى رأسي. كان العمـل مضنيـا، تكسـير ونقـل قطـع كبـيرة مـن الأحجـار، وعلينـا النـوم كل ليلـة في صناديـق تشـبه التوابيـت ولا تتسـع حتـى للجلـوس، الحـرارة فيهـا قاتلـة كالجحيـم. والأسـوأ مـن ذلـك، الموظـف المسـؤول كان سـافلا؛ لا يـكل سـوطه عـن جلدنـا. أمـا البقيـة مـن المحكومـين فلـم يكونـوا أكـثر مـن زواحـف عرجـاء. بلـغ منـي الضيـق أني لم أعـد أفكـر إلا في فعـل أي شيء يريحنـي مـن وجـه الموظـف أو الفـرار، وأوشـكت أكـثر مـن مـرة عـلى الركـض بـكل مـا أحملـه مـن أغـلال هاربـا نحـو الدغـل القريـب. لكنـي لم أفعلهـا، وفضلـت أن أنتظـر الوقـت المناسـب.

لم يكـن مسـموحا لنـا بالـكلام فصعـب علينـا معرفـة أخبـار مـا حولنـا، إلا أنهـا كانـت تصلنـا في النهايـة. أول مـا سـمعته عـن الخـط كان مـن مـزارع توقـف ليسـقي فرسـه. عرفـت لـدى رؤيتـه أنـه كان سـجينا في وقـت مـضى، إذ إن المسـتوطنين قلـما يلاحظـون وجـود رجـل إذا مـا كانـت الأصفـاد تقيـد قدميـه. لم يتحـدث إلينـا خوفـا مـن المتاعـب، لكنـه تكلـم مـع الحـراس بصـوت عـالٍ سـمعه كل مـن حـول النهـر متعمـدا أن يصـل صوتـه إلينـا نحـن.

«يبـدو أن الحاكـم وجنـوده سـيعبرون في النهـر مـن هنـاك»، قـال وهـو يشـير إلى قواعـد الجـسر الناتئـة مـن ميـاه النهـر كأنهـا أذرع. «سـيفعلون ذلـك عندمـا يطـاردون السـود».

كان ذلك كافيا لإثارة الأحاديث والثرثرة بين ثقوب صناديق النوم حول الحاكم أولدر وكيف يريد أن يلعب دور نابليون في محاربة أسراب من الغربان. سمعت بعد ذلك الحراس يهمسون حول الأمر وقالوا إنه الخط الأسود. بدا واضحا أن الموضوع يثير الكثير من اللغط وأن المستوطنين والجنود يتجمعون بالآلاف لمطاردة أولئك السود واستدراجهم ليقعوا في الفخ. شغلني الموضوع وجعلني أفكر؛ كم يحتاج جيش كهذا إلى أعمال واختصاصات من كل صنف حتى ليبدو أي رجل منهم خيرا من أي أحد لا يفعل شيئا سوى تقطيع الأحجار. وأكثر ما أثارني فكرة سهولة الفرار من بين حشد من الرجال يتجمعون في مكان صغير كالخليج القريب مثلا. كم من اليسير أن تختفي من بين حشد هائل كهذا دون أن ينتبه إليك أحد! لم أخبر أحدا بما دار في ذهني، فأفكار عظيمة كهذه يجب إخفاؤها بعناية كما تخفي دولارا وجدته في الطريق، وخطت عليه بطانة سترتك. زد على ذلك أن لا أحد من جمعنا المقيت يستحق أي معروف مني.

وهكذا عندما أعلن أحد الموظفين المسؤولين الحاجة لمن ينضم إلى حملة في المستعمرة سارعت إلى إبداء استعدادي وسبقت الجميع في رفع صوتي باسمي. حدث ما كنت أريده واختاروني. ما زلت أذكر كم كنت مسرورا بوداع الجسر المقيت رغم أني كنت أجرجر قيودي وأنا أمشي. في ذلك اليوم أُوقظنا مع الفجر وكان علينا أن نقف وننتظر الموظفين للانتهاء من فطورهم. عندها خطر لأحد الأوغاد الذين كانوا سيبقون في صناديق النوم أن يطلق نكتة سمجة. صاح فجأة: «احذروا أن يصيبوكم برمح في أحشائكم». أثار ذلك موجة من الضحك الصاخب بين الصناديق، وكان في حقيقته غيظا أكثر من كونه مرحا، لأننا سنذهب بينما هم سيبقون. لم أطق صبرا فرحت أصيح بصوت

يشبه «سيك سيك سيك»... نكزت من أمامي فانضم إلي في الصياح ثم تلاه بقية الواقفين معنا وعلت أصواتنا: سيك... سيك سيك... سيك... مقلدين الضجيج الناجم عن تقطيع وتكسير الأحجار، الفعل الذي لا يملك من سيبقى سوى أن يستمروا في تكراره كل يوم لسنين قادمة. ضحكت كثيرا وكنت أهمّ بإلقاء بعض الحصى عندما عاد الموظفون.

غادرنا، وبعد خطوات مثقلة بأصفادنا انعطفنا حول التلة وغاب ذلك النهر العكر عن أنظارنا. سرنا ببطء إلى أن وصلنا إلى شاطئ البحر بعد بضع ساعات حيث قرر الموظفون أن نتوقف ليدخنوا ويأخذوا قسطا من الراحة. كنت بحاجة لذلك فاستلقيت على العشب ألتقط أنفاسي وأدلك كاحلي حيث جرحتني القيود. عندها رأيته، يمتطي حصانه ممشوق القامة على السرج العالي ويتقدم باتجاهنا بخيلاء كأنه فارس. خلت أنه في طريقه إلى لونسيستون للتطوع في الحملة كما يجدر بأي من رعايا الملك الصالحين. لم يكن سوى صديقي القديم بيل هاسكينس.

لم ينتبه إلي في البداية. توقف ليسقي فرسه، ومن سيهتم بسجين مقيد يستلقي على العشب؟

لكنه عرفني بعد أن أثرت فضوله. نهضت وتناولت حصاة صغيرة ثم مضيت إليه وساعدته بالترجل عن فرسه. قدمت له قطع نقود صغيرة بدل ذاك الدولار الإسباني والنقود الفرنسية. لا أدري كيف تمكنت من فعل كل ذلك قبل أن يقبض علي ذوو المعاطف الحمراء، لكني فعلتها وكسرت عين ذلك الوغد. كانت حماقة بالتأكيد، لكني لم أندم على ما فعلته رغم أني خسرت فرصتي في الانضمام إلى حملة الخط الأسود. وفي كل الأحوال لم أكن وقتها أعلم إلى أين ستقودني فعلتي تلك.

بن هايز - مزارع في أرض فان ديمن، 1830

يقينا لو رغب المرء بتنشق رائحة البارود النفاذة فلن يجد مكانا أفضل من هذا. لم أرَ في حياتي عددا ضخما من البنادق في مكان واحد تصطف هكذا بمحاذاة الجدار وتستند على صناديقها المفتوحة ورائحة زيوت معدنية نفاذة تفوح منها. أنشئ ذلك المستودع في أوتلاند، على الطريق الرئيسة إلى لونسيستون. كنت قد مررت من هناك سابقا، ووجدته مكانا هادئا، بضعة بيوت فقط على قارعة الطريق. لكن هذه المرة كان يعج بالحركة والضوضاء. بالإضافة للمحكومين والجنود كان هناك عدد كبير من المتطوعين في حملة الخط الأسود مثلي، وقد ذكرني ازدحام المكان بسوق نوريش. أينما نظرت وجدت من يصافح أحدا ما لم يره من شهور أو سنة، وكلمات الترحيب والمجاملة تتطاير في المكان كأنها مفرقعات في مهرجان. أتيت مع سام فريس أحد جيراني، وهو رجل يتحدر أصله من نورفوكل، سبب يكفي لجعل صباحي باهرا حقا، إذ أمضينا الطريق في تجاذب أطراف الحديث وتبادل الأخبار المثيرة. ذهبنا سوية بعد وصولنا لنتسلم سلاحنا مما تطلب الوقوف في الدور لساعات طويلة. وعندما حصلت على بندقيتي اكتشفت كم هي ثقيلة

وشعرت بالسعادة لأني أحضرت مسدسي معي. تسلمت معها زوجا من القيود ومخزنا من الذخيرة.

«هل هذا كل ما سأحصل عليه؟» سألت أمين مستودع الجيش لأن سام حصل على ما هو أكثر مني.

«ثلاثون حشوة. هذه حصتك فقط»، قال أمين المستودع بفظاظة.

«ماذا لو أعدت لك هذه وأعطيتني ثلاثين أخرى بدلا منها؟» ورفعت إليه زوج القيود. «لن أحتاج إليها. سأكون عندها قادرا على النيل من تسعة وخمسين من أولئك الأوغاد إن حدث وأخطأت التصويب مرة».

ضحك سام عاليا وهو يذهب إلى ناحية يستمتع فيها بشمس الربيع. «لم يبق الآن سوى أن نرى المحافظ على صهوة جواده يلعب دور الجنرال. دور لا يناسبه بشحوبه وهزاله، كأنه أحد الأشقياء وقد ربط على حصان. وبالفعل ما هي إلا لحظات، حتى صاح جنديان كي يُصمتا الحضور وتقدم الحاكم ليتحفنا بخطاب. شكرنا على قدومنا للانضمام إلى الحملة، أمر كنا نرغب به على أية حال، ثم راح يحدثنا عن السود وشقائهم وأن علينا أن نتحلى بالحذر كي لا نؤذي ولو شعرة على رؤوسهم، بل أوصانا بالرفق في معاملتهم كي نتمكن من هزيمتهم بالكلمة الطيبة. «تخيلوا أنفسكم في رحلة لصيد الدجاج البري»، قال شيئا من هذا القبيل إن لم تخني الذاكرة. حسنا، هو كان ينتظر التصفيق لما هذر به، لكن في الحقيقة لم يحصل سوى على بعض الهمهمات المستاءة، التي سرت بين جمع الحاضرين. لولا استياؤنا من هرائه وتخريفاته لما كان استطاع إنجاز أي شيء في الواقع.

ذهبت في المساء مع سام إلى الحانة فوجدناها تغص بالرجال. اجتمع الكل هناك وعمت البهجة، كل يحاول أن ينال ما يستطيع من الشراب للمرة الأخيرة، قبل أن نتوجه في الصباح الباكر في حملتنا نحو الغابة.

«أتدري ما علينا فعله؟» قلت لسام. «يجب أن نشرب كأسا من الروم عن كل غراب نقضي عليه منهم».

«هذا ليس عدلا، لأننا سنشرب كل قطرة هنا»، قال واستغرق في الضحك.

جعلني الإفراط في الشراب أشعر بصداع قوي في رأسي ونحن نبدأ مسيرنا في صباح اليوم التالي. المشكلة في ذلك المسير ببطء خطوة خطوة، أنه يجعل الرجل يستسلم لأحلام اليقظة. حاولت كثيرا دون جدوى أن أشغل نفسي في تأمل ما كنا نعبر به من حقول وأشجار وبترقب أي شيء ما قد ينذر بالخطر وراء الأدغال والأحراج التي عبرنا بها. وبينما كنت أفكر بمشاريع المستقبل، بالمتجر الّذي سأبنيه وبأسعار الصوف وتقلباتها تنبهت فجأة إلى حركة عنيفة أمامي فتسارعت دقات قلبي وأخذ صدري ينتفض كمحرك بخاري. انبطحت أرضا وأمسكت ببندقيتي متلفتا حولي لعلي أرى سام أو بيت تانر الذي كان إلى يميني، لكنني لم أرَ أحدا، كأن الأرض اتسعت بيننا أو كأن الأشجار قد فرقتنا. استبد بي القلق، لكنني عندما أمعنت النظر جيدا بعد لحظات اكتشفت أن كل ما حدث لم يكن سوى أوهام ووساوس. لم يكن الأمر سوى حركة كنغر يفر، أو ربما غصن تقصف بفعل الريح. هل كان خوفا مما ألم بي؟ لا، بالتأكيد لم يكن كذلك، لكن التعب والإرهاق يجعلان الرجال متوتري الأعصاب.

الحاكم وحده، ذلك البغيض يتحمل جريرة ما حدث. فلا يمكن لأحد أن يتخيل تنظيما أكثر سوءا لحملة مثل هذه. منذ البداية لم يكن لدينا حتى خيام، وها نحن جيش كامل كما تبجح لنا، وعلينا أن نقضي ليلتنا في العراء لا شيء يسترنا كرهط من المتسولين. لم تغمض عيناي تلك الليلة، فكلما تحركت نخزت أضلاعي بحصاة أو جذر، ولم يدعنا المطر وشأننا إذ انهمر متسللا من بين متاهة الأغصان والأوراق التي كنا نحتمي بها. هذا عدا الترقب واليقظة التي تجعلك تنصت إلى أي نأمة أو حركة وتحرمك من النوم. ومع مرور الأيام ومع كل ميل كنا نقطعه كان الخوف ينمو داخلنا. ماذا لو كان بضع مئات من أولئك المتوحشين يكمنون لنا على مقربة، ربما هناك على بعد خطوات. بل ماذا لو كانت المرأة القذرة هناك، تلك المسترجلة التي سمعت الكثير من الأقاويل حول عنفها، كيف تصرخ كمحارب وكيف تقطع الرجال بطرق لا تخطر على بال. لا، لم تكن تلك حربا نخوضها، بل مجرد استنزاف وحشي لنا.

لم أكن وحدي متيقظا في ظلام الليل. ففي إحدى الليالي الغائمة كان الظلام دامسا، وما إن هممت بالخلود إلى النوم حتى سمعت صوت إطلاق نار رهيبا في جهة الشرق. قفزنا مذعورين على أقدامنا أنا وسام؛ ساد الهدوء للحظة ثم ما لبث أن أطلقت البنادق جحيمها في تلك العتمة ودوت كأننا في معركة حقيقية. نظرت إلى التلال حيث كنا، فرأيت مشاعل تضيء وتمتد كومضات إلى الأفق. لم يكن من السهل في لحظة كهذه أن تكتفي بالوقوف محدقا في فراغ العتمة الممتدة أمامك، وعلى الرغم من أني لم أسمع أصواتهم إلا أن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا هناك. خمسمئة كائن متوحش،

هــذا مــا قدرتــه مــما رأيــت عــلى أقــل تقديــر. وهكــذا وجــدت نفسي مــع ســام والآخريــن نطلــق النــار، عــلى الأقــل لإخافتهــم وإبعادهــم. اســتمر ذلــك لبرهــة ثــم عــم الصمــت مــن جديــد. وانقضــت ليلــة أخــرى لم أتمكــن فيهــا مــن النــوم.

توقعــت في صبــاح اليــوم التــالي أن أســمع عــن مقتــل عــدد مــن الســود، أو أسرهــم عــلى الأقــل. لكــن لا، كل مــا كشــفه لنــا ضــوء الصبــاح لم يكــن ســوى آثــار أقــدام لبضعــة مــن حيوانــات الأبوســوم[5]، لغــز ســبّب لنــا الكثــير مــن الحــيرة. إلا أنــه لم يكــن بوســعنا فعــل شي، فحزمنــا متاعنــا وتابعنــا المســير مــن جديــد.

(5) الأبوسوم Possum حيوان صغير يعيش في أستراليا يتميز بوجود جراب على جلده يضع فيه مواليده. (المترجم).

بيفاي، 1830

جعلتنا أمي نحوم حول النار لأيام عديدة بحثا عن تاياليه رغم الخطر المحدق بنا، إذ إن البيض قد يعودون في أية لحظة ويقتلوننا. لم تكف طيلة تلك الأيام عن النحيب وترداد اسم ذلك الـ تاياليه بتفجع رهيب. أقلقني كثيرا أن يقفز ذلك الوغد الصغير من بين الأشجار ويعود فعلا لينغص علي حياتي، لكن ذلك لم يحدث، وفي النهاية خضعت أمي وغادرنا ذلك المكان الموحش. لم أكن قد يئست بعد من أن يجعلها غيابه تنتبه إليَّ ويرق قلبها فتغمرني بحنوها أخيرا، لكن آمالي ذهبت أدراج الرياح. بل إن كراهيتها لي ازدادت، وأصبحت ترمقني بنظرات تفيض حقدا، كأنني أتحمل ذنب اختفائه. لم تعد تكف عن ذكره وترداد كم كان شجاعا وقويا، ولم يجرؤ أحد على قول إن ما تقوله ليس سوى هراء. الجميع كان يخشى من إغضابها.

وهكذا تابعنا حربنا ضد البيض، نتجول شرقا وغربا، ذهابا وإيابا هنا وهناك حتى أصبحت الغابات التي نعبرها غريبة ولم أعد أعرف الأشجار. كان أمرا محزنا لي، ورحت أحلم بذلك العالم الذي أعرف حكاية كل صخرة وكل نهر فيه، أميز روائح الحيوانات كلها وآثارها، هناك حيث يعيش تارتوين وجدتي، إن لم يكونا قد

قتلا بعد. كنا في بعض الأحيان نقول إننا نريد العودة، لكن أمي تقول دائما إنه لم يعد مهمّا أين نذهب وأين نعيش الآن، فكل العالم أصبح مكانا واحدا لحروب البيض السفلة. وكانت على حق، إذ كان البيض ينتشرون في كل مكان، وقلما مر يوم، من دون أن نرى واحدا منهم على الأقل يطاردنا فوق تلك الحيوانات المضحكة التي يسمونها أحصنة. فقط لو كانوا في مساحة أصغر لقتلناهم جميعا، لكنهم كانوا كثرة، فكنا نتمكن من البعض منهم أحيانا، وكانوا هم أيضا يقتلون الكثيرين منا.

كانت أمي بعد كل معركة تجعلنا نسير أسرع وإلى مسافات أبعد كي لا يتمكنوا من العثور علينا. لم يعد بإمكاننا إيقاد نار كبيرة لأن أمي قالت إن ذلك سيكشفنا وسيدل البيض على مكاننا، واكتفينا بإشعال نيران صغيرة في حفر عميقة لم تكن تدفئنا. كانت أياما مضنية بردا وجوعا، وكنا نقضي فترات طويلة لا نأكل شيئا سوى الجذور، ومع ذلك لم يتمكن منا البيض ولا حتى غدرا في الليل. أجل، كانت أمي ذكية بالفعل.

ذهبت في أحد الأيام مع هيديك للصيد دون نار، لذا توجب علينا أن نفعل ذلك مع الفجر وأن نكمن بحذر وننصت لأي حركة تبدر عن ولب قريب. كان هيديك رجلا في مطلع شبابه، لكنه لم يتزوج بعد. شعره أحمر دائما إلا في الأوقات التي ينفد فيها الصبغ، طويل ينسدل على كتفيه كشلال ماء ينسكب فوق صخور ضخمة. كان أخرق بعض الشيء، يعبث بالنار أو يتعثر بالجذور والأغصان، لكنه كان لطيفا معي ولا يناديني بأسماء مهينة كما كانت تفعل أمي، ومع الوقت أصبح بمثابة أخ لي. لم يكن ماهرا في الصيد، وغالبا ما تكون أي محاولة معه مجرد انتظار نعود بعدها خالي الوفاض.

لكن الأمر كان مختلفا في ذلك الصباح. لم يطل انتظاري يومها. كنت أرتجف بردا، إذ وجب علي الوقوف دون أية حركة أو صوت، وفجأة سمعت حفيف أوراق وصوت طقطقة أغصان يابسة. استبشرت خيرا بحسن طالعي هذا، وفكرت كم سأبدو بطلا لو عدت إليهم ببعض اللحم وهم يتضورون جوعا منذ أيام. توقعت من الأصوات والحركة أن يكون ولبا سمينا أو ربما أحد نمور تاسمانيا المخيفة، لكننا نستطيع أكله على أية حال. أشار هيديك إلي بنظرة صامتة لينبهني إلى جهة الصوت وأجبته بإيماءة ثم جثوت وراء الشجيرات وجهزت رمحي. سمعنا صوت حركة من الجهة ذاتها، لكن بدل أن يظهر لنا ولب أو نمر خرج رجل أبيض يحمل بندقية وسكينا. حيرني الأمر، فما من عادة البيض أن يدخلوا الغابات. خطر لي أنه ربما كان يصطاد مثلنا، لكن أي حماقة، فالطرائد ستشم رائحته القوية وحتى أنا ميزت رائحته. وما زاد الأمر غرابة أنه لم يكن يمشي في مساحات الأرض المكشوفة بل يحاول التقدم في الأمكنة المغطاة. رأيته يقطع الأغصان بسكينه كأنه في عراك مع الأشجار وهو يحاول شق طريقه بينها. لا بد أنه كان يفعل ذلك منذ وقت طويل، إذ إن جسده كان مليئا بالجروح وبشرته حمراء مسلوخة تنز وتكشف عن لون لحمه الدامي تحتها. أومأ هيديك إلي أن أبقى ساكنا مكاني، بينما يذهب هو من ورائه ويقنصه برمحه. فاجأني ذلك وأقلقني أيضا، إذ إن الرجل الأبيض يحمل بندقية في النهاية. لكن شيئا لم يحدث. فما إن وصل هيديك إلى مكان يستطيع منه قنص الرجل حتى سمعت أصواتا أخرى. نظرت فرأيت رجلا أبيض آخر، محمر البشرة أيضا ويحمل بندقية. ثم سمعت أصواتا أخرى وجلبة من الجهة ذاتها. تبينت بعد ذلك وجود عدد آخر من

القتلة البيض، كلهم محمرو البشرة مع أسلحتهم. شعرت أننا في مأزق فنظرت إلى هيديك الذي أشار برمحه إلى الجهة المؤدية إلى حيث أمي والآخرون ثم انطلقنا بحذر عائدين.

أخبرنا أمي بما رأينا فاستنفرت. «دعنا نذهب إلى مكان مرتفع نستطيع أن نرى منه جيدا»، قالت لهيديك كأن كراهيتها لا تسمح لها بالحديث إلي. قادتنا عبر الغابة إلى تلال قريبة ملوحة بذراعيها القويتين. انبطحنا هناك ومكثنا بحذر كي لا يتمكن البيض من رؤيتنا وجعلنا الكلاب تقعي أيضا كي لا نُكشف. سمعنا صوت اضطراب أوراق الشجر ورأينا رجلا أبيض يخرج من بين الأشجار وينفض عن رأسه وعن جلده الدامي ما علق به من أوراق وحشائش ثم أخذ يصرخ كأن شيئا ما لدغه. تحركت أشجار أخرى، وخرج رجل ثم آخر، ثم تحولت الغابة إلى أشجار تضطرب وتهتز وتلفظ رجالا بيضا، ينتفضون وكل يحمل بندقية. تبادلنا النظرات وقد عرفنا ما الذي يحدث. لم يكن أولئك السفلة يصطادون الطرائد، بل يسعون لاصطيادنا نحن. وهكذا هربنا بكل ما أوتينا من سرعة.

لحسن الحظ كان البيض بطيئين كالزواحف، بينما نحن سريعون. ركضنا إلى البعيد كالريح، وما إن حل الظلام حتى وجدنا أنفسنا في منطقة نائية بدت نيرانهم منها كومضات في أفق بعيد. لكن نيرانهم كانت رغم بعدها كثيرة، فعرفنا أنهم لم يكونوا فقط تلك المجموعة التي اكتشفناها، بل جموع وفرق عديدة، كلها تطاردنا. أي لغز هذا! يبدو أنه زحف شامل لجموع القتلة البيض، ليس في منطقة واحدة، بل على امتداد الأرض كلها. كل هذا لم يثبط من عزيمة أمي، بل إنها عندما جلسنا حول النار الصغيرة الباردة في الحفرة قالت إن علينا القضاء عليهم.

تابعنا مسيرنا في اليوم التالي نركض والكلاب تجري معنا كأننا نتسابق إلى أن نال منا التعب والجوع. لم نتوقف وتابعنا حتى بدأنا نشعر أننا ابتعدنا عن أولئك المجرمين، وتسلل إلى قلبي إحساس بالأمان كان ينمو كلما ابتعدنا مسافة أكبر. ثم رأيناهم مرة أخرى. عندما وصلنا إلى أعلى التلة رأيناهم يسيرون في رتل ببطء مثل النمل.

«ربما هم ذاتهم الذين صادفناهم في الغابة»، قال هيديك آملا. «لا بد أنهم تبعونا».

لكن نظرة أمي كانت أكثر نفاذا: «لا، أولئك كانت بشرتهم حمراء كالدم، وهؤلاء بشرتهم سمراء».

أفزعني ذلك، فحتى تلك اللحظة لم أتخيل كم عدد البيض في هذا العالم، إذ لم نر من قبل أعدادا كبيرة منهم في مكان واحد. أما الآن فلا يبدو أن هناك نهاية لجحافل أولئك القتلة. حتى أمي نفسها بدت قلقة لحظتها. إلا أنه لم يكن لدينا وقت للقنوط والخوف، فانطلقنا من جديد نعدو بكل ما أوتينا من قوة في تلك الأرض الصخرية القاحلة التي جعلتني أفزع من فكرة أن يرونا. بدأ المطر يتساقط بعد فترة ثم انهمر علينا بغزارة حتى خارت قواي جوعا وبردا وشعرت بقدمي داميتين وبدوار في رأسي. توقفنا في النهاية، وارتمينا على الأرض كلنا نلهث ولا نقوى على التقدم خطوة واحدة. كلفت أمي اثنين المراقبة ثم جلسنا لنتحدث.

«ربما علينا أن نحاول مرة أخرى بالالتفاف حولهم»، قال هيديك الذي اعتاد أن يكون حذرا. «قد لا يكونون بتلك الكثرة التي توهمناها».

«ألم تر نيرانهم؟» سألت أمي وهي تكتّف ذراعيها وتنظر إلى هيديك كأنه مجرد غر أبله. «سينال منا الجوع والتعب وسينقضّون علينا. لهذا من الأفضل لنا أن نقاتلهم الآن».

لم يكن أحد منا يريد قتال البيض، فقد رأينا بأنفسنا كم هم كثر. لكنها مع ذلك كانت على صواب. أضف إلى ذلك أن أمي تتحول إلى كائن مرعب حقا عندما تغضب، حتى إن القتل أسهل علينا من إغضابها. تركتنا نرتاح لبرهة قصيرة ثم تناولت رمحها ونهضت. مشت باتجاه البيض مرة أخرى، بخطوات متمهلة في البداية ثم أخذت تسرع، وعندما بدأت تركض تبعناها كلنا.

بن هايز – مزارع في أرض فان ديمن، 1830

تنقلنا لمدة يومين بين الحقول، وكانت رحلة رائعة. نمت مرة في إسطبل نظيف ودافئ، وكانت النساء عندما يريننا نقترب يسارعن إلى تقديم الحليب والخبز الطازج لنا. كم كان لذيذا، أشهى حتى من الإوز المشوي في عيد الميلاد. إلا أن ذلك لم يدم، ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا وسط أدغال كثيفة ووعرة مزقت أغصانها ثيابنا وحولتها إلى أسمال ونحن نحاول شق طريقنا بينها، ثم أدمتنا الأشواك فيها، وانتشرت الجروح في أجسادنا حتى لتخال أن كل واحد منا كان يغفو على فراش من الحراب. تمزق حذائي وكان علي أن أربطه بمزق من ثيابي كي لا ينزلق من قدمي. والحقيبة التي أحملها على ظهري بدأت تثقل علي أيضا. كم تبدو الأحمال التي كنا نظنها خفيفة ثقيلة كالصخور عندما نحملها لمسافات طويلة، حتى إني تمنيت لو تخلصت من القيدين ولو أني لم أحضر المسدسين معي.

قضينا إحدى الليالي في الغابة، وفي صباح اليوم التالي وصلنا إلى منطقة مرتفعة ومفتوحة. كانت أفضل من الغابات لولا الريح الباردة. وفي ظهيرة ذلك اليوم رأيتهم. كنت قد توقفت للحظات لأعدل من وضعية الحقيبة على ظهري وقد أنهكتني؛

وعندما رفعت رأسي وأنا أهمّ بمتابعة السير رأيتهم هناك، دزينة من القذرين الهمج يشقون طريقهم صعودا إلى التلة المقابلة. تجمدت في مكاني لبرهة ثم نظرت إلى سام فوجدت أن الصدمة قد أصابته أيضا. تبادلنا عندئذ النظرات وضحكنا، ليس لطرافة المشهد بالطبع. نبهنا الآخرين وتابعنا مسيرنا، لكن المطر انهمر من جديد ولم تكن ثيابي قد جفت بعد من الهطول السابق. توقف الرتل قبيل الغروب وتم الاتفاق على أن نتوزع في مجموعات من ستة أشخاص. اعتدنا على التخييم كل اثنين في مجموعة، لكن بعد أن رأينا السود كان لا بد من الحذر. وكنا محظوظين في وجود بِيت تانر ضمن مجموعتنا، إذ إنه يستطيع أن يوقد نارا حتى ولو كان في بركة ماء. وهكذا أوقد لنا نارا متوهجة، رغم المطر المنهمر فوقنا. ما من شيء يدفئ العظام مثل النار. طهونا بعض الطحين، ثم أخرج أحدهم طريدة كان قد اصطادها في النهار. سلخناها بسكين ووضعناها على النار ففاحت بعد دقائق رائحة الشواء.

في استرجاعي لتلك الليلة، أدرك أن المطر كان السبب في كل شيء، إذ إنه ومع حلول المساء جعل الرؤية متعذرة بالفعل. هذا عدا الصقيع الذي جعل مجرد التفكير بالابتعاد عن النار لتفقد المكان جنونا حقيقيا. كنا قد كلفنا من يقوم بالحراسة، لكن لا بد أن أولئك السود لديهم حيلة تجعل من رؤيتهم في الظلام أمرا صعبا، إذ إن الحارس لم يرهم إلا بعد فوات الأوان. فوجئنا بهم ينقضون من أسفل الوادي كعاصفة تحت جنح الظلام تتقدمهم امرأة عارية تقريبا وفي يدها بندقية صيد. لا بد أنها المتوحشة التي سمعت عنها. صدمنا لمنظرها، فلم نكن نتوقع أن لديهم بنادق.

كيف لم يحذرنا أحد من هذا! وراء تلك المخلوقة كان يقف فتى غريب المظهر، أسود أيضا، لكن بشعر أشقر كالقش.

تناولنا بنادقنا بسرعة رغم صعوبة رؤيتهم وهم يركضون ويقفزون في حلكة الليل. كنت جاهزا لإطلاق النار، وكنت في الحقيقة سأفعل ذلك لو صدر عن أي منهم ولو صرخة واحدة. لكن لم يصرخ أحد، فتعذر علينا التسديد ونحن لا نستطيع رؤية أولئك السود في الظلام، وكان من الممكن أن ينقضوا علينا في أية لحظة بمن فيهم تلك المتوحشة مع بندقيتها. خيم الصمت للحظات ولم نكن نسمع سوى المطر وصوت هسيس الشواء على النار، وفي لمح البصر اختفوا. تكلم أحدنا أخيرا: «أظن أن علينا أن نطاردهم»، قال سام وكأنه يطرح سؤالا. لم يجبه أحد، ولم يتحرك أحد. وقفنا جميعا نراقب بصمت. بعد لحظات وصلوا إلى الأشجار واختفوا.

«إن تبعناهم فسنسبب ثغرة في الرتل»، قال بيت تانر.

حرك سام فكيه كأنه يلوك شيئا كعادته وقال: «ثم إني لست متأكدا أن بنادقنا ستطلق مع كل هذا البلل».

عدنا بعدها إلى النار وجلسنا لنأكل. كان الشواء شهيا، وحضرنا إبريقا من الشاي بعد وجبتنا. نظمنا حراسة دقيقة تلك الليلة، وتناوب عليها الرجال كما في أي جيش. لكننا لم نرَ أحدا. لم نكن في الحقيقة قد اتفقنا على أن نصمت حول ما جرى، لكن هذا ما حدث، إذ لم يقل أحد شيئا البتة. لا أحد يدري لماذا!

جورج أولدر، حاكم أرض فان ديمن، 1830

ما إن فرغوا من تناول إفطارهم حتى استأنفت حملتنا العظيمة مسيرها مرة أخرى مع جلبة الرجال وقرقعة الهراوات والبنادق وجعب الماء في متاعهم. ومع بلوغ الحملة نهايتها بعد أن تجمّع ألفا رجل من كل أنحاء المستعمرة في أرض واحدة بدا للجميع أننا لم نكن أقل من جيش حقيقي. وأي جيش مقدام رغم زيه وأحذيته الرثة. يا لنبل مسيرتهم المهيبة وقد اجتازوا كل تلك الأرض القاسية دون ضحية واحدة عدا بضعة رجال قتلوا إما في حوادث عارضة مؤسفة أو بنيران صديقة طائشة. هاهم يحققون هدفهم الجليل، ولم يعد من شيء يقلقني سوى أن يتعاملوا مع السكان الأصليين الآن برفق كما أوصيتهم. قال لي مدير الشرطة إنه يخشى أن لا تكفي القيود التي لدينا، فالتقارير التي لدي تفيد بأن عدد من اعتقلوا يفوق مجموع أربع قبائل كاملة.

«يمكننا استخدام حبال الخيم إن احتجنا»، قلت له عندما استرعى انتباهي صراخ من جهة الخلف. التفت فرأيت رجلا ذا مظهر لا يمكن أن يكون أكثر غرابة في مكان كهذا. أعزل من أي سلاح، وعوض أن يرتدي ثيابا خشنة ومتينة تلائم الحملة تهندم في بدلة رسمية ومعطف وقبعة، ملابس أكثر ملاءمة لزيارة الكنيسة

في يوم أحد. تبين عندما اقترب مني أنه جون بيرس، رجل ذو صيت سيئ بإثارة المتاعب. وبيرس هذا عمل سابقا في شركة أرض العالم الجديد مهندسا زراعيا، لكنه سرّح من عمله بعد أن افترى على زملائه بأنهم ارتكبوا أعمال عنف وتنكيل بحق السود. لحسن الحظ حذرني مديره السابق السيد تشارلز، وهو رجل نبيل، وأخبرني أن لديه تصرفات غريبة وأنه اعتزل الجميع ليعيش في الأدغال كالمشردين. كان قد أتى إلى دار الحكومة عدة مرات ليردد افتراءاته واتهاماته، بل إنه حاول اعتراضي في الطريق مرة، ولهذا عزمت على اعتقاله.

«أيها الحاكم أولدر، أطالبك الآن بوقف هذه الحملة»، قال مقتربا مني على صهوة جواده عندما رآني. «ما تفعلونه ليس أقل من جريمة موصوفة عن سبق إصرار وترصد».

كان شخصا غريب الأطوار، ترف أجفانه باستمرار وملامحه جريحة توحي بأنه على وشك البكاء في كل لحظة. شعرت بأن علي أن أجيبه رغم ما فيه من خبل.

«أنت على خطأ يا سيد بيرس. ما من جريمة فيما نقوم به»، بدأت الحديث وأنا أنوي إخباره عن الثلاثمئة زوج من القيود التي حضّرناها خصيصا لحملتنا، وعن تعليماتي الصارمة التي وجهتها للرجال. لكن دون جدوى، فمتى كان الكلام ينفع مع رجل معتوه!

«قيودك هذه ادعاء، ونيتك الحقيقية واضحة مهما حاولت تمويهها بمقتضيات العدالة. لن أتراجع، وسأكون شاهدا على هذه المذبحة كي لا ينساها أحد».

احتدم غيظي بسرعة من هذا الرجل. «اسمع يا سيد بيرس، أنا لم أقل إن عليك أن ترحل من هنا. لكن إن بقيت في حماقاتك

وفي التشويش على هذه العملية العسكرية المهمة فلن أتردد في الأمر بإبعادك».

فاجأني بردة فعل غريبة لم أتوقعها منه البتة. صمت ساكنا في مكانه وراح يحدق نحو الأمام في شيء ما مذهولا. يبدو أننا اجتزنا قمة التلة وأنا منشغل بالحديث مع الرجل. تبعت نظرته فأخذني المشهد. لوحة تضج بالألوان والأصوات. نوارس تحلق عاليا وأمواج تتكسر على مدى النظر والبحر يمتد في الجهتين اليمنى واليسرى مفسحا للسان من اليابسة أن يمتد فيه. إنها أقاصي الجزيرة التي وصلناها بزحفنا العظيم.

«هذه معجزة»، تمتم بيرس مشدوها.

ما لفت نظري في ذلك البحر أنه يخلو من أي أثر للسكان الأصليين.

بيفاي، 1830 - 1831

انقضى زمن وحل صيف آخر دون أن يتغير شيء. بقينا على حالنا في القتال والهروب إلى أن أتى يوم وجدنا فيه شجرة صمغ من ذلك النوع النادر الذي يفرز بغزارة. جرحنا لحاءها فانسكب منها الصمغ وتجمع في قطرات كبيرة امتزجت مع الماء لتشكل شرابا حلوا أصابنا بدوار وخدر ومنحنا مزاجا مرحا لا يخلو من الحماقة. كانت كميته كافية للجميع وسرعان ما انخرطنا كلنا في الضحك. إلا أمي، وحدها بقيت على قلقها وتوجسها. منذ ذلك اليوم الذي رأينا فيه أولئك البيض الأوغاد تغيرت ولم تعد إلى طبيعتها أبدا. لم ينالوا منا، ولم يقدروا على قتل أي أحد منا حتى الآن، ومع ذلك لم يفارق الكدر والضيق أمي، بل تحول وجهها مع مرور الأيام إلى ما يشبه الصخر بصلابته وقسوته. أظن لأنها أدركت أنه لم يعد بإمكاننا النجاة بعد الآن وأن قدرنا المحتوم لا فرار منه. ربما تمنت لو أننا قُتلنا في ذلك اليوم وانتهينا من دوامة الصراع إلى الأبد.

كنا لا نزال نجلس حول شجرة الصمغ عندما صاح كورديف المكلف حراستنا «انظروا هناك. إنها أختي». كورديف من قبيلة تومجينر، ولم أكن أعلم أن له أختا. لكن ها هي، أخته تتقدم نحونا مع امرأتين لم أرهما من قبل. كانت إشارة تدعو

للتفاؤل أن نعثر على أحد من أبناء جلدتنا على قيد الحياة. وما كان من كورديف الذي كان عادة هادئا ومتحفظا إلا أن لوح بيده وركض نحو القادمات وهو يهلل بفرح. لكن ما إن اقترب منهن حتى انقلب فجأة وتحولت بهجته إلى شراسة مقاتل. شهر رمحه واتخذ وضعية الرماية وهو يصرخ: «انتبهي... هناك وراءك». وهناك، نظرنا ورأينا رجلا أبيض وراء أخته يطاردها. لم نفهم ما الذي يجري، إذ إن الأبيض كان أعزل من أي سلاح أو سكين، ولم يكن سوى شخص بدين يركض ويبتسم. صيد سهل اعتقدنا أن كورديف سيرديه برمحه في الحال، لكن الذي حدث أن أخته لم تركض هربا بل اقتربت من الأبيض كأنها تريد حمايته. «توقف، إنه صديق».

صدمتنا غرابة الموقف، إذ ما لبث ذلك الرجل الأبيض أن بدأ بالصياح علينا، ليس بلغته، لكن بلغة التومجينر. صحيح أنه لم يتكلم بشكل سليم، بل بركاكة مثل طفل صغير، لكن هذا لا ينفي أنه أول من رأينا من البيض يتكلم لغتنا. «لا تخافوا»، قال لنا. «أريد فقط أن أساعدكم. اسمي روبسون».

«عليكم الإنصات له جيدا»، قالت أخت كورديف. «إنه يستطيع إنقاذنا».

بدأ روبسون هذا يضحك كأنه يتكلم مع جمع من الأطفال أو الحمقى. «نعم، أستطيع مساعدتكم». لا بد أن منظرنا كان مضحكا وقد أخرستنا المفاجأة لرؤيتنا رجلا أبيض يتكلم بلغتنا. «أعرف مكانا تستطيعون أن تكونوا بأمان فيه، مكانا مليئا بالكناغر وبكل ما تحتاجون إليه، إنه بعيد ولا يمكن أن تجدوا فيه رجلا أبيض واحدا يهددكم. بوسعي اصطحابكم إلى هناك». مد يده إلى جلده

الميت وأخرج منه مجموعة ملونة من أشياء مستديرة تشبه الأحجار الصغيرة المسطحة. «هذه لكم. تسمى أزرار».

كان كلامه مثيرا للاهتمام. أجل، فقد تعبنا بالفعل من هذه الحياة التي لا نتوقف فيها عن الركض والهرب والقتال. زد على ذلك أننا لم نعد كثرة الآن وأصبح من السهل قتلنا جميعا. كان كورديف وقتها يقترب من الرجل ليأخذ أحد تلك الأزرار، وكنت أهمّ بأن أفعل مثله، إذ إنها أشياء صغيرة مبهجة حقا. لكن فجأة صوبت أمي إلينا نظرتها القاسية تلك.

«لا تقتربوا»، صاحت بنا. «لا يمكن لرجل أبيض أن يحضر شيئا غير الموت». ثم استدارت نحو روبسون: «اذهب من هنا ودعنا لشأننا وإلا قتلتك».

وكأنه لم يسمعها، تابع الرجل الأبيض روبسون ابتسامه. بدا أنه لا يصدقها. ربما لأنه لا يعرف أمي. «لدينا الكثير من اللحم إن كنتم تشعرون بالجوع»، قال وهو يبتسم ابتسامته ذاتها. «ونار دافئة أيضا».

«ومعنا الكثير ممن تعرفون»، قالت أخت كورديف.

فجأة رفعت أمي بندقيتها وأطلقت النار. لا أعرف لماذا أخطأته، هل تعمدت ذلك أم أنها كانت مرتبكة! على الأرجح كان ارتباكها. ومع أنه لم يصب، إلا أن الرعب كاد يقضي على الرجل الذي انهار على الأرض، وأخذ يزحف كعنكبوت هاربا وهو يرفع يديه كأنه يتقي بهما ضربات أحد يلاحقه.

ذهبت أخت كورديف ورفيقتاها وهربوا جميعا صوب الأشجار. تبعهم كورديف وهو ينادي على أخته. أظن أنه كان حزينا جدا لفقدانها بهذه السرعة وهو لم يكد يصدق عودتها بعد غياب.

«علينا أن نرحل عن هذا المكان»، قالت أمي. وهكذا رحلنا من جديد، ولم أستطع طوال الطريق أن أمنع نفسي من التفكير، ماذا لو كان باستطاعة ذلك الرجل الأبيض أن ينقذنا بالفعل؟ وأظن أن الآخرين فكروا مثلي، لكن كالعادة لم يجرؤ أحد على أن يوجه لها كلمة واحدة. كانت تزداد غضبا وتستحثنا طوال الوقت على الإسراع، كأنها تخاف ذلك الرجل الأعزل بابتسامته ولسانه الذي نطق بكلمات التومجينر أكثر مما تخاف أولئك المسلحين الذين يطاردوننا ببنادقهم وسكاكينهم. ظللنا نركض حتى وصلنا إلى مكان مرتفع، فتوقفنا لنلتقط أنفاسنا، وعندما نظرنا وراءنا رأينا أنوار مشاعل تومض في البعيد، فعلمنا أن ذلك الرجل لم يمنعه الخوف من متابعة البحث عنا من جديد، بل وكان هناك أنوار مشاعل كثيرة، مما يعني أن عددا كبيرا من أبناء جلدتنا يرافقونه كما قالت أخت كورديف. ها نحن نهرب من جديد، ليس فقط من قتلة البيض، بل ومن قومنا أيضا! كم كان ذلك شاقا علينا، كلما نظرنا وراءنا اكتشفنا أنهم يقتربون منا أكثر وهم يقتفون أثرنا، أمر لم يكن بوسع البيض فعله. لم أكن أشك بأننا نستطيع الإفلات منهم لولا مرض السعال ذاك. لم أكن قد رأيته بنفسي بعد، إلا أني سمعت الكثير من الأمور الشنيعة عنه وأنه كان أشد فتكا من البيض ذاتهم. كان أول من أصيب به لوريك، ابن عم كورديف، ولم تمض بضع ساعات حتى أقعدته الحمى والسعال ثم راح يبصق سائلا أبيض لزجا كفضلات الطيور، وأخذ جسده يرتعد حتى عجز عن الحركة تماما. وفي الليلة ذاتها أصيب اثنان آخران، أحدهما أمي.

لم تكن أمي ممن يستسلم أو يذعن. وإن كانت القدرة على الاحتمال موهبتي الخاصة، فإن موهبة أمي الإصرار. الإصرار على

متابعة الطريق رغم كل شيء. الجميع يعلم أنه علينا التوقف وإلا قُضي علينا، لكن ليس أمي. في صباح اليوم التالي كانت عيناها شاحبتين وجسدها يرتعش وَهنا، لكنها رفضت مع ذلك أن تلين. «علينا الذهاب إلى النهر»، قالت بعناد.

لم يطل بي الوقت حتى اكتشفت مقصدها. عندما وصلنا إلى النهر طلبت أن نخفي مشاعلنا كلها إلا واحدا في الدغل وأن نمسح آثار أقدامنا بأوراق الشجر. غطسنا بعد ذلك في مياه النهر الباردة وأخذنا نمشي صارخين على الكلاب كي تبقى في الماء مثلنا. مشينا طيلة ذلك اليوم، لكن الخدر أصاب أرجلنا بسبب برودة الماء وجرحت الحصى الحادة أقدامنا، ونال الوهن والإعياء من أم لوريك المسكينة. وصلنا أخيرا إلى مكان فيه منطقة صخرية ملساء فقالت أمي إننا نستطيع التوقف هنا لأن الصخور لا تحتفظ بأثر لنا. توجهنا إلى غابة وراء تلك الفسحة ومسحنا أثرنا كي لا يقتفيه أحد.

المكان هناك أكثر أمنا، لكن الوهن والمرض كان ينال منا بالتدريج. قالت أمي إننا لا نستطيع إشعال النار، ولا حتى في حفرة لأن أعداءنا سيشمون رائحتها عن بعد. ساءت حال لوريك كثيرا في الصباح وعلا أنينه وجحظت عيناه كأنه لا يستطيع رؤية أحد. مات المسكين سريعا، وقد أثار ذلك عراكا بيننا. فقد طلب أخوه أن نحرقه، وهذا واجب بالفعل، لكن أمي رفضت. قالت: «سنضعه في الغابة الآن وسنقوم بحرقه لاحقا عندما يبتعدون عن هنا». غضب أخوه وقال إنه لو تُرك في الغابة فستأكله الضواري، لكن لم يؤيده أحد. وهكذا، تُرك لوريك في الغابة كما أرادت أمي.

انقشعت الغيوم وأدفأتنا أشعة الشمس قليلا، فنهض كل من لم يصب بالسعال بعد للبحث عن بعض الجذور التي يمكن أن تسد

جوعنا. ذهبت مع هيديك وتمكنا من العثور على ما نقتات به، قليل لكن أكثر مما تناولناه منذ بدأت رحلة الهروب الجديدة. أكلنا بنهم وأعطينا ما تبقى لمن أقعده المرض. ما أروع أن تأكل بعد كل ذلك الجوع! استلقى الجميع ينشدون قسطا من الراحة، ما عداي أنا، فقد بقيت أفكر بوعود ذلك الرجل الأبيض، النار المتوهجة واللحم الشهي. أي نعيم لو تحقق ذلك! ثم فكرت بالمكان الذي تحدث عنه، حيث الكناغر التي نستطيع اصطيادها بأمان. تأملت النيام حولي للحظات ثم نهضت ومضيت بعيدا عنهم. وجدت شجرة عالية تسلقتها إلى أن بلغت الأغصان النحيلة، تلك التي تنحني تحت أي ثقل مهما كان خفيفا. ومن هناك كان باستطاعتي أن أرى لمسافات بعيدة. نظرت فرأيت في جهة الغرب جبالا وعرة كالصخور، وباتجاه الشرق النهر الذي مشينا في مياهه الباردة. في الجنوب استطعت تمييز دخان يتصاعد عاليا مثل حبل. لم يكونوا قريبين منا كما كانوا، وانتبهت وأنا أتمسك بالأغصان حتى كادت كفاي تدميان أنهم يتحركون مبتعدين عنا. أجل، أستطيع القول إن خطة أمي نجحت، وإن مسيرنا في النهر جعلهم يفقدون أثرنا. نزلت عن الشجرة وتوجهت إلى أمي التي كانت محمومة وتسعل في نومها. تناولت بعض الجذور التي وجدت أنها كبيرة وتصلح للأكل ووضعتها إلى جانب يدها، فقط لأنني أحببت أن أساعدها. ذهبت بعد ذلك إلى حيث المشعل الصغير، وهو كل ما سمحت لنا أمي به من نار. كان الأمر في غاية السهولة، المشعل هناك مغروس في الأرض، لكن بغباء، تماما تحت شجرة الصمغ. وقفت هناك أفكر، لا أحد ينظر إلي. لم يكلفني الأمر سوى أن أمد يدي وأحرك غصن الشجرة نحو المشعل حتى اشتعلت النار فيه. لم يتطلب الأمر مني أكثر من ذلك.

الفصل السابع
تيموثي رينشو، أغسطس - سبتمبر 1857

كان للحادثة التي كدنا أن نقتل فيها على يد القراصنة أثر كبير على جميع من على متن السفينة بما فيهم أنا. حتى الدكتور بوتر وويلسون أصبحا يتعاملان بسلوك ودي متحضر. لكن ذلك لم يستمر طويلا، فما إن عبرنا خط الاستواء حتى عاد فيكار إلى صلواته الجهورية، وقبل طلوع الضوء هذه المرة. فجر إلهي، هذا ما كان يقوله. شوشت صلواته علي وأقلقت نومي، إذ لم يكن بيننا سوى حاجز خشبي رقيق يفصل بين قمرتينا، ولم يرق ذلك لبوتر أيضا. ثم واجهنا بعد ذلك مشكلة فنجان الشاي الذي وُجد على الكتاب المقدس الخاص بالكاهن مما استدعى سلسلة طويلة من التعليمات والتوجيهات اللاهوتية. لم يخفف كل ذلك من نهم ويلسون للوعظ فألقى علينا في صباح الأحد التالي موعظة طويلة تحدث فيها عن حاجتنا للتأمل عميقا في أغوار أنفسنا والبحث عما يضيئها في حب الآخرين موجها بين لحظة وأخرى ابتسامات خبيثة نحو بوتر الذي انقبض وجهه غضبا عندما أسهب الكاهن في الحديث عن الواجب الذي فرضه الله على الإنسان بإطاعة واحترام أولي الأمر وأصحاب الشأن.

غيرت هذه الموعظة من طبيعة الصراع بين الرجلين فيما بعد. فما إن انتهت حتى نهض بوتر وتوجه غاضبا نحو القبطان. تبعه ويلسون، ودفعني فضولي للحاق بهما. كانت الضغينة التي تدفعهما أكثر ما يمكن أن يحرك الركود المضجر على متن الإخلاص. وبما أنني كنت أرى أن كلا منهما أكثر إزعاجا من الآخر، راق لي أن أتفرج كيف ينكلان ببعضهما.

«خطر لي»، بدأ بوتر. «أنه من المفيد أن أقوم بإلقاء محاضرات علمية على طاقم السفينة"».

قاطعه ويلسون حتى قبل أن يتسنى لكيولي أن يجيب: «أي عرض كريم يا دكتور، غير أني لا أرى فيه عملا يناسب عطلة السبت حين يتوجب علينا الركون إلى التأمل والتفكير».

أظن أنه اعتمد على رفض كيولي لفكرة أن تعطل المحاضرات البحارة عن العمل، وكان يأمل أن يلقى اقتراح بوتر الرفض. كان محقا، لكنه أخطأ عندما ألح بهذا الشكل. بدت علائم الحيرة على وجه القبطان كيولي.

«لا أرى سببا يمنع من إفساح المجال لمحاضراته مثلك يا فيكار! ففي نهاية المطاف العلم جزء من نعم الرب أيضا. أليس كذلك؟!» حاول ويلسون أن يجرب مكره، لكنني سررت عندما لم يسمح له القبطان بأن يتمادى في ابتزازه. وهكذا أصبحت السفينة كمكتبة تعج بالهراء والخربشات، كل منهما يعد كلامه كسياف يشحذ سيفه ويحاول وضع أقصى ما يستطيع من ملامح الجدية على وجهه ليثبت تفوقه على نظيره.

في ذلك الأسبوع بدأنا نشعر بتغير الطقس. كانت الريح تهب نشطة وتقودنا معها جنوبا وقد فقدت الشمس حرارتها المعتادة

وشحب لونها، كأنما تريد أن تذكرنا بوجهتنا، إلى تلك البقعة من العالم حيث الطقس الآن شتاء بارد. وفي يوم الخميس انحرفت الريح عن الجنوب فتكبد البحارة مشقة كبيرة في تعديل وضعيات الأشرعة إلى أن هدأت تماما في يوم السبت لنجد أنفسنا في حالة ثبات. بعد ذلك انتشر ضباب كثيف. ومع صباح الأحد قيد سكون عجيب سفينتنا وسط الضباب والضوء الخافت الذي لا يتيح رؤية سوى أمتار قليلة من ماء البحر وبالكاد يكشف عن ظلال الأشرعة المحجوبة بسديم أبيض.

سمعنا بعد ظهيرة أحد الأيام صوت ارتطام شيء ما في الماء من جهة مقدمة السفينة. أتانا الصوت مدويا ومفاجئا في السكينة المحيطة بنا فهرعنا لنرى ما الأمر، حتى إن القبطان كيولي صاح: من هناك؟ لم نستطع تمييز ماهية الصوت حتى وصلنا إلى الحافة وأنصتنا للحظات. سمعنا صوتا مكتوما ذا إيقاع منتظم. «إنها مخلوقات بحرية»، قال كيولي. تبين لنا بعد برهة أن تلك المخلوقات كثيرة، ومع إنصاتنا علت أصوات تنفسها وتكاثرت حولنا كأن السفينة محاطة ببحر من تلك الكائنات. لم يقترب أي منها لنتبين شكلها أو من أي صنف هي، لكني توقعت أن تكون من فصيلة الحيتان أو الدلافين. قد تبدو ردة فعلي صبيانية بعض الشيء، لكن شيئا ما في حضور تلك المخلوقات الغامض أربكني، وحتى بحارة أيل أوف مان الذين يفترض بهم أن يكونوا معتادين على أمور كهذه تغير شيء ما في عيونهم وراحوا يسترقون النظرات إلى بعضهم وهم يتحدثون بصوت خافت كأن تلك الحيوانات الضخمة تسمعهم.

أما محاضرا يوم الأحد فلم يكترثا كثيرا، فما يعدانه من دروس ومواعظ أكثر أهمية بالنسبة إليهما مما حدث. كان دور

بوتر الأول. تجاوز بروتوكولات ويلسون المعتادة وتوجه مباشرة إلى المنبر حيث وقف ونظر إلينا نظرة غاية في الصرامة والجدية. حديثي اليوم يتناول موضوع مغناطيسية الحيوانات، أو بمصطلح آخر حيوانية التنويم المغناطيسي. أظن أنه كان يهدف إلى منافسة مواعظ ويلسون الشعائرية، وقد أصاب في اختيار موضوعه. فالتنويم المغناطيسي ظاهرة كانت تلقى اهتماما كبيرا وشعبية ملحوظة بين جميع الأوساط، وكثيرا ما امتلأت القاعات والنوادي ببشر يتفرجون على أحمق ما، صدق أنه قرد أو أبتر الساق. ولا أنكر أني تحمست للموضوع، إذ لم أتوقع أن يكون الدكتور من ممارسي هذا الفن. لكن ما فاجأني أن البحارة لم يرق لهم ذلك. اعتقدت في البداية أنهم لا يزالون تحت وقع الارتباك من حضور المخلوقات البحرية تلك، ولكن لا، حين دققت النظر فيهم وجدت أنهم ينظرون إلى الدكتور بكثير من الاستياء. لم أستطع تفسير ذلك إلا أنهم ربما كانوا خائفين من مقلب ما يُعد لهم. أما ويلسون الذي جلس بعيدا على كومة من الحبال مبررا غيابه أن عليه أن يركز في طقوس صلاته، وكان يراقب استياء طاقم البحارة مما يجري بكثير من الغيظ. لم يبالِ بوتر بكل ذلك وتابع محاضرته. تحدث أولا عما أسماه جغرافيا العقل. لم يكن الموضوع مألوفا بالنسبة إلي، لذلك وجدته مثيرا للاهتمام. قال إن الدماغ ينقسم إلى مناطق تشبه في توزيعها حزوز ثمرة البرتقال، كل قسم يختص بدافع معين، وكلها تتوزع حسب السمات الأخلاقية. وتتنوع السمات التي يحددها هذا التقسيم بتنوع البشر واختلاف طباعهم، من الحكمة إلى الشغف بالحلويات، ومن سرعة الغضب إلى فوبيا الأماكن المرتفعة. وهكذا تتنوع خصائل البشر، من ترتفع لديه

دوافع الشجاعة والإخلاص يصبح جنديا، ومن ترتفع لديه دوافع الكذب والغش يكون مستعدا للتحول إلى لص. يتحول هذا التنوع في السمات والخصال بين البشر إلى فوارق نوعية بين الأعراق لأن بنية الدماغ في هذه الحالة تتغير كليا، كما أخبرنا الدكتور. فمثلا يتميز الصينيون بشغف بالألوان الزاهية، بينما يغيب لدى الهمج الأفارقة كل إحساس بالحضارة.

أوضح بوتر أنه لا بد من التنويم المغناطيسي لاكتشاف وتحرير طاقات العقل تلك. فكل خصائص وطاقات الدماغ لا تنفصل عن الجمجمة، لذا يمكن لأي اختصاصي أن يتلمس ذلك بأصابعه إذا ما وصل الإنسان إلى حالة مناسبة من الغشيان، وكأنه عازف يعزف على مفاتيح الأورغن. فإذا ما ضغط على نقطة في الجمجمة تلامس منطقة نوازع الخداع سيتكشف كل ما في دخيلة ذلك الإنسان من كذب ورياء. وبالمثل إذا ما لمس المنطقة المسؤولة عن نوازع الاعتراف يتدفق بكل ما فيه من أسرار بكل صدق وشفافية. يعني أن عشر دقائق من التنويم المغناطيسي يمكن لها أن تكتشف ما لا يمكن اكتشافه في شهور من الدراسة والتمحيص. في هذه الأثناء لاحظت أن البحارة يتململون بتوتر واضح وينقرون على الأرضية بأقدامهم.

«التنويم المغناطيسي لا يبالي بالطبقات أو الألقاب وغيرها من القشور الاجتماعية. جرب أن تنوِّم أحد المحتاجين وقد تجده أكثر حكمة ورشدا من لورد». وجه نظرة إلى فيكار وتابع: «وكذلك قد تجد جزارا بسيطا أكثر فضيلة واستقامة من قس».

ها قد بدأ هجومه... تلاشت ابتسامة ويلسون المتكلفة ووضع رأسه في أوراقه متجاهلا كل شيء حوله.

منتشٍ بضربته الأولى تلك ابتعد بوتر عن المنبر وقال وهو ينظر إلى سديم الضباب الممتد: «آمل أن ذلك قدم لكم فكرة واضحة عن هذا الموضوع المهم. أما الآن فلا بد لي لإتمام الفائدة أن أقوم بتجربة عملية أطبق فيها ما شرحت. لكن يلزمني متطوع لذلك».

توقعت ما سيجلبه طلب كهذا من حرج، ولم أكن مخطئا. ابتسم بوتر وهو ينتظر من يرد على طلبه، لكنه لم يجد سوى جدار كبير من الصمت جعل أصوات الأمواج وطقطقة أخشاب السفينة تدوي في الفضاء. لاحت الخيبة على وجه الدكتور. «لا بد أن هناك أحدا ما؟» وقبل أن يتفاقم حرجه رفع مساعد رئيس البحارة يده فانفرجت أسارير بوتر. «شكرا سيد برو».

«آه... لكن أنا لا أتطوع. أريد فقط أن أسأل ما الذي سيحدث لذلك المحظوظ الذي سيوافق؟ هل ستجعله يخلع ثيابه ويعتقد أنه أرنب؟» سرت موجة من الهمهمة بين البحارة فظهر على بوتر الحرج الشديد. آخر ما يريده أن تتحول محاضراته إلى نكتة. لذلك بادر إلى استعادة جدية الموقف قدر استطاعته.

«ليس في ذهني أي رغبة في ممارسة ألعاب مسرحية. التنويم المغناطيسي علم، وهو بالإضافة إلى ذلك يساعد على الاسترخاء واستعادة الصفاء الذهني». وعلى الرغم من تشكك البعض في هذه الوسيلة العلمية، إلا أني أؤكد لكم أنه لا يوجد ما يمنع أن يخضع له أي إنسان، رجلا كان أم امرأة، ويحقق النتائج المطلوبة دون أي مشكلات». لم يضحك أحد من البحارة من كلامه، لكن أحدا لم يقدم على التطوع أيضا، وتبين فداحة الخطأ الذي ارتكبه الدكتور بمحاولة إقناعنا. «إنها عملية بسيطة وطبيعية كالنوم تماما، وهناك أمثلة لا تحصى عن حيوانات خضعت للتنويم المغناطيسي. لكن في

بعض الحالات... » وتوقف عن الكلام فجأة. ارتفعت يد برو عاليا: «هل قلت حيوانات؟». أخذ يهز برأسه كما يفعل بريء لا يضمر ما يريب. «حسنا إذن، هل تستطيع تنويم أحد السويني هنا يا دكتور؟ يعني، كما تعلم، فقط كي نرى بأنفسنا كيف يمكن فعل ذلك». أثار ذلك جلبة تجاوزت الهمهمات والنظرات، وانطلقت من الخادم مايكريست قهقهة مكبوتة سمعها الجميع وحررت ضحكهم الحبيس. أنا نفسي ضحكت بينما استدار فيكار الجالس على كومة الحبال نحونا وقد تهللت أسارير وجهه ابتهاجا لما يجري. بوتر من جانبه بدا في غاية الحرج، فبدل أن ينتقم من خصمه في محاضرته العتيدة أوقع نفسه في فخ لا يستطيع الفكاك منه، بين رغبته في تقديم نفسه في مظهر جدي ورصين وما يتعرض له من سخرية. كان مشهدا مثيرا حقا أن ترى رجلا لم يظهر عليه من قبل أي ارتباك أو فقدان للسيطرة على الموقف كبوتر يتعرض لكل هذا الحرج.

«لا أعتقد أن ذلك سيكون مفيدا»، قال وهو يجاهد ليرسم ابتسامة صارمة على وجهه.

لو تحلى بقدر من الحكمة لاكتفى بـ لا إجابة قاطعة. لكن الذي حدث أن برو تعامل مع إجابته تلك على أنها تشجيع له على التمادي. «لكن ألا ترى يا دكتور كم نحن راغبون في رؤية كيف تطبق ما شرحت لنا على السويني؟» قال ونظر حوله مستدرجا الآخرين ليؤيدوا طلبه.

«لكن الحقيقة أنه ليس لدي تجربة في أمور كهذه»، قال بوتر بارتباك.

«آه، أنت لا تقدّر حق نفسك. فلا بد لعالم خبير مثلك أن يفعلها بمنتهى السهولة».

أعتقد أن بوتر كان سيجد طريقة ما للتملص لولا تدخل القبطان كيولي الذي اكتفى بالتفرج حتى تلك اللحظة. إلا أنه تقدم فجأة ورمق الطبيب بنظرة خبيثة وقال له: «هيا يا دكتور، لا يمكنك أن تردنا خائبين بعد أن أوقدت الفضول فينا هكذا. دعنا نرَ كيف تنوّم السويني مغناطيسيا». وجّه بوتر نحو القبطان نظرة مليئة بالرجاء على أمل أن يرأف به ويحول سؤاله إلى مجرد دعابة، لكن دون جدوى، فقد انخرط جميع الطاقم في التصفيق له وتشجيعه، فما كان منه إلا أن بدأ يتقدم إلى الأمام في الضباب كأنه رجل محكوم يمشي ليواجه مصيره المحتوم. نهض ويلسون من مكانه وتبعه إلى حيث القارب الذي يؤوي الخنزير، وكذلك فعلت أنا. كان منظره يثير الرثاء، وكنت سأتعاطف معه لولا أني كنت مضطرا لاحتمال صحبته خلال وقت الرحلة الطويل.

ما من سبب لاقتراح الخنزير للتنويم المغناطيسي سوى أنه لم يتبق لدينا من الحيوانات غيره. أكلنا كل ما اصطحبنا معنا من حيوانات، العجول والدجاج وكل الأغنام إلا واحدة فقط. تركنا ثلاثة خنازير إلى النهاية لأنها أكثر الحيوانات جلدا على الإبحار. حين تقدمنا نحوها في القارب الذي تحول إلى ما يشبه زريبة لها انتفضت وتجمعت على بعضها بذعر، ولا عجب، إذ لطالما رأت سابقا كيف أُخذ غيرها بعيدا إلى مقدمة السفينة، حيث اختفت من هذه الدنيا بصخب لا يمكن نسيانه. «لا تفزعهم هكذا»، قال الطباخ كويل الوحيد الذي لم يرق له ما يحدث.

كانت الخنازير الثلاثة عبارة عن أنثيين وذكر واحد ضخم وسمين تتوقد عيناه ذعرا كأنه فطن فجأة إلى مصيره الوشيك. هرش بوتر لحيته وهو يفكر كيف يبدأ بمهمته الصعبة.

«سأتبع ذات الطريقة التي أتبعها مع البشر، رغم أني لا أضمن فعاليتها مع الحيوانات».

اختار الذكر، ربما لأنه أكثر شبها بالبشر، وأخذ ينظر في عينيه بثبات ثم راح يحرك أصابعه حول رأسه كأنما يمسد عليه لكن دون أن يلامسه تماما، ولا أدري إن كان ذلك إجراء تقنيا أم أنه تصرف لتلافي القذارة التي تلطخ جسد الحيوان كله. نفر الحيوان المسكين في البداية ثم ما لبث أن استرخى بعد قليل، وعندما تمددت حركات بوتر وتمسيده إلى ظهره رقت نظرات الخنزير واستلقى في استكانة واسترخاء تامين. علت حينها همهمات الإعجاب من الحضور. وعندما اطمأن إلى سيطرته على الحيوان تراجع بوتر قليلا وهو يسدد النظرة ذاتها إلى عيني ضحيته. «إنه الآن منوم مغناطيسيا»، قال بفخر.

لكن قبل أن يتابع انتفض الخنزير مرة أخرى وأخذ يشم ويعبث في بقايا القذارة والطعام في قاع القارب. تجاهل بوتر ذلك وقد بدا أن الموضوع قد استولى على اهتمامه كليا ونسي تردده وحرجه.

«سأجرب تقنية أخرى قد تكون فعالة أكثر مع الحيوانات. هذا يتطلب التحديق في عينيه بشكل مستمر حتى يخضع للتنويم المغناطيسي».

ولكن كيف لخنزير أن يخضع لتحديق إنسان هكذا! هذا ما لم أكتشفه أبدا. يبدو أن خطأ بوتر كان أنه لم يعد مسبقا لما كان يفعل. فبدلا من التحلي بالصبر وتهيئة الحيوان بالتدريج من خلال وضعه في حالة استرخاء وتلقٍّ كما فعل من قبل عبر التمسيد انصرف دون مقدمات إلى تجريب تقنيات جديدة.

«ما أحتاج إليه الآن شيء ما لامع وملفت للنظر، أي قطعة معدن صقيل تنفع».

تبادل البحارة نظرات متشككة. ثم تناول برو شيئا من حزام على خصره وأعطاه لبوتر. كان يمكن أن يكون اختيار شيء كهذا محض مصادفة، لكني أشك أن يكون كذلك مع شخص مثل برو. تناول بوتر ذلك الشيء من برو، ثم فجأة وجد نفسه هو والخنزير يحدقان في سكين كبيرة يلمع نصلها بينهما.

تنبه الدكتور إلى الخطر المحدق به فجأة، ولكن بعد فوات الأوان. لم أتخيل أنه يمكن لخنزير أن يحدث كل ذلك الصخب. في لحظة واحدة ضج الفضاء حولنا بزعيق هائل، صوت رعب فظيع. ثم اندفع المخلوق المذعور ينتفض ويقفز كمحرك بخاري انفجر تتبعه الأنثيان فيهتز هيكل القارب وترتج أوعية العلف المعدنية بصخب. حاول بحارة أيل أوف مان السيطرة على الموقف واقتربوا ليلجموا الحيوانات الهائجة، لكن الإمساك بثلاثة خنازير مذعورة كان شبه مستحيل، خصوصا مع كل ما يلطخها من وحل وأقذار لزجة. ربما كان من الأفضل ترك تلك الحيوانات والابتعاد عنها لتهدأ وحدها. لكن ما حدث أن البحارة استطاعوا في النهاية الإمساك بالخنزيرتين، ثم تمكن شاينا عملاق السفينة من القبض على ذيل الذكر الكبير وإخضاعه.

لا أدري إن كان ما جرى بعد ذلك مجرد مصادفة. يبدو أن العقل البشري لا يستطيع سوى ربط الأحداث، وتخيل ما بينها من علاقات سببية، خصوصا إذا ما كان تحت وقع وقائع مثيرة كتلك. ولا أعرف أيضا فيما إن كان بوسع المخلوقات البحرية أن تسمع أو أن تبالي بما هو خارج كونها المائي. فما إن هدأت الخنازير

قليلا حتى سمعنا صوت رشق وارتطام في الماء قويا ومثيرا للفزع. لم نتمكن من رؤية ما كانت تفعله تلك المخلوقات في هياجها وحركتها العنيفة، لكن النتائج كانت بينة لنا، فقد بدأت السفينة التي كانت إلى لحظتها ساكنة تضطرب وتهتز بعنف. لم أحسب أن في الأمر أكثر مما قد تتعرض إليه أي سفينة من مفاجآت، لكنني علمت عندما نظرت إلى البحارة المتجمعين عند مقدمة السفينة ورأيت شاينا يرفع لهم يده والدم ينزف من بين أصابعه أن الأمر أكثر من حدث عارض. يبدو أن الخنزير استطاع الإفلات من بين يدي كويل وأطبق فكيه على يده عندما اضطربت السفينة. بدا شاحبا كشبح. ما أسرع ما يتغير المزاج. كنا في هرج ومرج من يضحك من نكتة ثقيلة، لكن كل شيء تغير في لحظات وانقلبت الوجوه إلى وجوم وانقباض. أما التغيير الأكبر فكان من نصيب بوتر الذي تحول للتو من أحمق إلى بطل.

«هل أحضرتم حقيبتي»، سأل في عجلة ثم انهمك في عمله.

لم تمكث المخلوقات قرب السفينة طويلا وسرعان ما انصرفت وانقشع الضباب في صباح اليوم التالي. تماثل شاينا إلى الشفاء بعد يومين وأصبح بإمكانه الجلوس على سطح السفينة في أشعة الشمس، وكلما مر الدكتور الذي أنقذه بادره بتحية احترام وتبجيل. وهكذا لم يحاول بعد ذلك اليوم أحد، بمن فيهم برو، أن يتناول الطبيب بأي سخرية أو مزاح. وفي الأحد التالي ألقى علينا الدكتور محاضرة جديدة، عن فوائد أكل النبات هذه المرة، وقد أزعج ويلسون كثيرا أن جميع من على متن السفينة أصغى إليه باستكانة ووداعة الحملان.

الكاهن جيفري ويلسون، أكتوبر 1857

رسونا أخيرا وبعد ثلاثة أشهر من الإبحار في مستعمرة الكاب في أقصى جنوب أفريقيا. بقعة في غاية الجمال تقع على سفح جبل تابل. مدينة ساحلية بشوارع عريضة، طُليت بيوتها بالأبيض فأشاعت جوا من البهجة، وزينت شرفاتها بأصص النباتات، وتلونت الشجيرات المعرشة على جدرانها بزهور زاهية تسر الناظرين. أما بالنسبة للسكان فكان الأفارقة عموما خجولين، وتميز أهل المدينة بطباع فظة بعض الشيء، بينما تحلى المستعمرون المنحدرون من أصول إنجليزية بخصائل على قدر كبير من الثقافة والكياسة، أمر يحسب لهم بالفعل على هذه المسافة الشاسعة من وطنهم الأم.

أول ما عزمت على القيام به الذهاب إلى مكتب البريد. فقبل أن نقلع من لندن استرعى انتباهي أن المراكب البخارية تسبق في سرعتها أيا من السفن المبحرة إلى هذه البقعة النائية. لذلك كنت قد طلبت من زوجتي أن تراسلني إلى هنا عسى أن يخفف هذا عنها وحشة وحدتها في غيابي ولوعة أشواقها إلي. توقعت أن أجد مكتبة كاملة من الرسائل بخط يدها تنتظرني، لكني أعترف أني لم أجد سوى واحدة فقط، بينما كان هناك أكثر من أربعة مغلفات من جوناه تشايلدز كلها خطابات مليئة بأفكار قيمة واقتراحات

مفيدة. قال في أحدها إنه سمع عن وجود أحد أصدقائه القدامى في الكاب وهو حاليا عقيد في جيش المستعمرة يدعى رايدر ويصر أن نزوره عندما نرسو هنا. سرني كثيرا أن نحل ضيوفا على رجل مرموق كهذا في مجتمع المستعمرة. ليس هذا فقط، بل وعلمت من الرسائل أيضا أن رحلتنا إلى تاسمانيا لاقت ترحيبا كبيرا من حاكم تلك الجزيرة ذاته الذي كان أحد معارف ابن عم تشايلدز. أما عن رسالة زوجتي فكانت في الحقيقة موجزة وتقتصر على أخبار أحد محال الألبسة التي اكتشفتها حديثا. لم استسلم للخيبة من إيجازها لأنني سرعان ما فكرت أنها لم تكن تريد أن تقلقني بأخبارها، تلك الحبيبة الرائعة.

بينما كنت أهم بمغادرة مكتب البريد صادفت الدكتور بوتر يدخل من الباب. لم تكن مصادفة سعيدة وبالكاد رد على تحيتي بأدنى ما تتطلبه اللياقة، لكني مع ذلك لاحظت أنه يحاول إخفاء العنوان على الرسالة التي كانت في يده وتمكنت من تمييز اسم جوناه تشايلدز من بين أصابعه. لا شك أن من حقه أن يراسل من يشاء، لكني لا أعتقد أنه من اللائق أن تجري مراسلات مع تشايلدز تحديدا دون استشارتي أنا رئيس البعثة والمسؤول عنها. لم يكن لذلك إلا أن يثير لدي الشكوك والتساؤلات حول ما يخفي وراءه من أسرار.

أرسلت بطاقتي إلى العقيد رايدر في صباح اليوم التالي فوصلني الرد إلى النزل الذي كنا نقيم فيه مع هذه الدعوة:

«حضرة الأب جيفري ويلسون وأعضاء بعثة أرض فان ديمن أدعوكم للعشاء في القلعة التي تعسكر فيها قوات المستعمرة».

أخبرت رينشو بالدعوة، وإن لم أسع لإخبار بوتر فذلك فقط لأنه من الصعب العثور عليه، إذ كان من عادته أن يختفي لفترات

طويلة ولا أحد يعلم أين أو ماذا يفعل. لكني ندمت، فرينشو أخبر بوتر، وهذا الأخير تصرف برعونة جعلت ردة فعله غير مفهومة على الإطلاق، فتارة كان يرغي ويزبد كصبي أهوج، وتارة أخرى يتهمني بالتواطؤ لتغييبه عن العشاء. لم ينتبني الشك حول صحة تصرفي بالطبع، لكني مع ما بدر منه من هيستيريا وجدت أنه من الحكمة أن أصطحبه معنا. وهكذا كتبت للعقيد أننا سنكون ثلاثة.

ومرة أخرى ندمت على طيبتي هذه. فما إن انتهى العقيد وضباطه من الترحيب بنا وجلسنا إلى مائدته حتى بدأ بوتر يتصرف بطريقة أقل ما يمكن وصفها بأنها مستفزة. فعندما سأل العقيد رايدر، وهو رجل صارم لكن لطيف، عن مجريات رحلتنا قال له بطريقة لا تخلو من التشفي إني عانيت من دوار البحر وإنه خشي علي ألا أنجو من تلك المحنة الصحية. تبجح بكل ذلك رغم علمه أن معاناتي كانت بسبب الطعام السيئ. وبالمثل انتهز الفرصة عندما تحدثنا عن تاسمانيا فقال إن تلك الجزيرة ذات طبيعة قاسية حتى على رجل شاب مثله، فكيف على الآخرين من كبار السن. لم أتوانَ في الرد عليه بحزم، فقلت ونحن نستمتع بطبق لحم الضأن المشوي مع صلصة النعنع إنه من المؤسف أنه لا يفقه شيئا في الجيولوجيا أو في علم اللاهوت مما سيجعله خلال مغامرة بعثتنا واكتشافاتنا أسيرا لظلمة جهله. تحدثت أيضا عن تجوالي الطويل في يوركشا وأنا أعد نفسي لهذه الرحلة بينما كان الدكتور رهين غرف المشافي المظلمة.

لم أدرك نوايا الطبيب الحقيقية إلا بعد أن عدنا إلى نزل إقامتنا واستلقيت في سريري متفكرا في أحداث تلك الليلة. يا لبطء القوى

الخيرة في اكتشاف الشر الكامن في البشر. لم تكن نوايا بوتر تنحصر في مجرد النيل مني أمام العقيد. لا، بل تجاوز لؤمه إلى مرمى بعيد. كان في الحقيقة لا يريد سوى إقصائي عن موقعي كقائد للبعثة. ولم يكن العقيد هو من يهمه، بل جوناه تشايلدز نفسه. فلا بد أن العقيد سيكتب إلى صديقه محيطا إياه علما بكل ما سمع ورأى، وبانطباعاته الشخصية عنا. ماذا لو كان مقتنعا بآراء بوتر السامة؟! وماذا عن تلك الرسالة التي كان يحملها عندما رأته في مكتب البريد والتي حاول إخفاءها عني؟! وهكذا فطنت إلى الخطر المحدق بي من أكثر من جهة بمسعى بوتر لتأليب راعي البعثة ضدي. وما زاد قلقي معرفتي بطباع تشايلدز المتقلبة وسرعة تحمسه لأي جديد. ثم ألم يكن ينوي تعيين بوتر في مكاني منذ البداية في ذاك اليوم الذي وقفنا فيه في منزل ابنة حمي؟!

جفاني النوم تلك الليلة وتقلبت على قلق. تستغرق سفينة البريد من كاب إلى إنجلترا أكثر من خمسة أسابيع، وعلى ما أذكر يمكن لرسالة من ملبورن إلى فيكتوريا أن تصل في غضون عشرة أسابيع، وأخيرا بضعة أيام لتصل إلى هوبارت. ستة عشر أسبوعا في المجمل. أملي أن نكون قد وصلنا إلى تاسمانيا قبل أي رسالة، لكن ما من شيء يضمن ذلك. فإذا ما سارت الرياح بما لا تشتهي الإخلاص أو إذا ما واجهنا عقبات ومشكلات في تنفيذ خطوات بعثتنا، فسيكون هناك ما يكفي من الوقت ليفعلها تشايلدز بتقلبات عقله المضطرب بالأهواء ويقوم بتعيين بوتر في مكاني. لا يمكن أن أسمح بذلك أبدا.

الدكتور توماس بوتر، أكتوبر 1857

مستعمرة كاب

بلد يشكل نموذجا مثيرا للتأمل والدراسة. يحتوي على تنوع في الأعراق والأصول. قام الباحث بمراقبة عينات مختلفة لساعات طويلة وتوصل إلى نتيجة غير متوقعة. أهل المنطقة = كائنات بليدة، ضخمة وبطيئة. نتيجة أخرى: المستعمرون الإنجليز = طاقة متجددة وثقة طاغية بالنفس. فكرة جديدة: الهولنديون ليسوا من أصل ساكسوني كما اعتقد البعض. إنهم من أصل كلتي. سيوضح الباحث لاحقا الفقر الأخلاقي والتراجع التاريخي الناجم عن ذلك.

تتكون الأعراق المؤلفة لمجتمع مستعمرة كاب مما يلي حسب الأقدمية:

الإنجليز: من أصل ساكسوني. الوضعية = الحكام الطبيعيون للمستعمرة.

البور: سكان كاب المتحدرون من أصل هولندي. الوضعية = مساعدون للإنجليز.

الملاوي: من أصول شرقية. الوضعية = خدم وعمال زراعيون.

الهندوس: من الهند. الوضعية = أدنى من الملاوي.

الأفارقة الأصليون: من قوم النيكرو. الوضعية = متدنية.

الهاوتنتوت: من أدنى طبقات النيكرو. الوضعية = وضيع وهمجي.

11 أكتوبر

يوم حمل أخبارا جيدة. بدأت بما ذكرته الصحف المحلية عن القتال في الهند. تشير الأخبار إلى أن المعارك مستمرة والإنجليز يحققون مكاسب عظيمة، رغم أن القتال لم يتجاوز دلهي إلى مناطق الشمال بعد. يشعر كاتب السطور أن التمرد سيفشل.. إلخ... إلخ... هذا تنبؤ شخصي بحت.

زرت الدكتور لوي كلايف، زميل جراح. التعارف = بواسطة الدكتور ب. كلايف = طبيب ممتاز + ف. مصدر موثوق عن الهاوتنتوت. ملاحظتي: أصولهم وضيعة + بالكاد يعتبرون بشرا. بقيت على العشاء ورويت الكثير من النكات.

كلايف + ف = مساعدة.

موثوق + ر.

ملاحظة للتأكد من جمع العينات.

ويلسون في بهو النزل لدى عودتي في هيئة غريبة + ينظر إلي بحقد. تساءلت هل فقد عقله بعد محاولته إبعادي عن العشاء + رينشو أخبرني. العشاء مع رايدر كان مضجرا.

القبطان إيليام كويليان كيولي، أكتوبر 1857

سمعنا أخبارا سيئة حتى قبل أن تطأ أقدامنا اليابسة. وما إن نقلنا الزورق بسلام نحو مرفأ مستعمرة الكاب تلك - بلدة تزهو على سفح جبل شاهق - حتى أدركت كم علي أن أكون حذرا في بحثي وأسئلتي.

«حسنا، كم تساوي أربعة بنسات هنا؟ هل ستجعلني أغنى أم أفقر مما كنت عليه في بلادي؟».

«هذا يتوقف على ما الذي تنوي شراءه بها».

«لنقل مبيت ليلة وبراندي فرنسي مثلا؟».

«لن تحصل على المبيت بسعر رخيص هنا»، قال ضاحكا. «لكن بوسعك أن تمتع نفسك بكثير من البراندي الرخيص. فهذا مرفأ حر».

أي خبر مشؤوم هذا! مرفأ حر. أجل، ليس هناك أبرع من الإنجليز في ابتكار وسائل لسلب أرزاق الناس. هل لي أن أسألكم ما الحاجة إلى إيذاء الناس برسوم الجمارك وحرس السواحل منذ البداية، وما الضير في أن يتركوا هذا المكان بالذات دون ضرائب. بالطبع لم أشتق لرجال الجمارك، لكن إن كان علينا تحمل ضرائبهم هناك فيجب أن نتحملها هنا أيضا. لم يكن ذلك سوى ورطة

شنيعة. فبعد كل ما تجشمنا من عناء في بناء الإخلاص وتجهيزها بكل ما يلزم لإخفاء حمولتها السرية لن نجد أمامنا الآن إلا أن نلقي بكل ما نحمله من كنوز على قارعة الطريق، هكذا مجانا، ليتفرج عليه كل عابر سبيل. أين العدالة في مصير كهذا؟!

المأزق الآخر الذي وجدت نفسي فيه أنني بينما كنت أبحث عن مكان ملائم نفرغ فيه حمولة الإخلاص الثمينة ونجني ما نستحق منها وجدت نفسي أنظر في الخارطة ولا أجد سوى مرفأ هوبارت، بقعة لا جدوى منها تعج بالإنجليز في آخر العالم.

ولكن كما يقول المثل لا فائدة من البكاء على سمك لم يقع في شباكك بعد. لذا صرفت تلك الهواجس عن ذهني ومضيت لأقضي ما علي من أمور في المرفأ، وقد أخذ ذلك كل وقتي. تابعت بعض المعاملات والأوراق الرسمية في البداية، ومن ثم كان علي تأمين مخزون يكفي من مياه الشرب للسفينة مما تطلب بضعة أيام. في تلك الأثناء كان البحارة يصدعون رأسي بإلحاحهم على أن يتقاضوا شيئا من رواتبهم، وقد هددوا بإثارة المتاعب على الرصيف إن لم أعطهم ما يريدون. حاولت المماطلة ما استطعت، ولكني خضعت في النهاية وأعطيت كلا منهم بعض البنسات فانطلقوا إلى الميناء وعيونهم تتضور جوعا. طلبت من اثنين بالإضافة إلى شاينا الذي برأت يده من عضة الخنزير البقاء معي لملء خزانات مياه الشرب ولوضع الحيوانات التي اشتريتها في القارب الصغير؛ مؤونتنا لبقية رحلتنا. وبلغ من امتعاضهم لاحتفاظي بهم أنهم تحاملوا على أنفسهم ببطء حلزون، فلم أطق صبرا على مراقبتهم وانصرفت تاركا كينفيغ يستحثهم بالصراخ بين فينة وأخرى.

تجولت مع برو في السوق بحثا عن خريطة لأستراليا تلك التي نبحر نحوها، وهنا على الأقل لم يجانبنا الحظ. أول ما وجدناه نسخة مذهبة رسمت وزينت كفخ للنصب والاحتيال. ثم وفي متجر بسيط عثرنا على خريطة جيدة لأرض فان ديمن والتي أصبحت تسمى الآن تاسمانيا، بربع سعر مثيلاتها في السوق وبخاتم في أسفلها يوثق تاريخها 1830. قديمة بعض الشيء، لا أنكر ذلك، ولكنها تفي بالغرض تماما. يكفي أن خطوط الساحل واضحة ودقيقة، أما معالم الطرق الجديدة التي شقها الإنجليز هناك فليست بالنسبة إلى بحارة أيل أوف مان أكثر من مجرد هراء لا طائل منه. أرانا صاحب المتجر خريطة لعموم أستراليا، قديمة بعض الشيء أيضا، لكني رأيت أنها ستكون مفيدة إذا ما قدر لنا أن نضل طريقنا في ليلة ظلماء. أفلحت في مساومة الرجل والحصول على سعر ممتاز للخريطتين معا.

أنعشت تلك المساومة لطرافتها مزاجي حتى إني رغبت في استكشاف جانب ما من أفريقيا تلك فمضيت مع برو بجولة في شوارع المدينة، وأول ما لاحظته أنه مكان مضطرب. عندما وصلنا كانت الرياح باردة جدا كأننا في يناير من أحد شتاءات أيل أوف مان، مفاجأة في أفريقيا التي عرف أن حرها يشبه الفرن، ولكن سرعان ما انقلبت إلى رياح شمالية أحضرت معها صيفا لا تحلم بأكثر منه دفئا. والآن عاد الطقس باردا مرة أخرى. وما أثار دهشتي أيضا البدانة المفرطة للسكان، حتى إني حسبت أنهم يحملون معهم مؤونتهم من الدهون ويتجولون بها، ربما وقاية من البرد القارس. لكن بعد أن دخلنا أحد المطاعم عرفنا السر وراء ذلك، فعندما طلبنا وجبتين كانت الأسماك في أطباقنا مغمورة

بالشحوم. سألت نادلا هولنديا من أصل أفريقي عن السبب فأجابني باعتداد أنها دهون من أفخر أنواع السمك. لا بد أن الطوارق والهنود اعتادوا طعاما مختلفا إذ إنهم نحيفون كالعصي، ولا غرابة، فلعلهم يحاولون بذلك ألا يلفتوا الأنظار إليهم، غالبا لتفادي عسف الهولنديين والإنجليز الذين كانوا يعاملونهم كأنهم قذارات ويوجهون إليهم أقذع الشتائم. لدينا في أيل أوف مان ظلم أيضا، حيث يعتقد بعض الإنجليز والإسكوتلنديين أنهم أعلى شأنا من غيرهم فقط بسبب تلك الألقاب الجوفاء التي يحملونها. لكن لا، الأمر في تلك المدينة الأفريقية كان أسوأ أضعافا مضاعفة، ولم يكن مجرد حفنة من الرجال المتجبرين، بل نصف سكان المدينة ينكلون بالنصف الآخر.

انشغل برو بالمحلات أكثر من أي شيء آخر. «هل رأيت عدة المناجم التي يبيعها ذلك الرجل؟» لم يفتني ملاحظة ما ملأ رفوف المحل من دلاء ومعاول صغيرة وبوتقات صهر محمولة، ولاحظت لوحة كبيرة أيضا علقت على الجدار في الخلف كتب عليها: «نبيع كشافات للتنقيب عن الذهب.. مصممة لفيكتوريا. أسعارنا أرخص من أستراليا».

«ما رأيك؟» ورمقني برو بنظرته الخبيثة العارفة تلك. «أعتقد أن علينا أن نأخذ بعضا من هذه معنا، فقد تدر علينا بعض المال. حرام أن نتكبد كل مشقات رحلتنا الطويلة وما من شيء في المخازن سوى ما لا قيمة له».

«نعم، عدا أننا لا نملك المال اللازم»، قلت له متفاجئا بغباء اقتراحه. «هذا غير أننا لسنا ذاهبين إلى فيكتوريا، بل إلى تاسمانيا».

فاتني أن برو من ذلك النوع من الرجال الذي يفكر في كل شيء مسبقا بحيث يصعب أن تضبطه متلبسا بحماقة. «ولماذا لا نذهب

إلى فيكتوريا؟ نستطيع رواية أي حكاية وسيصدق الإنجليز الحمقى أي شيء. سيقولون إن فيكتوريا أرض ينبع فيها الذهب في كل مكان وينبثق بين أرجلنا كما تقفز الأرانب في الربيع، وسنحصل هناك على ثمن كبير مقابل ما نحمله من بضاعة».

«ومن أين نأتي بالمال؟ بعد أجور البحارة وثمن ما نحتاج من مؤونة لن يتبقى معنا بنس واحد لشراء عدد التنقيب».

«سهل جدا. نبيع تلك الشوك والملاعق التي أخذناها من مالدون. يمكن أن تباع بسهولة في مدينة كهذه».

لم تكن فكرة ذلك اللعين سيئة البتة. حاولت التظاهر بالتردد والقلق في البداية، فقط كي لا يتمادى في الغرور، لكنني وافقت في النهاية ومضينا من فورنا إلى السفينة لإحضار بعض القطع الفضية كعينات، وتوجهنا بعدها للبحث عن متجر، لما هو ثمين هذه المرة بعد أن أمضينا جولتنا الأولى بحثا عن أرخص ما في السوق. عثرنا على غايتنا في محل مليء بالتحف وأواني الفضة، ورأيت قبل أن ندخل من خلال زجاج النافذة سيماء الدهاء على وجه صاحبه الجالس وراء طاولته. لاحظت اهتمامه فور رؤيته ما عرضنا عليه، ولكن لم أتفاجأ أنه تصنع عدم التحمس. «قد أجد ما ينفع فيها»، قال وهو يتفحص الشوكة والملعقة اللتين أخذهما من يدي. «هل لديك المجموعة كاملة؟».

«كاملة عدا قطعة أو قطعتين»، أجبته متذكرا كيف سقط منا شوكة أو ملعقة ونحن نهرب حين بدأ ذاك الرجل بإطلاق النار. «ولكن لن يلحظ أحد النقصان مع عددها الكبير».

«آه؟ حقا؟» قال وعاد لتفحص القطعتين من جديد ثم سأل: «من أين حصلت عليها؟».

أيقظت نبرته الحذر داخلي كعادة أي رجل من أيل أوف مان يثير سؤال كهذا حساسيته. «من أحد أسواق لندن».

«أي سوق؟».

هززت كتفي كمن لا يذكر على وجه التحديد. «وهل تفرق؟».

«ربما»، قال وعيناه تبرقان خبثا ودهاء. «قد تكون محض مصادفة، لكني قرأت قبل فترة في الصحف عن حادثة سرقة لأوانٍ فضية كان ضحيتها سيد محترم اسمه هوارث إن لم أكن مخطئا... الأدميرال هنري هوارث»، قال ثم رفع الملعقة مشيرا بإصبعه إلى حرفي هاء هاء المنقوشين عليها. «بيته كما قرأت ليس بعيدا عن لندن. في مكان ما قريب من البحر».

حاولت الحفاظ على ابتسامتي العريضة مرسومة على وجهي. «حقا؟» وأنا أجاهد في حل هذا اللغز. كيف له أن يعرف كل هذا. ثم تذكرت... نعم، كل تلك السفن البخارية التي كانت تمخر عباب البحر لأسابيع سبقتنا إلى هنا. ألم أرها بنفسي؟ لابد أنها كانت تحمل البريد والجرائد والأخبار إلى هذه البقعة من العالم. «أجل، لا بد أن هناك الآلاف بل الملايين من البشر تبدأ أسماؤهم بحرفي هاء هاء».

«صحيح، قد يكون ذلك»، قال صاحب المتجر وهو يرمقني بنظرة حذرة. «كانت حادثة مؤسفة حقا. حسب جريدة التايمز كان قائدا في الحرب ضد الصين، وتلك الأواني المسروقة كانت غنيمة حصلوا عليها من إحدى البواخر الصينية. أي خسارة كبيرة تعرض لها ذلك الرجل! ».

وكأن كل ما تعرضنا له من سوء الطالع لا يكفي، وها نحن نجد أنفسنا في ورطة جديدة. ليست مجرد سرقة، بل نحن الآن

مـن تجـرأ عـلى السـطو عـلى بيـت بطـل قومـي!

«هل لديك إثبات ملكية؟ صك بيع مثلا؟».

لم أجـد الوقـت مناسـبا لأي مماحكـة أو مماطلـة. نظـرت إلى بـرو: «هـل أحـضرت الـورق معـك؟».

رسـم بـرو عـلى وجهـه ملامـح مـن يسـتاء لحماقـة ارتكبهـا: «أوه، أتعلـم أني نسـيتها؟».

«حسـنا، لنذهـب إذن ونحضرهـا»، قلـت بنـبرة مـن يغفـر خطيئـة ثـم رسـمت عـلى وجهـي ابتسـامة عريضـة وقلـت للتاجـر: «لـن نتأخـر. سـنعود سريعـا». مـددت يـدي لآخـذ الملعقـة والشـوكة وظهـر لي أن الرجـل يحـاول الاحتفـاظ بهـما، لكنـه تركنـي آخذهـما في النهايـة.

«أي فكـرة عبقريـة كانـت!» قلـت متأففـا لـبرو. كانـت فرصـة نـادرة لإحراجـه بمـا ارتكـب مـن حماقـة، لكنـي لم ألحـظ أي ارتبـاك عليـه.

«إنه مجرد حظ سيئ. ثم إنه لن يفعل شيئا».

جعلتنـي هواجـسي ألتفـت ورائي لألقـي نظـرة، وليتنـي لم أفعـل. رأيتـه هنـاك، وراء زجـاج نافـذة المحـل، التاجـر يحـدق بنـا بنظـرة متفحصـة. تظاهـرت أني أنظـر إلى مـكان آخـر كليـا، إلى نقطـة مـا أبعـد منـه، رغـم أني لم أجـد شـيئا يمكـن النظـر إليـه عـدا كلـب يعبـث بـشيء مـا بقائمتيـه الأماميتـين. مشـينا مسرعـين بخطـى حثيثـة. قـال بـرو وهـو يوسـع مـن خطـوه: «حتـى لـو أخـبر أحـدا مـا فلـن يحـدث شيء. إنـه حتـى لا يعـرف مـن نحـن».

«لا، بل يعرف ما يكفي. ألم نخبره أن لدينا سفينة؟».

أحنـى بـرو رأسـه هنـا: «لكنـه لا يعـرف اسـمها. ليـس مـن المعقـول أن تفتـش الشرطـة كل السـفن الراسـية في المينـاء».

«ولكن يمكن أن يخبرهم عن أشكالنا، ويكفي أن القضية يحيط بها الكثير من اللغط في الجرائد عن أدميرال بطل وحرب مع الصين ليتهافت رجال الشرطة على حماقة كهذه». كنت وأنا أتكلم قد بدأت أفكر بأحوال الرياح وتقلباتها. اليوم فقط نشطت الريح جنوبا كأنها تمنحنا فرصة لا تعوض في الإبحار. لو تأخرنا قد تنحرف شمالا في أي لحظة كما خبرتها، وسنعلق في مكاننا هنا كما يُحشر دب يتسلق مدخنة. أجل، قد نحاصر هنا لأيام أو لأسابيع. وهكذا، لم أصل السفينة إلا وقد اتخذت قراري.

«لن أخاطر»، قلت ملوحا لكينفيغ.

المشكلة أن ذلك لم يكن سهلا، فأولا كان لا يزال على الرصيف حمولة كبيرة تنتظر نقلها إلى السفينة، دزينتان من براميل الماء وما يقارب حديقة حيوان صغيرة من المخلوقات. فكرت في هذا وأنا أنظر إلى شاينا وبعض البحارة يحملون خنزيرا ويداعبونه ثم ينقلونه ببطء وتمهل كمن لا يستعجل الرحيل عن هذا المرفأ. والمعضلة الثانية، ولعلها الأسوأ، كيف سنتمكن من جمع طاقم البحارة.

«لا بد أنهم يشربون في مكان ما»، قال برو.

«أو يفحشون»، أضاف كينفيغ.

«أو يرتكبون الفعلتين معا».

«أشك أن ما أعطيتهم من بنسات يكفي للفعلتين. الأفضل أن تذهب وتبحث عنهم الآن. الأمكنة التي يمكن أن يختفوا فيها ليست كثيرة».

لم يكد كينفيغ يهم بالذهاب حتى سأل برو: «وماذا عن المسافرين؟».

أجـل، بالفعـل، مـاذا عنهـم؟! النـزل الـذي يقيمـون فيـه عـلى مرمـى حجـر مـن رصيـف المرفـأ، وقـد شـاهدتهم كلهـم يخرجـون هـذا الصبـاح. هـؤلاء الإنجليـز لا يمكـن التكهـن بمـا يمكـن أن يفعلـوه. يمكـن أن يختفـوا في أي مـكان لعـين لا يمكـن تخيلـه، فقـط ليجربـوا وسـيلة لتمضيـة الوقـت. هـززت بكتفـي: «سأرسـل كينفيـغ للبحث عنهـم. وإن لم نعـثر عليهـم فليـس أمامـي سـوى أن أتـرك متاعهـم عـلى الرصيـف وأبحـر دونهـم. لـن يعجبهـم هـذا بالتأكيـد وسـيجن جنونهـم ويثـيرون الكثـير مـن الضجيـج والشـكاوى في كل مـكان. لكـن مهـما حـدث سـيكون أفضـل مـن أن أقـضي بقيـة عمـري هنـا في سـجن أفريقـي. والآن عـلي أن أدفـع رسـوم المرفـأ، وإلا فلـن نخـرج مـن هنـا أبـدا».

وأنــا أهــم بالنــزول إلى رصيــف المرفــأ ســمعت شــاينا كلــوكاس يصيــح: «ســمعتك... تريــد أن تغــادر دون المســافرين الإنجليــز».

قلـما يمكـن العثـور عـلى مـا هـو أسـوأ مـن رجـل يفتقـر إلى العقـل ويتصنـع الـذكاء هكـذا فجـأة. رمقنـي بنظـرة متحديـة وعارفـة. حدقـت بـه بغضـب وصرخـت: «ألم أقـل لـك أن تنقـل هـذه البراميـل. هيـا انـصرف إلى عملـك».

انكـسرت نظرتـه وقـال: «لا يصـح أن نمـضي ونـترك الدكتـور هنـا. لا، لا يصـح هـذا».

الكاهن جيفري ويلسون، أكتوبر 1857

ساعة كاملة مضت وأنا أنتظر العقيد رايدر. أزعجني الأمر بالتأكيد، ولكنه على الأقل منحني فرصة لمراجعة وترتيب ما أنوي قوله. عليَّ بداية أن أبذل جهدي لكسب العقيد إلى جانبي، وأفضل طريقة لاستمالته أن أقول له إني أحاول الاستفادة من خبرته في القيادة. بعد ذلك سأنتهز الفرصة للبوح بهواجسي. سأشرح ما يثير شكوكي حول ذهنية الدكتور بوتر ثم أروي كل تلك المعاناة التي سببها لي خلال رحلتنا منذ إقلاعنا من لندن، وسأركز على تصرفاته الغريبة وخصوصا فعلته الأكثر شذوذا حين قام بتنويم الخنزير مغناطيسيا. وأخيرا سأقول ما أعرفه من أن الدكتور يشعر بالضغينة لأنه لم يعين في موقع قيادة البعثة. وهنا لن أضيف رأيي الخاص، بل ببساطة سأطلب نصيحة العقيد. لست ممن يستهويهم حبك الخطط والمؤامرات بالطبع، لكني عشت ما يكفي لأتعلم كيف أصوغ وأطرح آرائي بطريقة تجعلني أكسب الآخرين إلى صفي.

قاطعت أصوات تناهت إلى سمعي فجأة تيار أفكاري، وحسبت حين اقترب وقع خطوات مني، أن موعد دخولي إلى العقيد قد حان. لكن لا، للأسف لم يكن الأمر كذلك.

«السيد برو؟ أية مفاجأة؟!».

«أوه، الأب ويلسون! أشكر الرب أني وجدتك. أخبرتني صاحبة النزل أنك هنا. يقول القبطان إننا سنبحر الآن. عليك الحضور معي في الحال».

طلب مفاجئ وغير منطقي. في هذا الصباح فقط قال القبطان إننا سنمضي في الكاب عدة أيام على الأقل. «ولكن لماذا؟».

«لا يمكننا أن نفوت فرصة الرياح المواتية هذه. فلو غيرت اتجاهها فجأة فسنبقى هنا لأسابيع أخرى، وقد يطول الأمر حتى عيد الميلاد. لا أعتقد أنك تريد هذا يا حضرة الأب».

«لم يشر القبطان إلى هذا الاحتمال من قبل».

«آه، نعم. كان ذلك قبل أن تغير الرياح اتجاهها».

لم يكن بوسعي فعل شيء فنهضت وأبلغت اعتذاري للحاجب على الباب ثم غادرت القلعة وأنا نادم في سري أني أخبرت صاحبة النزل عن وجهتي هذا الصباح. كنت قد فعلت ذلك فقط كي ألفت نظرها إلى أهمية نزلائها.

كانت عربة تنتظرنا في الخارج، وما إن تحركت بنا حتى بادرني برو بالسؤال: «ألا تعرف أين يمكن أن نجد المسافرين الآخرين؟».

يبدو أنه ما من حدود لوقاحة الرجل، فلا يكفي أنه عطلني عن موعد مهم، لكن ها هو يتوقع مني أن أرافقه للبحث عن بوتر ورينشو وربما انتظارهما لوقت طويل كان يمكن أن أستفيد منه في مقابلة العقيد. «ليس لدي أدنى فكرة».

تجهم وجهه: «هذا مزعج».

لم يطل الأمر حتى تم العثور على أحد رفاق رحلتي. لكن ما إن اقتربنا من الرصيف حتى رأيت أن السفينة لم تكن جاهزة للإبحار وأن وقتا طويلا لا يزال يفصلنا عن الإقلاع رغم كل ادعاءات برو.

لم تكن هيئة الرجال توحي بأنهم جاهزون على الإطلاق، بعضهم في ثياب النوم، والبعض الآخر يترنح من السكر. عقدت العزم على أن أتكلم في هذا الموضوع مع القبطان، وما إن اقتربت العربة من صف الرجال حتى رأيت رينشو يمشي وهو يعرج معهم. خلت أنه ربما قد جرح رجله، لكنه تبين لي عندما دنوت منه أنه قد فقد فردة حذائه.

«ما الذي حدث لك بحق الرب؟» سألته مادا رأسي من نافذة العربة.

هز كتفيه، لكن أحد البحارة رمقني بنظرة غريبة وقال: «كان يصطاد يا فيكار، وهناك فقد حذاءه».

لم أفهم ما الذي قاله بالضبط، وفي الحقيقة لم أكن لأبالي بذلك وكل ما كان يشغلني، هو تلك الطريقة غير اللائقة التي أحضرت بها هكذا. في النزل كانت أمتعتنا قد حزمت كلها ووضعت في البهو. دفعت حسابي واستقللت العربة من جديد باتجاه السفينة حيث كان القبطان ينتظر.

«أنت مطالب بتفسير ما جرى يا قبطان، ولماذا علينا أن نرحل بهذه الطريقة المفاجئة، إن لم نقل غير اللائقة».

لم يجبني، بل التفت ينظر باتجاه الرصيف مظللا عينيه بكفه: «ها هو، أتى أخيرا».

نظرت فرأيت عربة تقترب مسرعة واستطعت تمييز الوجه العبوس للدكتور بوتر من نافذتها. لم أكن لأشعر بأي أسف لو أنهم تركوه هنا ومضوا بعد كل ما بدر منه من تصرفات مزعجة. جعل عربته تقترب من السفينة ومن فوره قام بالصعود إلى متنها بمساعدة الحوذي وشاينا كلوكاس الذي خف إلى مساعدته ونقل

ما أحضره من أمتعة وصناديق خشبية. انتبهت إلى كيولي الذي كان في هذه الأثناء يستغل الجلبة ليتهرب من أسئلتي ويبتعد باتجاه مؤخرة السفينة. لكني لم أخضع لما كان يفعل وتبعته.

«لم تفسر لي رحيلنا المفاجئ هذا يا قبطان».

ومرة أخرى لم يكن الحظ إلى جانبي. فما إن همّ بالالتفات إلي حتى سمعنا صوت نباح قويا. كان الميناء ساحة تعج بالكلاب الشاردة وعندما نظرنا باتجاه الأصوات رأينا رهطا من الكلاب قد تجمع حول صناديق الدكتور.

«ابتعدي، اللعنة». صاح بوتر ملوحا بعصا في يده. لكن الكلاب لم تخف هياجها ولم تبتعد عن الصناديق سوى بضع خطوات.

«ما الذي تضعه فيها يا بوتر؟» قال رينشو عندما كان الرجال يرفعون أول صندوق نحو السفينة.

«عينات... عينات من أجل أبحاثي»، قال بوتر وهو يرمقه بنظرة باردة.

«أليست قططا؟» صاح أحد البحارة مثيرا موجة من الضحك. التفت عندها من جديد نحو القبطان وسألته: «هل لك أن تفسر لي ما الذي يجري؟».

من الأمور غير العادلة في حياتنا أن أي اعتراض مهما كان وجيها يفقد قيمته بالتكرار. وهكذا نظر إلي كيولي دون أن يظهر عليه أدنى اهتمام، بل إنه تجاهل إلحاحي وقال: «ليس الآن. ليس الآن يا فيكار، فلدي الكثير مما أقوم به. واعذرني لو طلبت منك الآن أن تخلي قمرة القيادة».

علىّ الرغم من غيظي لم أجد ما أفعله سوى أن أتنحى جانبا وأجلس على كومة من الحبال على سطح السفينة لأمرر الوقت

ريثما نقلع. لكن لم يطل بي الوقت حتى وجدت نفسي أُنحى جانبا مرة أخرى، هذه المرة بطلب من كينفيغ. لم أرَ من قبل رجالا من أيل أوف مان - وهم الذين عرف عنهم كسلهم وخمولهم - يعملون بكل هذه الهمة والسرعة. كلهم يعملون، بعضهم يرفعون الأشرعة ويعدونها لتلقف الريح، والبعض الآخر ينزل قاربا لقطر الإخلاص خارج المرسى، ولم يمض وقت طويل حتى تحركت السفينة وانسابت مع الرياح فوق سطح البحر. بعد ذلك سُحبت القوارب وثبتت في مواضعها ورُفع الشراع الثالث دافعا السفينة بسرعة أكبر. عندها فقط لمحت شيئا غريبا. في المكان الذي كانت الإخلاص ترسو فيه وقف رجلان يلوحان باتجاهنا بغضب وانفعال بادين.

رآهما بوتر أيضا: «ترى لمن يلوحان، وما الذي يريدانه؟»، صاح موجها سؤاله إلى كيولي.

فرك القبطان ذقنه ونظر بعيدا: «آه، أولئك... إنهما يودعاننا فقط».

لكن الطريقة التي لوح بها الرجلان كانت تثير الريبة حقا. «هل أنت متأكد؟».

وبدل أن يجيب صاح القبطان باتجاه بحارته: «هيا يا شباب، لوحوا لأولئك الذين يودعوننا...» ترددوا قليلا ثم بدأ الجميع يلوح من سطح السفينة إلى أعلى صارية فيها. لكن الغريب في الأمر أن ذلك جعل تلويح أولئك الذين على رصيف المرفأ يتلاشى بدل أن يزداد حماسة. وهكذا بدأت رحلتنا شرقا عبر المحيط باتجاه تاسمانيا.

الفصل الثامن

ناثانيال ستيبينغز، مدير مدرسة بريستول، إلى جون هاريس، مستوطن ومالك أراضٍ في فان ديمن

روز هاوس - بريستول 12 أكتوبر 1832

السيد هاريس

بكثير من الأسى ودعت الشاب جورج وهو يعود إلى أرضه الأم. لا أكاد أصدق أنه مضت سنتان على وجوده معنا أنا والأم. لقد مضى الوقت بسرعة فعلا. لا أنكر أني كنت متشككا للغاية عندما جاء السيد غريغسون إلى روز هاوس ليعلمني بالترتيبات التي تم اتخاذها. فخلال تجربتي كمدرس لم يسبق لي أن اضطلعت بتعليم طفل متوحش من السكان الأصليين لتلك البقعة النائية من العالم، ولا أخفيك أني كنت أنوي رفض الموضوع من أساسه. لكن بوسعي القول الآن إني سعيد جدا لأني لم أرفض، فالأمور قد سارت بشكل أفضل مما كنت أتوقع بما لا يقاس.

لا يعني هذا أن الأمور كانت سهلة. لا، فالولد كان صعب المراس في البداية، لا يستطيع الثبات في مكانه أو الجلوس لفترة طويلة، وكثيرا ما كان يقفز على قدميه أثناء تناول الطعام، أمور

لم نتمكـن مـن معالجتهـا بسـهولة واحتجنـا إلى تأنيبـه بشـكل متواصـل ليحسّـن مـن سـلوكه. كان عصبيـا ومتوتـرا أثنـاء الليـل أيضـا، يـصرخ بكلـمات غريبـة بلغتـه الأم ويوقـظ كل مـن في سـكن الطلاب بكوابيسـه الغامضـة. ولكـن مـع مـرور الوقـت تغـير حالـه وتأقلـم مـع مـكان عيشـه الجديـد، بـل وأصبـح مـن أكـثر الأطفـال لطفـا وتهذيبـا هنـا. لقـد تعلـق بشـكل خـاص بالسـيدة كليغـورن، وهـي مربيـة مـن ويلـز تتميـز بطبـاع لطيفـة، واعتـاد أن يتشـبث بهـا كـما يتشـبث إنسـان بجـذع شـجرة في مهـب عاصفـة ويرفـض أن يبتعـد عنهـا، حتـى إنهـا كانـت تجـد صعوبـة في التركيـز عـلى أعمالهـا.

أمـا فيـما يتعلـق بدراسـة الصبـي، لا أنكـر أيضـا أن مـا حققـه فاجـأني بالفعـل. فقـد التـزم بدراسـته وتطـور بشـكل مضطـرد، ولعلـك سـتلاحظ أنـه يتحـدث الإنجليزيـة بطلاقـة الآن، رغـم بعـض الصعوبـات التـي لا يـزال يعـاني منهـا بخصـوص بعـض القواعـد البسـيطة والفعـل المـاضي. يكتـب بأناقـة وترتيـب، إلا أن التهجئـة عنـده بحاجـة إلى بعـض الاهتـمام. ذاكرتـه قويـة ويسـتطيع حفـظ التراتيـل بشـكل ممتـاز. لكـن أكـثر مـا أبهجنـي فيـما أنجـزه في تعليمـه تفوقـه في علـوم الحسـاب. نعـم كان في المـواد الأخـرى جيـدا، لكـن في الحسـاب هـو أكـثر مـن ممتـاز، إذ إنـه اسـتطاع تعلـم جـدول الـضرب بسرعـة لافتـة، حتـى قبـل أن يتعلـم حـروف الأبجديـة، وهـذا مـا لم نعتـده مـن غـيره مـن التلاميـذ. وليـس هـذا فقـط، بـل إنـه تمكـن مـن حـل أكـثر المعـادلات صعوبـة بالنسـبة لصبـي في عمـره. يبـدو أن لديـه شـغفا خاصـا بالأرقـام، كأنهـا ألعـاب تسـتهويه عـلى الـدوام، وقـد رأيتـه عـدة مـرات يكتـب ويحسـب عـلى أوراقـه وحـده كأنـه يمـارس ألعابـه الخاصـة.

لا بد لي من القول إني تعمدت الإطالة في الحديث عن مواهب جورج في الحساب لغرض محدد. فأنا في الحقيقة أريد أن ألفت انتباهك إلى أهمية متابعة دراسته، واعذرني هنا إن بدا في كلامي أي تطفل. فأنا أتمنى عليك لو أعدت النظر بقرارك في تشغيله في المزارع لديك بأعمال بسيطة أقل من إمكانياته بكثير كما علمت من السيد غريغسون. إن اختلاطه بعمال جاهلين سيؤثر عليه سلبا ويجعله ينسى كل ما تعلمه، وفي ضوء كل ما اكتسبه من معرفة ومهارات، لن يكون ذلك سوى خسارة وتبديد. يحتاج جورج إلى بعض الاهتمام والتشجيع وسيصبح دون أدنى شك مؤهلا للعمل في مواقع رسمية، ربما لدى حكومة المستعمرة لديكم. ولعل الأعمال المكتبية ستكون أكثر ملاءمة له، فقد لاحظت أن بنيته ضعيفة ولا تناسب الأعمال الشاقة. لقد قمت بتزويده بأوراقه وسجلات دراسته وبكل ما يلزم من أوراق لتوثيق تطوره العلمي لاعتقادي أن حاكم المستعمرة سيكون مهتما بالاطلاع عليها.

وأخيرا بقي أن أتمنى عليك أن تكتب لنا عن أخبار الفتى ومجريات حياته. سيكون من الشاق علينا كثيرا انقطاع أخباره عنا، وخصوصا السيدة كليغورن. وإن حدث ووجدت أي شقي آخر يمكن له أن يستفيد من التعليم هنا فسأكون جاهزا لتقديم كل ما في وسعي من أجل تعليمه.

جاك هارب، 1830 - 1837

سمعنا صليل السلاسل وهي تلقي بالمرساة، فعرفنا نحن الرجال الثمانية عشر القابعين منذ زمن في عنابر تلك السفينة القذرة أننا قد وصلنا إلى مكان ما. شعرنا بالحياة تعود إلينا ونحن نستنشق الهواء فوق سطح السفينة بعد ضيق القبور القاتل الذي خرجنا منه. رسونا في خليج صغير ورأيت الأدغال الكثيفة على الشاطئ دون أي أثر لبشر. لم أفاجأ، فنحن الأشقياء الذين جلبوا إلى هنا للشروع في بناء مستوطنة جديدة. كانت منطقة محاطة بالتلال وفيها فسحة من شاطئ رملي، بقعة جميلة ميناء آرثر هذا كما ينوون تسميته. لكن لم يطل بي الوقت حتى أعدت النظر فيما سحرني في ذلك المشهد. فخلال يومين فقط قمنا ببناء عدة أكواخ ومخزن ووجدنا أنفسنا في سجن على شكل قرية صغيرة. بعد ذلك بدأنا بالعمل في قطع الأشجار العملاقة ونشرها إلى قطع ومسطحات أو رصف جذوعها في البرد القارس لبناء مرسى للسفن. ولم تمض أيام حتى بدأ غيرنا من التعساء يتوافدون على أرضنا السعيدة تلك. لم أكن قد أُسرت من قبل في سجن المستعمرات، لكن سمعت الكثير عما كان يجري في معتقل ماكواري ذاك، فظاعات ترعب الشيطان ذاته. ولم أكن لأرغب في مصير مشابه، فقررت منذ البداية

ألا أبادر إلى افتعال المشكلات، وعزمت في الوقت نفسه، على أن أجعل لي سمعة يهابها الآخرون. كل نظرة توجه إلي أرد عليها بأقسى منها وبضربة على رأس صاحبها إن تكررت. هكذا رحت أفعل رغم مخاطر أن يضبطني الحراس وأتعرض لعقوبة الجلد. تحاشيت هؤلاء لكني مع ذلك جُلدت مرتين أو ثلاثا، ثم وجدت أنه لا بد من دفعة لقاء ما عزمت عليه. صممت على ألا أنسى أي إساءة توجه إلي، وكنت دائما أجد الوقت للرد عليها في النهاية. خدم ذلك مصلحتي إلى حد كبير، على الأقل في السنة الأولى لوجودي هناك قبل نزوح سجناء ماكواري إلينا.

توافدت أعداد كبيرة منهم بعد أن تم إغلاق ميناء ماكواري بشكل نهائي. لا أشك أن بعض المسؤولين وراء مكاتبهم تعمدوا أن يحولوا سجننا الجديد إلى جحيم آخر بنقل كل أولئك إليه. رهط من السفلة والمجرمين العتاة تومض شهوة القتل في كل نظرة من نظراتهم، يفضلون أن يشنقوا على تحمل مشاكسة عابرة، وما إن وصلوا من ماكواري حتى بدؤوا يسيطرون على كل شيء ويتحكمون بنا كأننا مجرد دمى يمتلكونها. حتى الضباط وجنودهم تملكهم الخوف منهم وأصبحوا يتحاشون الاصطدام بهم حتى لو شاهدوا أحدا ما يكاد يموت بين أيديهم من الضرب. فعلت أنا ما بوسعي لتجنبهم وحاولت أن أبدو شرسا ما استطعت أمامهم لكن دون جدوى، فقد وضعوني في قائمة من يجب تقطيعه إربا إربا. وفي الحقيقة لا أنوي الاستغراق الآن في استرجاع أحداث تلك الأيام.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسجل لأولئك المجرمين أننا حصلنا بفضلهم على بعض السمك. فبعد فترة من وصولهم شحت حصتنا من المؤن إلى درجة دفعتهم للهياج وإطلاق التهديدات

والوعيد إن لم نحصل على حصص كافية من الطعام، فما كان من الضابط المسؤول إلا أن خضع لهم وطلب منا أن نأكل ما نريد. اختصرت ساعات العمل وطلب منا أن نصطاد الأسماك ونزرع الخضار. لم يكن أروع من أن تجلس على الشاطئ تنتظر رزقك من الصيد أو تحفر في الأرض لتغرس البطاطا. حتى أنا وجدت نفسي بين أولئك الذين اندمجوا في العمل الجديد هذا، بل إن الجنود أيضا تلقوا أوامر بالانضمام إلى الصيد والزراعة بعد أن رأى غيرتهم من المساجين.

ولكن لكل حكاية سعيدة نهاية كما يقال، وأتت النهاية تلك مع هدية عيد الميلاد التي تلقيناها بزيارة جورج أولدر حاكم أرض فان ديمن. سمعت عن هذا الرجل من الآخرين، حيث كان موضوعا لأحاديث الرجال في زنازينهم وقيل الكثير عن عنفه وقسوته وعن ضرورة تجنب الاقتراب منه. وها هو يصل إلينا، ينزل من قاربه محاطا برجاله، وجهه خال من أي قطرة دم، جامد كالصخر حتى لتخاله غرابا أو أفعى تتربص بفأر. لم يرق له ما رآه في تجواله، لكنه لم ينطق بكلمة واحتفظ بوجه مكفهر حتى نهاية زيارته.

تغير كل شيء بعد الزيارة بسرعة. عُين قائد جديد علينا، رجل عسكري أيرلندي من أولئك الذين لا تسلم منهم حتى قذيفة بندقية. وأول ما قام به إلغاء الصيد والزراعة. ثم ارتدينا زي السجناء الموحد، كل حسب مستوى تطوره. فمن كان يُعتقد أنه على طريق الإصلاح ارتدى الرمادي، والبقية ارتدى الأصفر الفاقع. أما أولئك الذين تجاوزوا كل حد وتمكنوا من الحصول على التصنيف الأسوأ فنقشت ثيابهم الصفراء بكلمة «مجرم» وأُضيف

إلى قيافتهم زوج من القيود الثقيلة. أما التغيير الأشد قسوة فكان منع التدخين، وقد دفع ذلك العديد من السجناء إلى التوتر والهياج، وأثار الكثير من الشجار والمشاحنات. من تحدى ذلك لم يسلم من العقاب، ولقد فعلت أنا ذلك أيضا فكان نصيبي من التنكيل أن أرفل في حلتي الصفراء ردحا طويلا من الزمن، حتى خشيت أن أنتهي هنا مستسلما للسياط تكوي ظهري ولا أجد ما أحدق فيه غير رمال الشاطئ اللعين. ومما زاد قلقي أني بدأت أشعر بالزمن يمر وبالشباب يولي فزاد هلعي من فكرة أن أفقد القدرة على المقاومة وأتحول إلى لقمة سائغة للوحوش حولي.

ميناء آرثر ذاته أصبح أكبر مع ازدياد أعداد الوافدين إليه من المحكومين، ومن مجرد بضعة أكواخ صغيرة تحول إلى مدينة تضاهي مانشستر في ضخامتها وازدحامها بورشات تصنع كل ما يخطر على بال، من الأحذية إلى أعمدة الكهرباء. وكان هناك مرسى لتصنيع السفن محاط بحراسة مشددة، وإلى الشمال منجم فحم صغير قيل إن فيه زنازين صغيرة تحت الأرض يندى الجبين لمجرد ذكر ما فيها من ملذات، حتى إن سجناء ماكواري أنفسهم كانوا يفعلون كل ما بوسعهم لتجنب مصير زيارتها. وإذا ما أصاب الضجر أحدا منا وخطر له أن يتمشى وحده قليلا باتجاه الأشجار فهناك جهاز إنذار خلف مقر القائد يرصد كل حركاته بحيث تعرف كل أرض فان ديمن بمشواره ذاك. وفي أغلب الأحيان يتم القبض على ذلك المتعوس فيُعاد إلى السجن محمّلا على عربة يجرها محكومون آخرون، وما أكثرهم. أما إذا كانت الرحلة أكثر مما يحتمل ومات في الطريق فلدينا جزيرة صغيرة مخصصة لدفن الموتى، وتابوته جاهز بالطبع. قد يكون هو نفسه من قام بصنعه.

قد يبدو ذلك لكم غاية في الشقاء، لكن الضابط المسؤول لم يقنعه أن تكون مدينتنا كلها من خشب، ورأى أننا نستحق أن نشيد أبنية من حجر. وهكذا أصبح كل من سبق له أن عمل في بناء أو تقطيع الأحجار، ربما في إنشاء جسر أو طريق، مطلوبا على وجه السرعة. لم أتوقع أن أستسيغ تقطيع الصخور من جديد، لكن بعد تلك السنوات من نشر الأشجار برفقة بشر من أمثال محكومي الماكواري لم يكن عملي الجديد سوى نزهة لطيفة. بدأنا ببناء كنيسة ضخمة، ولم ننته منها قبل أن تتشقق يداي. بدأ الأمل يراودني عندها بأني سأترك المعتقل يوما ما، وكان أغلب من يعمل معي في تقطيع الصخور جبناء مما سهل علي الاحتفاظ بهدوئي والعمل بصمت. ما إن مضى بعض الوقت حتى بدلت بزتي الصفراء بأول بزة رمادية. إن حافظت على سلوكي هذا وواصلت تطوري فسأُنقل ربما إلى العمل في شق الطرق وأعمال مشابهة أكثر سلاسة من شرب كأس من الحليب.

عملي الثاني كان الرفق والهدوء ذاته. بناء نافورة في حديقة تزيين أعدت خصيصا للترفيه عن زوجة ضابطنا الأيرلندي. لم يكن مضى على زواجهما سوى بضعة أشهر، وكانت صبية شهية تتضوع كثمرة ناضجة، ولكن بشيء يشبه الحزن في عينيها أظنه بسبب إحساسها بالوحشة هنا دون من يؤنس غربتها في آخر العالم سوى الجنود والمحكومين بأغلال الثقيلة. قيل إن الحديقة هدية زوجها التي أراد من وراء بنائها أن يخفف من وحشتها، وبدا لي أنه نجح في ذلك بعض الشيء، إذ إنها كانت تأتي كل يوم وتنهمك في إجراء التعديلات، كأن كل تفصيل لا بد أن يتم كما تريد تماما. ولم نكن في الحقيقة نتذمر من أوامرها على الإطلاق ونحن نمتع أبصارنا

بمرأى أنوثتها المتدفقة، وذلك على الرغم من أنها لم تكن تخطو خطوة واحدة دون مرافقة ثلة من الجنود تحسبا ممن تسول له نفسه التفكير بأي شيء. فلم نكن نستطيع مقاومة رغبتنا في النظر إليها بجسدها الجميل رغم ما ترتديه من كساء طويل، ولا أشك أني كنت في أيام الصيف الحارة أتشمم نفحات من مسكها الذي يتضوع نديا وجاهزا للقطاف. وما زلت حتى الآن بعد كل تلك السنوات أشعر بدوار الرغبة وأنا أستعيد صورتها في أحلام يقظتي وكيف كانت مخيلتي تكمل المشهد. كم تحاملت على نفسي كي تبقى نظراتي إليها حذرة كي لا أُضبط وأفقد بزتي الرمادية.

لم تكن هي تخاطبنا بأي كلمة، بل تكتفي بنقل ما تريد بواسطة شخص يلازمها كالحارس يدعى شيبارد. ولم يكن شيبارد هذا مختصا بالحدائق أو النوافير، واختير فقط لأنه عمل في نحت ونقش شواهد القبور الحجرية. شتان بين العملين. كنا في يناير والجو حار كالجحيم ونحن نعمل في قطع الأحجار والظمأ يكاد يقتلنا. بعد عدة ساعات عملت فيها على تقطيع صخرة لبناء غرفة في الحديقة توقفت لأشرب الماء. شربت من دلوٍ جرعات كبيرة لأبرد حلقي، ثم وجدت نفسي أنتحي جانبا ثم أمشي نحو الأشجار بحثا عن قليل من الظل. وما إن اقتربت حتى سمعت شهقة. كانت هناك دمية الضابط الأيرلندي المدللة، في ردائها الداخلي تتصبب عرقا في الطرف الآخر من الشجيرات. لا بد أنها تراجعت قليلا لتلقي نظرة على مجريات العمل من بعيد. فغرت عيناها وحملقت برعب كأنها لم تر مخلوقا مثلي من قبل. لم أكن أنوي شرا، لكن المفاجأة أربكتني وبدل أن أتصرف بهدوء تراجعت إلى الوراء مضطربا، وهذا كان خطئي. فقد بدأت على الفور تصرخ

بطريقة أسمعت حتى من في مرفأ هوبارت وتراكض الجنود نحونا. للإنصاف لم تضغط على أحد من أجل معاقبتي، بل وسمعت أنها طلبت من زوجها الإفراج عني. كل ذلك كان دون جدوى بالطبع، ووجدت نفسي بعدها في بزة صفراء نقش عليها «مجرم» مع زوج من القيود الثقيلة في رجليَّ. ولم يكن هذا كل ما أعده لي الضابط. وُضعت بعدها في عهدة أعتى الجلادين في أرض فان ديمن، فريغسون الرهيب. وتكمن مهارة فريغسون هذا في اكتشاف نقطة ضعفك ومن ثم توجيه الضربات والضغط المستمر عليها يوما بعد يوم إلى أن يدفعك إلى الجنون. غالبا ما يبدأ بتوجيه الأسئلة مثل «هل أنت متعب؟» يوجه سؤاله بطريقة تخاله لوهلة مهتما بأمرك بالفعل. «تبدو بحاجة إلى قسط من الراحة». وإن كنت غبيا بما يكفي لتجيب تختفي ابتسامته فجأة كأنها لم تكن، يصمت الجمع حوله ثم يندفع نحوك، يركلك بقدمه وهو ينعتك بأقذع الصفات والشتائم. لحظات ويشير بعدها إلى جنوده فينقضون عليك ويحملونك إلى المحفة المثلثة حيث تُعلق لتنال نصيبك من التعذيب. هذا لا يعني أنه لو خرست ستلقى مصيرا أفضل. لا، فذلك النذل سيهز رأسه عندها متأسفا. «هكذا! إن لم تكن متعبا إذن لدي عمل مناسب لك». وهذا سيكون أسوأ ما يمكن أن تتفتق عنه مخيلته، كأن تجر جذع شجرة ضخما أو تقف مغمورا إلى خصرك لساعات في ماء المرسى البارد تحمِّل ألواح خشب كبيرة على قارب. ولن يكتفي بكل ذلك، فبعد أن تشارف على الموت يعود ويقترب منك من جديد. «هناك ما يقلقك، أليس كذلك؟» يسأل بنبرة كلها اهتمام ولطف. «أعرف، أعرف. لا بد أنك تخاف أن يأتي يوم تترك فيه هذا المكان الصغير وتغادر إلى العالم الشاسع

بـكل مـا فيـه مـن ملـذات وخطايا. كل مـا فيـه مـن تبغ وشراب الـروم اللذيـذ والنسـاء الجميـلات في ريعـان الصبـا يرفعـن لـك تنانيرهــن». يقـول هـذا ويقـترب بوجهـه حتـى تلفحـك أنفاسـه الكريهـة. «لكـن لا تخـف يـا جـاك، فصديقـك العتيـق فريغسـون سـيجنبك ذلـك المصير. سـأهتم بأمـرك حتـى لا تخـرج مـن هنـا إلا وأنـت عجـوز بهيـكل عظمـي فقـط فـلا تزعجـك النسـاء ولا حتـى بنظـرة». يقـول هـذا ويربـت عـلى كتفـك كأنـه صديـق حميـم بالفعـل، وهـذا أسـوأ مـا في الأمـر. «سـيتكفل صديقـك الـوفي فريغسـون بـكل شيء».

يستمر لوقت طويـل عـلى هـذه الحـال مـن التنكيـل إلى حـد ينـدر فيـه ألا توجـه إليـه ضحيتـه لكمـة. وإن فعلهـا أحدهـم فهـو جاهـز عـلى الـدوام، غايـة في اليقظـة والحـذر، يتجنـب أي شيء بيـسر. ومـا أسـهل تجنـب لكمـة مـن سـجين يرفـل في أغـلال ثقيلـة! عندهـا يحـين وقـت الجلـد، فيـصرخ فريغسـون ذاك عـلى جنـوده ليحملـوك وهـو يراقـب بابتسـامته العريضـة، كأن مـا مـن مشـهد يبهجـه أكثر مـن رؤية سـجنائه وهـم يتلقـون سـياط آرثـر ذائـع الصيـت. ولكـن لا بـد لي هنـا مـن التوقـف قليـلا لـشرح أي جـلاد هـذا. لم يكـن جـلادا عاديـا عـلى الإطـلاق، ومـن بـين كل جـلادي أرض فـان ديمـن الكثيريـن كان هـذا أكثرهـم شـهرة بشراسـته. لديـه تسـعة سـياط فيهـا إحـدى وثمانـون عقـدة، تنقـع كل واحـدة منهـا في المـاء وتجفـف تحـت الشـمس حتـى تغـدو أكـثر قسـوة مـن الأسـلاك. كان يكفـي مئـة جلـدة مـن هـذه لتحـول ظهـر أعتـى سـجين إلى مـا يشـبه كبـد الخنزيـر الناضـح بالـدم. ورغـم كل مـا تعرضـت لـه مـا زلـت أصر عـلى أن أسـوأ مـا يعـاني منـه المجلـود ليـس السـياط ذاتهـا، بـل ذلـك الإحسـاس الفظيـع بالعجـز والاستسـلام. ليـس هنـاك أقـسى مـن أن تعلـق عـلى محفـة الجلـد المثلثة

تنتظر أن يفرغ جلادك من أخذ نفس عميق ليهوي بالسوط على ظهرك من جديد، فالجلادون عموما لا يتعجلون في عملهم، وكل ذلك دون أن تستطيع فعل شيء. ومجرد تذكر تلك المعاناة حتى بعد أسابيع يجعل تلافيف الدماغ تسيل وتفور كما الحليب في قدر يغلي، وتجعل المرء ينتفض كالملدوغ يضرب ويركل بأربعته من جراء أي استفزاز مهما كان بسيطا، كأن يعترض أحد الحمقى طريقه مثلا.

هكذا كان فريغسون يحب أن يكون السجناء حوله حتى يسهل جرهم إلى دورة جديدة من التعذيب، وتستمر الدوامة في دوران يشبه أفعى تعض على ذيلها. ومن الواضح أن اهتمامه الخاص بي في تلك الفترة كان بالدرجة الأولى لإرضاء الضابط المسؤول، وبعد بضعة أشهر وزيارات متكررة لمحفة الجلد المثلثة وصلت إلى حالة من الإشباع. لم أكن قد رأيت وجهي أبدا في تلك الأيام لتعذر الحصول على مرآة، لكنني واثق من أن عيني كانتا أكثر توحشا من أي وقت مضى.

كان يندر أن تمر ساعة دون أن أفكر بطرق للفرار، وكم كانت تبدو لي في الساعة التالية طرقا غبية وفاشلة. قد يعتقد أي غريب عن أرض فان ديمن أن الهرب من مرفأ آرثر مستحيل، لكن الحقيقة أن هناك طرقا عديدة للخلاص من هذا الجحيم. أولها وأكثرها تجريبا ونجاحا أن تجلس لسنوات طويلة صامتا لا تأتي بحراك ولا تثير أي متاعب إلى أن يحين وقت إطلاق سراحك. المشكلة بالنسبة لي مع هذا الخيار أني جربته طويلا دون جدوى، وقد نفد صبري ولم أعد أطيق سلوك درب طويلة كهذه. الطريقة الثانية أن تقوم بعمل جريء يحوز على رضى سجانيك، كأن تخون رفاقك السجناء وتشي

بهم أو تفشي أحد أسرارهم الخطيرة. المشكلة هنا أن التجسس والخيانات كانت شائعة إلى درجة جعلت الجميع متيقظا فتعذر الحصول على سر أو وشاية تستحق المكافأة. يمكن بالطبع تلفيق تهمة أو رواية ضد أحد الأوغاد في السجن، لكن المخاطرة كبيرة وكثيرا ما انكشفت اللعبة وانتهى الأمر إلى الجلد بالسياط بدلا من الحرية. الطريقة الثالثة مأمونة العواقب، وهي أن تلعب دور البطل في إنقاذ أحد الجنود أو المستوطنين من الغرق، أو من الموت هرسا تحت جذع شجرة يهوي عليه مثلا. إن حدث هذا فالنتيجة عظيمة وكثيرا ما قفز بعض المحكومين من نير أغلالهم إلى العفو الكامل عنهم دفعة واحدة. لكن المشكلة في هذه الطريقة أنك لا تستطيع الاعتماد على حدوث مصادفة البطولة، إلا إن قمت أنت نفسك بتدبير حادثة الغرق أو السقوط، وهذا ليس بالأمر السهل. وعدا ذلك كله، فإن رئيس السجن يعتبرني عدوه الشخصي، ولهذا كان لا بد لي من اجتراح معجزة حقيقية لنيل عفوه.

يقودني هذا إلى الطريقة الرابعة التي يتحدث عنها الجميع بأصوات خافتة، أن تركض ببساطة هاربا باتجاه الغابات. كثيرون جربوا ذلك، لكن دون حظ وافر من النجاح لكثرة العقبات. فحتى لو استطعت التملص من الحارس مجرجرا أغلالك وأنت تحمل معولك، فما هي إلا لحظات ويستنفر حراس السجن ويشهرون الأسلحة لتبدأ فرق المطاردة بتعقبك في أرض وعرة لن يترك لك المحيط فيها دربا تسلكه سوى ممر ضيق من التربة يربط المرفأ بأرض فان ديمن. ممر لا يتجاوز عرضه بضع ياردات، الحراسة عليه مشددة أكثر مما هي الحال مع أسرار زوجة رئيس السجن الأيرلندي. تحاصر المنطقة أفواج من جنود البزات الحمر يرافقهم صف من

كلاب الحراسة الشرسة. وحتى لو أفلح أحد الأشقياء بتجاوز كل هذا فلن ينجو من القفر الشاسع والمسالك الوعرة التي تتطلب مسير أيام دون طعام أو ماء، قبل الوصول إلى أقرب أرض مأهولة. لذلك كان معظم الفارين يسلمون أنفسهم طوعا بعد أن يستسلموا أمام استحالة الطريق. معرفتي بكل ذلك لم تخفف من تصميمي على التفكير في سلوك هذا الطريق، إذ إن اليأس بلغ مني حدا لم أعد فيه أبالي بأي عواقب قد أواجهها. كنا نعمل قرب سكة حديد في تلك الفترة، فرحت أراقب العربات التي يجرها المحكومون تحت مراقبة الجنود، وكثيرا ما استغرقت في تخيل ما يمكن لي أن أفعله.

لم أذكر حتى الآن شيئا عن الطريقة الخامسة والأخيرة للخلاص من الجحيم المسمى مرفأ آرثر. طريقة لها محاذيرها أيضا، لكنها تتميز عن كل ما سبقها برفاهية واحدة، ألا وهي اليقين. طريقة توصلك إلى ما تريد بشكل مؤكد. أجل، رأيت العديد من الرجال يسلكون هذا الدرب ويبدؤون بأن يلوحوا لنا وهم يغادرون حالمين بما سيدخنون من التبغ في عربة قطار تنقلهم في رحلتهم الأخيرة من مرفأ آرثر إلى هوبارت. والسبيل إلى ذلك سهل جدا. ما عليك سوى أن تختار أحدهم، أي واحد ينفع، وليته كان فيرغسون مثلا. تراقبه بعد ذلك، وبمجرد أن تراه يلتفت في اتجاه آخر تقترب منه بهدوء وتنهال على رأسه بفأسك أو بحجر وتهشم جمجمته. وفي غضون بضعة أيام ستجد نفسك تغادر هذا المكان إلى الأبد مشيعا بكثير من التهليل في رحلتك العظيمة نحو حبل المشنقة. نعم، ليس أفضل الخيارات، أعترف بذلك. لم أعد أعبأ بمسألة الخيارات على أية حال، فبعد تلك الأشهر التي رأيت فيها ما رأيت من فيرغسون وعلى محفة الجلد الرهيبة تلك أصبح من الممكن أن أفعل أي شيء.

يوليوس كرين – مفتش لجنة سجون لندن، 1837

تقاذفت الأمواج السفينة كأنها ورقة في مهب عاصفة وأنا أقف متشبثا على سطحها بينما يتناهى إلى سمعي من العنبر أصوات أنين خافتة وتصلني رائحة في منتهى البشاعة. رائحة البشر عندما ينحدرون إلى ما دون الحيوانات. حالة الحشر الآدمي ذاك أثارت ضيقي، ليس فقط لفظاعة ما يعاني المحكومون فيه. فأنا أعرف جيدا كيف يُحشر أولئك التعساء، متلاصقين حتى لتثير أي حركة مهما صغرت من أحدهم موجة من اضطراب وعنف كفيلة بأن تفجر الوحشية والإجرام في دواخلهم، من أعتى القتلة فيهم إلى آخر من تبقى لديه أثر من إنسانية. لا يحتاجون إلا لبضعة أيام أخرى ليتحولوا جميعا إلى كتلة من الشر.

«يجب إخراجهم إلى السطح ليتنفسوا»، قلت محتجا.

«لا، من الأفضل الإبقاء عليهم مقيدين بإحكام يا بروفيسور»، قال ناولز رفيق رحلتي الذي لم أختره.

قلت له مرارا ما أنا ببروفيسور، ولكنه يصر على هذا اللقب كأنما يريد رشوتي به. وناولز هذا مفتش كان متوجها إلى مرفأ آرثر في مهمة إلى مصلحة المياه هناك. رجل من أولئك الذين يفتخرون بأحقادهم على البشر ولا يفرقون بين روح إنسان ونظام

ري معطوب. ومنذ بداية رحلتنا حاولت ألا أرد على تعليقاته سوى بالبرود والتجاهل، ذلك أني اكتشفت أن محاورته لا تفعل سوى الزيادة من غلوائه ولؤمه. لكني في تلك اللحظة قلت له: «ليس لديك أي عطف على إخوتك في الإنسانية».

«آه، بل لدي يا بروفيسور»، قال وضرب بكفه على صدره كأنه يشير إلى مكمن عطفه المزعوم. «هنا، تماما تحت عنقي الذي لا أريد أن يُقطع».

«لن ألومهم إن سمعوك لو تمنوا أن يُقطع بالفعل».

سمة أخرى غاية في الغرابة تميز هذا الرجل. عيناه صغيرتان إلى حد تجعلانك لا تلحظ وجودهما أو تظن أنهما مغمضتان وهو نائم لولا أنه كان يتحرك ويمشي. يعطيه هذا مع وجهه الخالي عادة من أية تعابير أو انفعال هيئة شخص بغيض متعجرف وأحول. وفي ذلك الصباح على سطح السفينة لم تتجاوز انفعالاته رعشة خفيفة عبرت وجهه بسرعة خاطفة تعلمت من مراقبتي إياه أنها تعني ضحكة .

«لن يتعرضوا لي أنا يا بروفيسور»، قال بمرح. «فهم لم يقرؤوا الكتب التي قرأتها أنت، بل تلك التي تحرضهم على قتل واعظ مسيحي مثلك».

اضطررت لاحتمال صحبته بضعة أيام عندما توقفنا في خليج باروتس للاحتماء من العاصفة، وكنت أود لو أقضي تلك الأيام في استكشاف المرفأ والمستعمرة الجديدة بدلا من هدر الوقت بالاستماع إلى هراء ناولز. كنت قد تأخرت في الإبحار بما يكفي في إنجلترا، ولا يزال أمامي مهمات كثيرة أولها زيارة سجون مستعمرات أخرى. وما زاد الأمر سوءا أننا كنا في الحقيقة على مقربة من

وجهتنا وسفينتنا ترسو على مرمى حجر فقط من الجسر الذي يربط مرفأ آرثر ببقية أرض فان ديمن. اعتدت خلال توقفنا على المشهد الكئيب لذلك المكان، مقر جنود وصفّ طويل من كلاب الحراسة رُبطت بسلاسل طويلة وضعت إحداها على منصة وسط الماء لتكون بالمرصاد لأي محكوم تسول له نفسه التفكير بالهرب عبر المياه الضحلة.

المشكلة كانت مع قبطان السفينة. «هذا ليس طقسا مناسبا للزوارق الصغيرة»، هكذا ظل يردد طوال أيام. وحتى عندما هدأت الرياح واستقرت على جهة مناسبة لم يسمح لنا بالنزول إلى اليابسة متذرعا هذه المرة بأن إنزال زوارق صغيرة في هذا الوقت سيؤخره عن الإبحار أكثر. وبسبب عناده، لم تتسنَّ لي رؤية مرفأ آرثر، وجهتي التي أبحرت كل تلك المسافات من أجل الوصول إليها، إلا بعد يومين وليلتين إضافيتين قضيناهما على مقربة من الشاطئ قبل أن نرسو أخيرا مع بزوغ الفجر. لم أتوقع أن تكون المستعمرة كبيرة بهذا الشكل، حيث لم أرَ من البعيد سوى هياكل ورشات ومخازن تركت لدي انطباعا أن المكان ليس أكثر من بلدة صناعية رثة أضفت عليها أصوات الأبواق وصياح الجنود طابعا عسكريا. ومع اقتراب السفينة تكشفت ملامح المكان القاسية في أرتال المحكومين وهم يتحركون مكبلين بأغلالهم الثقيلة. استقبلني لدى وصولي ضابط في المستعمرة بلباقة وتهذيب سعدت بهما رغم أنهما فاجآني، إذ قلما يلقى مفتش جاء لينقد الأخطاء ويصوبها الترحيب. أُخذت بعد ذلك إلى مقر إقامتي حيث تعرفت على ضابط آخر تم تكليفه مرافقتي، بل وتلقيت دعوة عشاء في بيت قائد المستعمرة وزوجته.

لم يفعل تأخير وصولي في الحقيقة سوى أنه زادني تلهفا وإصرارا على القيام بمهمتي على أحسن وجه، وتمكنت في يوم واحد من القيام بالكثير من الأعمال. زرت كل الأمكنة التي يتردد عليها المحكومون، الورشات والمخازن والزنازين والمطابخ. ورافقت رتلا مقيدا من السجناء إلى مكان عملهم أيضا، وكانت فرصة مفيدة للغاية أني تمكنت من الحديث إلى بعضهم عن الآثار التي تتركها العقوبة عليهم. معظمهم لم يتعاون واقتصرت إجابته على كلمة واحدة فقط، إلا أني تمكنت من التحدث إلى قلة ممن تكلموا دون حرج وتركوا لي أن أصل إلى نتائج مهمة. تكون لدي انطباع عام أن المستعمرة تُدار بطريقة جيدة تخلو من أساليب العنف وممارسات التعذيب التي كانت تشوب عمل المستعمرات الأخرى. كان في الحقيقة ينقصها أمر واحد جوهري، نظام فعال للتنوير والإصلاح الأخلاقي. فلم تكن المستعمرة كلها تشهد سوى بضع محاضرات والمكتبة العامة فيها فقيرة وبائسة لا يتردد عليها أحد سوى قلة من المحكومين المتعلمين في الأصل، والذين لا يحتاجون إلى القراءة في كل الأحوال. أما الكنيسة التي كانت البناء الحجري الأكثر فخامة فقد علمت أن القس فيها يفتقر إلى الحد الأدنى من التأثير، ولم يتردد الكثيرون في التعبير عن سخطهم عليه، بل إن البعض وصفه بمن يثير غضب الرب.

في غياب أي مؤثرات إصلاحية لم يبقَ من وسيلة لتقويم سلوك السجناء وردعهم سوى القسوة والعنف الشديدين في ممارسات رهيبة لا يمكن تحمل رؤيتها بسهولة. لا يمكن الموافقة على فعالية هذا الأسلوب الذي لم يكن يصلح سوى للتعامل مع الكلاب. لا يصعب تصور ما الذي يمكن لذلك أن يستفزه من كوامن الشر

والحقد في دواخل تلك المخلوقات الآثمة، بل لاحظت أن المحكومين يتركون في ظروف غير ملائمة، حيث يوضعون في أمكنة ضيقة للنوم لا يفصل بينها جدران، الرب وحده يعلم ما الذي يجري فيها من أحاديث وما هو أسوأ في الظلام. هذا مخالف لأنظمة السجون الحديثة التي كانت قد بدأت تُطبق في إنجلترا والولايات المتحدة والتي لا تعتمد كثيرا على استخدام السلاسل والقسوة، بل على القوة الناعمة للصمت. ولتطبيق ذلك يتم فصل السجناء بعضهم عن بعض في زنازين انفرادية بحيث لا يتعرضون إلى أي تأثيرات سلبية من المحيط، عدا ما يتم تلقينهم من تعاليم مسيحية بهدف إصلاحهم. أما هذا السجن في مرفأ آرثر حيث يختلط الجميع بهذا الشكل فليس سوى مدرسة للإجرام، يتعلم فيها اللص من القاتل حتى ليسود الشر على الجميع دون استثناء.

لم تكن أفكاري هذه ملائمة البتة لطرحها في مناسبة اجتماعية تحكمها مقتضيات اللباقة والمجاملة كالعشاء في بيت من أعتبره المسؤول الأول عن كل تلك الأخطاء، وهو القائد العسكري في المستعمرة. لكن أهواء الرجال تتغير أحيانا ودون مقدمات، وهذا ما حصل عندما سلكت الطريق إلى بيت مضيفي الباهر في فخامته وأناقته، فما إن رأيت ذلك البناء بشرفته العريضة المطلة على البحر في سكينة الليل حتى تملكتني حالة من الصفاء والبهجة. يبدو أني كنت في أمس الحاجة إلى ألفة أمسية ودية بعد كل تلك الأيام التي قضيتها في عرض البحر ومن ثم مع المحكومين. وعندما استقبلت في البيت لم أقوَ على مقاومة رائحة النظافة والترتيب في مكان يتضوع بروح الأنوثة. مضيفاي كانا في غاية الحفاوة، وزوجة الضابط شابة وجميلة تألقت مسرورة لهذا اللقاء في بيتها.

لا بد أن حياتها في هذا المكان البعيد كانت موحشة. حتى زوجها الذي توقعت أن أجده متجهما وصارما بما يتفق مع طبيعة مهنته كان مضيافا وودودا بطريقته الخاصة واستقبلني بكأس كبيرة من البنش[6] وضعها في يدي وأنا أدخل إلى صالة الاستقبال. لم يعكر مزاجي سوى أني رأيت ناولز واقفا ينظر بعينيه الضيقتين ويغمزني بتواطؤ. غاب عني أنه لا بد سيدعى مثلي أيضا.

وناولز دون غيره هو الذي دفعني للخوض في الموضوع الذي كنت أتحاشى التطرق إليه في جلسة كتلك، مسألة تقييمي لحالة السجناء في المستعمرة. كنا قد جلسنا وقتها حول المائدة حيث يقوم ثلاثة من السجناء بالخدمة، ويحاول أحدهم وهو رجل ضخم بوجه يشبه الكهف أن يقوم بدوره، لكن دون حظ كبير من النجاح. «كيف وجدت الأوضاع في مرفأ آرثر؟» سألني ناولز وهو يرمقني بنظرة خبيثة. «هل خدش الصوص وقتلة السكاكين شعورك؟»

وجدت أن خير ما أفعله أن أجيب بأكثر ما يمكن من الاختصار. «لم أجد في الحقيقة الوقت الكافي للتفكير بكل ما شاهدته حتى الآن».

فاجأتني زوجة الضابط بإلحاحها: «ولكن نحن يهمنا رأيك يا سيد كرين. أرجوك، لا بد أنك كونت ولو انطباعا عاما».

لمحت في نظرة المرأة إلى زوجها وهي تتكلم ما خلته ظل عدم توافق، شيء ما من التوتر لاح لي بينهما. ولأني لم أكن أرغب بانتقاد مضيفي في بيته انتقيت كلماتي بعناية فائقة: «لا بد لي من القول إني فوجئت في الواقع بمدى الكفاءة التي تدار

(6) البنش Punch: شراب مؤلف من كحول وعصير ليمون وتوابل وشاي وماء. (المترجم).

بها المستعمرة. لكن هذا لا يمنعني من الإشارة إلى بعض الخيبة التي أصابتني عندما رأيت أن المحكومين هنا لا يتلقون ما يكفي من العناية بعقولهم».

ابتسم قائد المستعمرة بقلق وقال: «وكيف تقترح أن يتم ذلك؟».

«تكلم بصراحة سيد كرين. نحن بالفعل نحتاج إلى سماع رأيك»، قالت زوجة الضابط وابتسامة حزن تعلو وجهها.

يبدو أن الأفكار التي جالت في ذهني قد أثقلت علي ذلك اليوم، وكانت تبحث عن صوت لتتداعى طليقة، وهكذا وجدت نفسي أتحرر فجأة من كل التحفظ الذي فرضته على ذاتي وأنطلق في حديث حار عن كل ما رغبت بقوله. تحدثت بداية عن الرجال أصحاب الأفكار والرؤى العظيمة في إنجلترا وأمريكا، وأوضحت أني أفضل أسلوب الفصل والتنظيم والصمت على أساليب القيود والعقاب الجماعي. في الأثناء كان ناولز ينظر بمكر إلى فوطة المائدة في يديه، بينما ارتسمت علائم التشكك على وجه الضابط رغم أنه أصغى إلي بانتباه وصبر. وحدها مضيفتي الشابة أشرق وجهها باهتمام وثقة.

«هذا رائع»، قالت وهي تعطي زوجها كأسا. «من المؤكد أنه بالإمكان تطبيق أمور كهذه هنا».

«أخشى أن الأمر ليس بهذه البساطة يا عزيزتي»، قال زوجها بصوت جهوري متشكك. «أولا لأن الموضوع ليس ضمن صلاحياتي. إنه من اختصاص الحاكم العام ووزير المستعمرات في لندن. مهمتي أنا تنحصر في تنفيذ تعليماتهما التي تقضي بفعل كل ما يمكن لجعل حياة السجناء هنا أكثر قسوة وصعوبة».

وهنا وجد ناولز فرصته للتدخل: «ما لا يفهمه السيد كرين يا سيدتي أنه ليس من مهمات ممثل جلالة الملكة هنا في هذه المستعمرة أن يصلح المحكومين، بل أن يحجزهم في هذه البقعة النائية كما تُجمع القمامة بحيث يتم تنظيف إنجلترا منهم وحمايتها من شرورهم». أنهى كلامه واتكأ على مقعده سعيدا بفصاحة ما أدلى به. «بالطبع لا أستطيع القول إن هذا النظام مريح، لكن لا يوجد غيره وعلينا أن نقبل به. لا جدوى من تبديد الموارد والأموال على إصلاح المجرمين».

رمقه الضابط بنظرة فاترة لا تخلو من الدهشة. ولم أستطع من جهتي تقبل آراء فيها من الخفة والرعونة ما لا يمكن السكوت عنه. «إن كان الهدف كما تقول من مستعمرات السجون أن نعزل المجرمين والعصاة فقط، فاعلم يا عزيزي أننا لم نحقق أي نجاح، وأننا بعد عقود من نفيهم إلى أقاصي الأرض ما زلنا جميعا عرضة للسرقة أو القتل في شوارع لندن أو غلاسكو أو غيرهما من المدن. وبصراحة أنا أشعر بالأمان هنا أكثر في أرض فان ديمن. أنت في الحقيقة تنظر إلى الموضوع من الزاوية الخطأ يا عزيزي ناولز. يجب أن لا يكون هدفنا العقاب، بل الإصلاح. أليس كل إنسان قابلا للخلاص من الخطايا؟».

«من السهل قول هذا، لكن يستحيل على النمر تغيير جلده»، أجاب مبتسما.

«أنا أؤيد السيد كرين، فمن المؤكد أن لدينا الكثير من المحكومين القابلين للإصلاح»، قالت زوجة الضابط وهي تهز رأسها.

سرني أن أجد من يقف إلى جانبي. لكن ناولز لم يتأثر بنبرة المعارضة التي تعلو ضده في جلستنا، بل إنه تحدانا قائلا:

«حسنا، لماذا لا أثبت لكم نظريتي بالتجربة»، والتفت نحو المحكوم الضخم ذي الوجه الذي يشبه كهفا. كان الرجل يضع طبقا على المائدة مليئا بالفطر المنسق على شكل زهرة. «أنت هناك، أخبرنا ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

فوجئ الرجل وأخذ ينظر إلى الطاولة يملؤه الشك والخوف مما قد يخفيه سؤال كهذا. لكن إيماءة من الضابط شجعته. «قُبض علي لأنني سرقت مخبزا في غريت يارموث».

«وهل يمكن أن تفعل هذا مرة ثانية؟» قال ناولز الذي اتخذ على كرسيه وضعية القاضي.

ارتبك المحكوم لبرهة ثم قال: «وكيف لي أن أفعل ذلك؟ لا، لم يعد بالإمكان لأني لن أعود إلى يارموث مرة أخرى».

لم يكن لجوابه أن يكون أكثر تعثرا، فهو لم يخطئ مقصد السؤال وحسب، إنما أجاب بطريقة تدعم آراء ناولز. حتى زوجة الضابط لم تتمكن من إخفاء خيبتها، بينما استغرق زوجها في الضحك. أما ناولز فكعادته أبدا لا يطاق. «ألم أقل لكم؟».

ما من عدالة في صياغة السؤال. كان ينبغي أن يسأل المحكوم هل يرى الآن الخطأ الذي ارتكبه، لا إن كان ينوي تكرار فعلته مرة أخرى. والحقيقة ما من شيء يفسد حوارا منطقيا كما الضحك، ورغم أني حاولت أكثر من مرة العودة إلى الموضوع إلا أنه كان من المستحيل استعادة الجدية، وعندما عدت إلى مقر إقامتي في تلك الليلة كان الغيظ يتملكني. عندما أتيحت لي فرصة أن أدافع عن آراء ومفاهيم عظيمة وقف لي الغباء والجهل بالمرصاد. وكأنه لا يكفيني كل ما أصابني من الغم،

إذ علمت في صبيحة اليوم التالي أن علي احتمال صحبة ذلك الفظ ناولز مرة أخرى في طريق عودتي إلى هوبارت، فقد تمكن مثلي من إنهاء أعماله وعلينا أن نسافر كفريق، ليس عبر البحر هذه المرة بل برا بسبب سوء حالة الطقس.

«بإمكانك السفر بالقطار»، قال قائد المستعمرة بفخر. «سمعت أنها الخطوط الحديدية الوحيدة في نصف الكرة الجنوبي».

قطار؟! لا، آخر الكلمات التي كان يمكن أن تخطر لي وأنا أجد نفسي في صباح اليوم التالي أترنح على عربة ترتج بعنف بينما يدفعها بعض السجناء من عارضتين امتدتا منها. كنت قد وقفت قبل ذلك والريح تعصف لأتأمل ذلك الشيء العجيب. بالشكل بدا أنه يسير على عجلات، لكنه يشبه العربات التي تستخدم في مقالع الحجارة بمقعدين فقط، واحد أمام الآخر.

«ما الذي أتى بك إلى هنا إذن؟» سأل ناولز وهو يصعد إلى مقعده. دفع أحد المحكومين المناط بهم قطر العربة. أضاف رفيقي ثقيل الظل وهو يرمقني بنظرة ساخرة: «التكلم في الكنيسة، أليس كذلك؟».

لم ينطق السجين بأي كلمة، فقط تجهم وجهه قليلا ثم انبرى بعد لحظة مع زملائه إلى دفع العربة، بخطوات ثقيلة في البداية ثم دفعات متسارعة ما لبثت أن تحولت إلى ركض انطلقت العجلات على إثره تجري فوق القضبان بخفة. كانت المركبة مكشوفة لا يحميها من عناصر الطبيعة شيء. وكان من الواضح لي أن رحلتنا ستغرق في ماء السماء. أما همي الأكبر فكان سلامة العربة. قمت بعدة رحلات من قبل في قطارات بخارية ولم أشعر مرة واحدة بهذا الفزع. القضبان والهياكل

الخشبية جعلت العربة تندفع بطريقة تخال أنها ستخرج عن السيطرة في أي لحظة، وعند المنعطفات كادت تخرج عن مسارها وتنقلب أكثر من مرة.

«هل تظن أن هذه آمنة؟» قلت لناولز الذي يجلس في المقعد الخلفي.

لم يكن علي أن أتوقع أي إجابة جدية منه. قال بصوت متهكم وهو ينظر إلى الرجال الأربعة الذين كانوا لحظتها يدفعون العربة صعودا في منحدر طويل وأجسادهم ترتج من عزم دفعهم: «وكيف لا تكون وهؤلاء الملائكة هم من يتولى دفعنا! ما رأيك بهم يا بروفيسور؟ انظر، ألا يبدو عليهم أنهم معلمون فاضلون، وأنهم ليسوا سوى ضحايا سوء تفاهم! ». كان الرجال منشغلين بما يكابدونه ولم يسمعوه.

لم يكن من الحكمة استفزاز أولئك الرجال ونحن رهن أيديهم هكذا، وكنت على وشك أن أطلب من مرافقي أن يكف عن تشدقه عندما انتبهت فجأة أننا وصلنا إلى قمة مرتفع تنحدر الأرض بعده أمامنا بشكل مفاجئ وحاد باتجاه فسحة، رأيت فيها عن بعد مجموعة من السجناء المقيدين يعملون على قطع جذوع أشجار ضخمة. حاول الرجال الأربعة السيطرة على العربة بكل قواهم، إلا أنها اندفعت بسرعة نحو أسفل المنحدر، وعندما أخذوا يشدونها لكبح اندفاعها فقدوا السيطرة عليها وما كان منهم إلا أن تعلقوا بها مما زاد من تسارع تدحرجها. لم يعد أمامي لحظتها سوى الاستسلام إلى يقين واحد؛ أننا سنلقى مصيرنا في حادث مروع.

«المكابح... المكابح! » صرخت كأني أستغيث.

أشار أحد المحكومين وهو رجل يملأ جبينه أثر جرح سابق إلى مقبض خشبي في جانب العربة، لكنه لم يحاول الإمساك به أو استخدامه. ربما كان لا يزال يشعر بالإهانة من تعليقات ناولز الرعناء، لكن لم يكن لي أن أستسلم لحماقات كهذه وأجعلها تحدد مصيري وتقودني إلى حتفي. ولأنه بدا لي أن ما من أحد سيفعل شيئا قررت أن أقوم بما يجب بنفسي فملت بجسدي إلى جهة مقبض المكابح لأتمكن من الإمساك به. لم أتوقع أن يكون لحركتي تلك أثر كبير، فقبل أن تصل يدي إلى مقصدها مالت العربة وأخذت ترتج بعنف دفع ناولز نفسه للصراخ. نظرت إلى السجناء فوجدت أن وجوههم شحبت من الفزع للمرة الأولى وقد أخذوا يميلون بأجسادهم إلى الجهة المعاكسة لتعديل توازن العربة، لكن ما حدث أن ذلك قد زاد الأمر سوءا وجعل كل شيء يبدو على حافة الانهيار. وخلال لحظات حدث ما كنا نخشاه.

هل انقلبت العربة على جانبها أم تشقلبت إلى الأمام فوق محور العجلتين الأماميتين، هذا ما لن أعرفه أبدا. كل ما أذكره ذلك الصوت المفزع لصرير واحتكاك العجلات ثم فوضى الصراخ والسقوط. لا بد أني فقدت وعيي لبرهة بعدها، وعندما صحوت وجدت نفسي عند جذع شجرة ضخمة، وقطرات المطر تتساقط فوقي من بين أوراقها. نظرت حولي فوجدت ناولز مطروحا على الأرض قربي، بجوار رجل غريب لم يكن معنا. يبدو أن ناولز قد اصطدم به بعنف سبّب لكليهما جروحا بليغة في الرأس. كانا ينزفان لكني استطعت التأكد من أنهما على قيد الحياة. أما عندما حاولت النهوض فقد اكتشفت أن

ساقي اليسرى قد جرحت وأصيبت بكسر خفيف، ولم أتبين ما حولي إلا بعد لحظات حين نظرت فوجدت أننا لسنا وحدنا. مجموعة من السجناء كانوا يقفون حولنا مذهولين، لا بد أنهم قاطعو الأخشاب الذين رأيتهم من أعلى المرتفع.

خطر لي على الفور أنه لا بد لي من البحث عن المسؤول هنا. «أين الضابط المسؤول؟» سألت أحد الواقفين، رجل ضخم بأثر جرح كبير في خده وحلقات داكنة تحت عينيه الفزعتين بنظرات توحي بأنه مجنون حقيقي. «هناك»، أشار إلى جهة ناولز فعلمت أنه يقصد الجريح الثاني. أقلقني اكتشافي هذا، لكني عندما رأيت الرجال الأربعة الذين كانوا يدفعون عربتنا وجدت أنهم لم يصابوا بأذى. لا بد أنهم سقطوا في الاتجاه الآخر. قلت لهم بلهجة آمرة: «يجب نقل هؤلاء إلى المستعمرة فورا، فهم يحتاجون إلى إسعاف».

«ألسنا كلنا نحتاج؟» سأل أحدهم فبدرت عن الآخرين ضحكات خافتة، لكنها لا تخلو من الحقد.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فسرعان ما تفاقمت الأمور. اقترب السجين الضخم، قاطع الأشجار ذو المظهر المفزع من صخرة مسطحة، ووضع سلسلة قيوده فوقها ثم انهال عليها بضربات قوية من فأسه تردد صداها في أرجاء الوادي. انقطعت السلسلة محدثة صوت انكسار معدني حادا. انتصب الرجل بعدها وأخذ يمشي بخطوات واسعة نحونا.

«أرجوك، ارفق بنا فنحن لم نؤذ أحدا هنا»، قلت له وأنا أفكر أن من الأفضل التحدث إليه مباشرة. لكنه لم يسمع، بل تجاوزني وعيون رفاقه معلقة به متجها إلى حيث يرقد ناولز

والضابط المسؤول. توقف هناك فوق الضابط ورفع فأسه إلى الأعلى. ارتجفت ذعرا وأشحت بوجهي جانبا، لكن الصمت دام لحظات طويلة، وعندما التفت لأنظر إليه مرة ثانية، وجدته في الوضعية ذاتها كأنه تمثال ينظر بثبات نحو الجسدين تحته. نظر عندها نحو العربة المنقلبة، لكنها كانت حطاما لا نفع فيه. بعد ذلك فاجأ الجميع بأنه أبعد الفأس ووضعه بجانب الشجرة ثم اقترب من ناولز وانحنى ليحمله كمن يحمل طفلا صغيرا. «لا تخف، سأنقذه».

جاك هارب، 1837

أنهكنـي المـشي إلى مرفـأ آرثـر، خصوصـا وأنـا أحمـل ذلـك البديـن، ولم أتمكـن في الحقيقـة مـن متابعـة طريقـي حتـى النهايـة إذ قبـض عليَّ بعـض الجنـود لـدى رؤيتهـم لمظهـري المريـب. سـجين محطـم القيـود يحمـل رجلا ينـزف مـن رأسـه! وهكـذا وجـدت نفـسي في زنزانـة، أسـير مخـاوفي وحـيرتي. هـل تصرفـت بـذكاء، أم أنـه مـا مـن أحـد في أرض فـان ديمـن كلهـا أكـثر حماقـة منـي! لكـن ولحسـن الحـظ لم تطـل حـيرتي، فقـد دخـل عـلي ضابـط وأخـبرني أن عـلي الذهـاب إلى المشـفى.

راودني الأمـل وأنـا في طريقـي إلى هنـاك، ومـا إن وصلـت حتـى رأيـت ذلـك الوغـد الـذي أنقذتـه ممـددا في سريـر وإلى جانبـه رئيـس المسـتعمرة ذاتـه وذلـك الأحمـق الرقيـق الـذي طلـب منـي المسـاعدة. بـادرني الأخـير الـذي كان يرقـد في سريـر أيضـا بسـلام حـار، ومـد يـده ليصافحنـي مـما جعلنـي أرتبـك، فأنـا لم أكـن أعـرف إن كان ذلـك مسـموحا لي. لم يكـن لي في الواقـع أن أحلـم بواعـظ أفضـل مـن هـذا، ولـو كنـت سـعيت إلى أحـد بنفـسي لمـا حظيـت بأفضـل منـه. فـما إن دخلـت حتـى أخـذ الرجـل يكيـل لي المدائـح ويـردد عبـارات الثنـاء، ويقـول إني بطـل وإنـه يجـب أن أكافـأ عـلى مـا فعلـت، لا أن توضـع الأصفـاد في يـدي. لم يـرق ذلـك لقائـد المسـتعمرة، ولا لذلـك البديـن

السافل الذي حملته، لكني لم أبالِ، فمديح الواعظ كان يكفيني. ظل يرغي ويزبد حتى أجبر الرئيس على إطلاق سراحي. لم يكن هذا في الحقيقة يعادل عفوا كاملا، لكنه ليس بالقليل على أية حال، فطالما تجنبت المتاعب وبقيت في أرض فان ديمن فبوسعي فعل ما أشاء.

لم يكن من السهل تصديق ذلك بعد كل تلك السنوات التي قضيتها في السجن. ورغم وقع المفاجأة لم يغب عن بالي التفكير فيما علي القيام به بعد الخروج من سجني. لم تكن الحياة في المدن تعجبني ولا في المزارع أيضا، فأنا قضيت قسطا كبيرا من حياتي في تقطيع الصخور والأشجار. لا، سأعود إلى إحدى تلك الجزر الصغيرة حيث قضيت أيام التخفي. لم تكن حياتي هناك سيئة، فما من أحد يتلصص عليك أو يقرر لك ما عليك أن تفعله. لم لا؟ وقد أجد لنفسي خليلة من الأصليين، لو تبقى أحد منهم.

المترجم في سطور

د. علي محمد سليمان

- مواليد دمشق 1970.
- دكتوراه في الدراسات المسرحية من جامعة أوكسفورد البريطانية عام 2005.
- أستاذ زائر في جامعة أوكسفورد البريطانية.
- أستاذ المسرح في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق.
- أكاديمي وباحث سوري له العديد من البحوث والمقالات والترجمات المنشورة في دوريات وصحف عربية وأجنبية في مجال المسرح والأدب العالمي.
- له كتاب بعنوان «ظل الوردة: دراسة في مسرح جورج شحادة».
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية وألقى محاضرات في جامعات بسورية وبريطانيا.

د. علي العنزي.

- عضو هيئة تدريس قسم النقد والأدب بالمعهد العالي للفنون المسرحية (2006).
- عميد المعهد العالي للفنون المسرحية (2018).
- له عدد من المؤلفات والتراجم منها: أسفار الموت والمقاومة – نص مسرحي 2017.
- محاضر في الأدب الحديث والمسرح السياسي.
- محاضر في نقد المسرح الحداثي وما بعد الحداثي، وفي النقد التطبيقي.
- عضو هيئة تحرير سلسلة إبداعات عالمية بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، منذ العام 2009.
- عضو محكم للأبحاث والدراسات الأدبية في عدة مجلات علمية جامعية محكمة، منذ العام 2009.
- عضو محكم لجائزة الكويت للقصة القصيرة (جائزة الملتقى).
- رئيس لجنة تحكيم مهرجان المسرح المحلي والمسرح الخليجي.
- عضو جمعية الصحافيين الكويتية.
- نال جائزة الدولة للإبداع الصحافي من وكالة الأنباء الكويتية في العام 1994.
- محاضر في الهيئة العامة للشباب والرياضة في دورات أصول الكتابة والتأليف المسرحي.
- محاضر في فن تحليل الأعمال السينمائية الأوروبية.
- له العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة بمجلات علمية محكمة، وهو عضو في العديد من لجان التحكيم، وقام بمهمة تحكيم أبحاث النقد المسرحي لعدد من المجلات العلمية المحكمة.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1 - محنة الأخ جيرو 2 - تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـــــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجـي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو منديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي

ما صدر من هذه السلسلة

401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليڤي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إِنِّي أَتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِيْنوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـــاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْرِيش هايْنِهْ
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليـوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـــو هـــوا
414	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلْبير سِيْنُويه
415	رَاوِي مَرَّاكش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـــــ باتاجاريا
416	فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرْب (رواية)	تأليف: سارة نوفيتش
417	آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
418	آكلو اللوتس الجزء الثاني (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
419	بستنة في المنطقة الاستوائية (ديوان شعر)	تأليف: أوليف سنيور
420	مختارات من القصة القصيرة الهندية الحديثة	تأليف: مجموعة من كتّاب شبه القارة الهندية
421	جمعية غيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطا (رواية)	تأليف: ماري آن شيفر وآني باروز
422	كي يواجهوا الشمس المشرقة (رواية)	تأليف: جون ماكغرين
423	صوت مُنْفَرِد (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
424	●السيدة أَرنول - ●الجبل (روايتان)	تأليف: جان نويل بانكرازي
425	الأشياء تنادينا (قصص)	تأليف: خوان خوسيه ميّاس
426	ميخائيل زوشينكو (قصص مختارة)	تأليف: ميخائيل زوشينكو
427	مون تايجر (رواية)	تأليف: بينيلوبي لايفلي
428	غطاء دروبادي (رواية)	تأليف: آناندا ديڤي
429	موسم الظل (رواية)	تأليف: لينورا ميانو
430	قَبْلَ أَنْ نَزُورَ الإلهة (رواية)	تأليف: شيترا بانرجي ديڤاكاروني
431	الغزو (مجموعة قصصية)	تأليف: ريكاردو بيجليا
432	السكينة (رواية)	تأليف: أتيلا بارتيش
433	سيدة أورتوبي.. وقصص أخرى..	تأليف: بيّو باروخا

يمكنكم الاشتراك والحصول على نسختكم الورقية من إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب من خلال الدخول إلى موقعنا الإلكتروني:

https://www.nccal.gov.kw/#CouncilPublications

البيان	عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		18		20	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8		10	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36	24	
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24	12	
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48		100
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36		50
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36		50
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24		25

قسيمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
المدينة:	الرمز البريدي:
البلد:	
رقم الهاتف:	
البريد الإلكتروني:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت